مرايا-23

كيف تتحرر فلسطين؟

مدير إعلام لجان المقاومة:

معركتنا تراكمية

وليست بالضربة القاضية

محامي الأسرى يامن زيدان:

إسرائيل الآن

تعيش أضعف حالاتها

يهود من أجل السلام:

الصراع أخلاقي

وعلينا دعم الفلسطينيين

■■■

الأخضر بن يوسف يموت في بلد غريب

الصعيد بين الثأر التقليدي و الحداثي

مرايا-23

كيـف
تتحرر فلسطين؟

الناشر: دار المرايا للإنتاج الثقافي

المشرف العام على التحرير

يحيى فكري

المحرر التنفيذي

يحيى وجدي

تحريـر

أسماء يس

سكرتير التحرير

حسن جمال

الكُتّـــاب

أحـمـد حسـن
أحـمـد عـبـد الـجـبـار
أحـمـد مـحـسـن
أسـمـاء زيـدان
أسـمـاء يـس
أكـرم إسـمـاعـيـل
أمـيـمـة صـبـحـي
بـيـسـان عـدوان
جـرجـس شـكـري
خـالـد يـوسـف
ريـاض حـمـادي
شـيـمـاء عـلـي
عبد الهادي محمد عبد الهادي
عـصـام زكـريـا
عـلـي عـلاء
فـتـحـي عـبـد الـسـمـيـع
مـنـى أبـو الـنـصـر
مـحـمـد جـمـيـل
مـحـب جـمـيـل
مـيـشـيـل حـنـا
مـحـمـد حـسـنـي
مـحـمـد عـبـد الـنـبـي
مـحـمـد عـبـد الـفـتـاح
مـحـمـد كـمـال
مـنـى الـسـيـد
مـنـى يـسـري
مـيـنـا نـاجـي
مـاجـد وهـيـب
هـشـام جـعـفـر
الأب ولـيـم سـيـدهـم
يـحـيـى فـكـري

دينـا جميـل

رئيسة تحرير مرايا

2017 - 2020

حضـور دائـم

المدير الفني

سامح الكاشف

الإخراج الفني

أحمد نجدي

المحتويات

• **بداية**.....**المحرر** 5

• **هوامش**

- الثأر التقليدي والثأر الحداثي.. مذبحة أبي حزام نموذجا .....فتحي عبد السميع 8
- مصنع «جراجوس».. الإغلاق بقرار ثيوقراطي .....الأب وليم سيدهم 14
- الشيوعي الأخير.. كيف مات الأخضر بن يوسف في بلدٍ غريب! .....جرجس شكري 16
- إبراهيم رئيسي.. الجمهورية الإسلامية الإيرانية تخسر الانتخابات.....شيماء علي 24
- إسرائيل: حكومة غير متجانسة بمشاركة عربية ومشكلات تنتظر.....محمد كمال 28
- حادث كندا العنصري.. اعتراف متأخر بالإرهاب الأبيض .....محمد عبد الفتاح 34

• **رؤى**

- في نشر الأدب و«الراب».. هذا ما فعله السوق .....مينا ناجي 38
- لماذا نصبح انتقائيين في صداقاتنا مع التقدم في العمر؟..... عبد الهادي محمد عبد الهادي 44
- التجارة العادلة.. أزمة الصناعات التقليدية وسبل الإنقاذ الحقيقي .....منى السيد 48

• **ثقافات**

- ثمار من بساتين الجوع .....محمد عبد النبي 54

• **نظر**

- الدليل الشامل لمراقد الحكام من أسرة محمد علي .....ميشيل حنا 62

• **تواريخ**

- أصوات من حربنا المجهولة .....خالد يوسف 70

• **قضايا**

- ملف كيف تتحرر فلسطين؟ .....يحيى فكري 76
- مدير المكتب الإعلامي للجان المقاومة في فلسطين
محمد البريم «أبو مجاهد»: ما بعد معركة «سيف القدس» ليس كما قبلها .....حوار/ بيسان عدوان 78
- محامي الأسرى الفلسطينيين يامن زيدان:
إسرائيل باتت أضعف.. والمعركة تبدأ بإعادة بناء «منظمة التحرير» .....حوار/ أسماء زيدان 84
- الطريق إلى تحرر فلسطين.. المسار والتحديات.....أحمد حسن 89
- الهبة الفلسطينية الأخيرة: استدعاء خطاب التحرير من جديد .....محمد جميل 93
- الوحدة والكرامة والأمل.. التطلع للأمام لا العودة ..... ندا إيليا. ترجمة/ أميمة صبحي 97
- يهود من أجل السلام: مأساة فلسطين أزمة أخلاقية ..... أليس روتشيلد. ترجمة/ أسماء يس 101
- اليسار الجذري في إسرائيل.. بذور في أرض صخرية .....محمد حسني 105
- المرأة الفلسطينية.. نضالات من أجل التحرر
والمساواة.....مارجوت فالير، سارة يوكي، إميليا لويز. ترجمة/ عمرو جمال 114
- بين «حراسة الجدران» و«سيف القدس».. إسرائيل ترى هزيمتها .....هشام جعفر 120
- «حماس».. وراثة منظمة التحرير تبدأ من فك الارتباطات.....أكرم إسماعيل 126
- الإعلام البديل: وسائل التواصل الاجتماعي وإعادة رواية الكفاح الفلسطيني.....منى يسري 131

• **فنون**

- التلقي السينمائي بين المتعة والفهم.....رياض حمادي 136
- حالهُ أصعب من السينما.. أبو الفنون يبحث عن أرشيف! .....عصام زكريا 146
- صورة العميد.. تمثيلات طه حسين في الدراما والسينما.....أحمد عبد الجبار 150
- الحفلة في سينما وحيد حامد.. الصغار يسرقون الأضواء في مجتمع الكبار.....ماجد وهيب 156
- محمد قنديل.. المطرب الذي أحب الكناري .....محب جميل 162

• **مراجعات**

- رحلتي مع «ابن فطومة».....أحمد محسن 168
- «امرأة في النافذة».. التلصص على العالم بعيون الخوف .....منى أبو النصر 172
- «ربيع جديد».. مجتمعات مقهورة وشعوب ثائرة .....علي علاء 178

مرايا-23

- «مرايا» كتاب ثقافي/ نظري يعنى بنشر المساهمات ذات القيمة في الفلسفة والفكر، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، والنقد الأدبي والفني.
- يعطي كتاب «مرايا» الأولوية لنشر الكتابات التي تلقي ضوءًا على الواقع المصري والعربي والشرق أوسطي.
- يرحب كتاب «مرايا» بالإسهامات المتميزة غير المنشورة سابقًا، ويترجم نصوصًا منتقاة منشورة بلغات أخرى.
- لا ينشر كتاب «مرايا» نصوصًا تروج للرجعية والطائفية والعنصرية والذكورية، أو تحرض على الكراهية، أو تحتوي على عبارات السب والقذف.
- يلتزم كتاب «مرايا» بالرد على مقدمي المقترحات والنصوص، مع احتفاظه بالحق في تحديد توقيت نشر النصوص المقبولة، وفى تحريرها وفقًا للحدود المتعارف عليها.
- يتلقى كتاب «مرايا» المراسلات على البريد الإلكتروني marayajournal@elmaraya.net

---

الآراء المنشورة تعبر عن رأي كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي كتاب «مرايا»

رقم الإيداع: 8524/17724

الترقيم الدولي: 978-977-6898-08-0

المراسلات

23 شارع عبد الخالق ثروت، وسط البلد، القاهرة ،

جمهورية مصر العربية

تليفاكس: 223961548

البريد الإلكتروني:

marayajournal@elmaraya.net

◆◆◆◆◆◆

١٨٤ صفحة

المقاس ١٩× ٢٧,٥ سم

العدد - ٢٣

بـــدايـــة

«كيف تتحرر فلسطين؟»، يبدو هذا السؤال الـذي اختـرنـاه مـوضـوعًـا لـبـاب قـضـايـا، وعنوانًا لهذا العدد من «مرايا» واسعًا وعامًا، غير أنـه فـي الحقيقة كـان الـعـنـوان الـذي يجب طرحه الآن، بعد الهبة الفلسطينية الأخـيـرة على خلفية الإجـرام الصهيوني في القدس، وعـدوان جيش الاحتلال على غـزة. كـذلـك هـو الـسـؤال الـذي يطرحه الجميع في أرض فلسطين في غزة والضفة، وفـي المناطق المحتلة، وفـي الشتات. وهو العنوان الذي الذي تناقشه الحركة الدولية المتضامنة مع فلسطين وقضيتها، فإذا كانت إسـرائـيـل لا تنفك تتوسع فـي استيطانها وفـي تـهـويـد الـقـدس وفـي الاعـتـداءات الـمـتـواصـلة، فمتى نـوقـف هـذا كـلـه؟ وما السبيل إلى ذلك سوى بتحرير فلسطين. أما كيف؟ فهذا هو سؤال العدد، الذي يشتبك معه -نقول اشتباكًا لا إجابة نهائية- أصوات مختلفة في انتماءاتها وارتباطاتها ومهامها وجـنـسـيـاتـهـا؛ كـل حـسـب مـوقـعـه ورؤيـتـه للقضية وسؤال التحرير؛ من المتحدث باسم لجان المقاومة إلى أبرز الناشطات في حركة يهود من أجل السلام في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الناشط الدرزي في صفوف عرب 48 الذي يقود حملة قوية بين أبناء طائفته وشعبه لرفض التجنيد في الجيش الإسـرائـيـلـي، إلـى مناقشة كـيـف نستغل الإعلام الجديد في إعادة رواية القضية على العالم.

إن هـبـة الـشـيـخ جـراح الفلسطينية من القدس إلى غزة والعكس، ليست الأولى من نوعها، ولن تكون الأخيرة بالطبع، بالعكس فالخطوة القادمة كما يتوقع المشاركون في ملفنا، ستكون انتفاضة شاملة في كل أراضـي فلسطين، وقـد بـات سـؤال التحرير مـطـروحًـا مـن جـديـد، حـتـى وإن اختلفت الأسئلة الفرعية تحته حول شكل التحرير، وهل الحل في دولـة واحـدة علمانية يعيش فيها الجميع أم دولتين؟ وماذا سيكون موقف الأجيال الجديدة من الإسرائيليين وخصوصا الذي يقدمون أنفسهم على يسار حكوماتهم العنصرية ويـؤمـنـون بأنه لا حـل سـوى أن يحصل الفلسطينيون على حقوقهم كي يعيشوا هم أنفسهم في أمان.

هـذا العدد من «مـرايـا» يحفل بالعديد من المقالات الأخرى في قضايا مختلفة وآنية، فيكتب الـشـاعـر فتحي عبد السميع عن الـثـأر فـي الصعيد، وتـحـديـدًا عما يصفه بالثأر الحداثي في مواجهة الثأر التقليدي، ويـرثـي الـشـاعـر جـرجـس شـكـري الشاعر الكبير الراحل سعدي يوسف، ويكتب الأب وليم سيدهم اليسوعي مؤسس «الجيزويت» عن إغـلاق مصنع الفخار الشهير في قرية جراجوس.

كـذلـك نـنـاقـش فـي عـددنـا هـذا مـا فعله السوق وقوانينه وقواعده الجديدة بنشر الأدب وأغنيات الـراب المنتجة مؤخرًا في مقال للكاتب مينا ناجي، ونـراجـع تقنيات الـكـاتـب الكبير الـراحـل وحـيـد حـامـد في كتابته للسينما، و«حفلته» التي يقدم من خلالها للمشاهد بطله ويعيد عبرها تفكيك المشهد، في مقال للكاتب ماجد وهيب، ونقرأ مجددًا تحفة نجيب محفوظ «رحـلات ابن فطومة»، في مقال للكاتب والمترجم أحمد محسن، بـالإضـافـة إلـى متابعات ومقالات ومراجعات ودراسات أخرى في أبواب المجلة المختلفة.

هوامش
23
مصنع "جراجوس"..
الإغلاق بقرار ثيوقراطي
هوامش
23

23
مذبحة أبي حزام نموذجًا
23

23
حادث كندا العنصري..
اعتراف متأخر بالإرهاب الأبيض
23

23
إبراهيم رئيسي
الجمهورية الإسلامية الإيرانية تحسر الانتخابات
23

23
إسرائيـــل:
حكومة غير متجانسة بمشاركة عربية
ومشكلات منتظرة
23

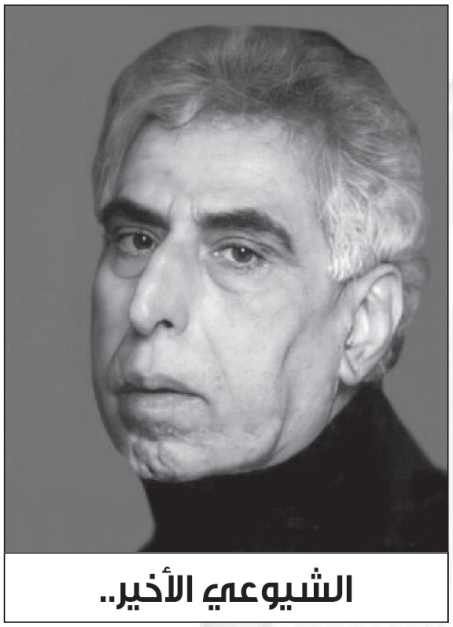
الشيوعي الأخير..

هوامـــش

- الحدث استثنائي بالنسبة للقرية، لكنه ليس استثنائيًا على مستوى الصعيد، بل يعبر عن ظاهرة جديدة يمكن أن نطلق عليها - بشكل مبدئي متحفظ- اسم «الثأر الحداثي»..

الثأر التقليدي والثأر الحداثي..

مذبحة أبي حزام نموذجًا

فتحي عبد السميع

لم ننته من إغلاق ملف الثأر في شكله التقليدي حتى انفتح أمامنا ملف ثأري آخر له ملامحه الحداثية، لكنه يتفوق على الثأر التقليدي من حيث الشراسة والتعطش إلى سفك الدماء، والجور على القيم والأعراف المستقرة، والتحليق في أجواء خرافية مجنونة تضرب الحائط بأبسط حسابات التنظيم والعدالة.

مذبحة أبي حزام والثأر الجديد

يتجسد الثأر الجديد في المذبحة الثأرية الأليمة التي جرت وقائعها في قرية أبي حزام، محافظة قنا، يوم 2/6/2021، وراح ضحيته أحد عشر شخصًا مقابل فرد واحد، بخلاف المصابين الذين نقلوا إلى المستشفى في حالات خطيرة، ومنهم من مات بالفعل، بعد أيام ليرتفع عدد القتلى، وأغلبهم لا علاقة لهم بالخصومة الثأرية، وكل ما اقترفوه هو عودتهم إلى القرية بعد قضاء مصالحهم في بندر نجع حمادي.

بدأ اليوم الدامي بخلاف بين شخصين أحدهما ينتمي إلى عائلة (السعدية) التي تنتمي إلى قبيلة الهوارة، والآخر ينتمي إلى عائلة (العوامر) التي تنتمي إلى قبيلة (العرب)، وقد أدى الخلاف إلى مصرع الأول على يد نجل الأخير، وهناك كلام مختلف حول طبيعة الخلاف، خاصة وأن تحريات الشرطة النهائية لم تنته بعد، وسوف تستغرق وقتًا طويلاً حتى شفاء المصابين وانتهاء التحقيقات، وقد توصلت التحريات المبدئية إلى وجود خلاف مالي ولم تحدد قيمته أو طبيعته، وهناك أحاديث غير رسمية تعود بالخلاف إلى المشاركة في تجارة المواد المخدرة، وهناك حكاية يتناقلها بعض الأهالي عن قيام (العوامري) بالتنبيه على صديقه الهواري بعدم الحضور إلى منزله وهو يحمل سلاحه الناري، الأمر الذي رفضه الهواري، وتوجه إلى منزل صديقه أو شريكه حاملاً بندقيته الآلية، وما إن رآه نجل العوامري المدعو سيف، حتى استشاط غضبًا وقام بإطلاق الأعيرة النارية صوبه، فأرداه قتيلا، وقام بالاتصال بأهله وأخبرهم بالواقعة، فقام نجل القتيل باصطحاب ثلاثة أفراد من أقربائه، وقرر الثأر لولده بالقضاء على كل ركاب الميكروباص القادم من نجع حمادي، والخاص بسائق ينتمي إلى عائلة القاتل، وكمنوا للميكروباص في المكان الذي أيقنوا سلفًا قدومه فيه، وما إن شاهدوه حتى أطلقوا على الميكروباص وابلاً من الأعيرة النارية قاصدين قتل كل الركاب اعتقادًا منهم بأنهم ينتمون جميعًا لعائلة العوامر، الأمر الذي نتج عنه مصرع أحد عشر شخصًا في الحال، وإصابة الباقين بإصابات خطيرة، وأغلبهم لا ينتمون إلى عائلة العوامر، ومنهم من ينتمي إلى قبيلة الهوارة، أقرباء مطلقي الرصاص.

الحدث استثنائي لم يحدث في القرية من قبل، رغم أن القرية شهدت وقائع ثأرية تعد بالمئات، ولهذا لا يعبر عن ثقافة القرية، أو على الأصح، لا يعبر عن النظام التقليدي للثأر. الحدث استثنائي بالنسبة للقرية، وهذا لا يعني التقليل من شأنه، بل العكس هو الصحيح، لأنه ليس استثنائيًّا على مستوى الصعيد، بل يعبر عن ظاهرة جديدة يمكن أن نطلق عليها ـ بشكل مبدئي متحفظ ـ اسم «الثأر الحداثي»، لأنها تختلف عن الثأر التقليدي اختلافًا صارخًا، وتحمل سمات أو مظاهر حداثية.

مذابح شقيقة

مذبحة أبي حزام صورة طبق الأصل من مذبحة بيت علام، في محافظة سوهاج، والتي جرت وقائعها عندما توجه أقارب المتهمين بالقتل الى سوهاج مستقلين سيارتين لحضور إحدى الجلسات في مبنى المحكمة، فقام عدد من أفراد العائلة الأخرى بعقد النية على قتلهم جميعًا، وترصدوا لهم وسط الزراعات في الطريق الذي أيقنوا سلفًا مرورهم فيه، وما إن شاهدوا السيارتين حتى أطلقوا صوب المجني عليهم وابلاً من الرصاص، أدى إلى مقتل أكثر من عشرين فردا.

نفس المذبحة تقريبًا، حدثت أمام قرية أولاد خلف، مركز دار السلام، بمحافظة سوهاج، حيث قام أفراد من عائلة (الشواهي) بإطلاق النار من بنادق آلية على أفراد عائلة (القوايدة) أثناء استقلالهم لإحدى السيارات، مما أدى إلى مصرع خمسة أفراد في الحال، وإصابة باقي ركاب السيارة بجروح نارية خطيرة، وكذلك إصابة بعض العابرين في الشارع، وكان بين الضحايا أطفال في السادسة من العمر، وكل هؤلاء ثأرًا لمقتل شخص واحد، بالمخالفة لأعراف الثأر المستقرة.

نفس المذبحة حدثت أيضًا في طريق قنا سفاجا، حيث لقي خمسة أشخاص مصرعهم رميًا بالرصاص بعد إيقاف الميكروباص من قبل مجموعة مسلحة تنتمي لقرية الحجيرات، وذلك ثأرًا لمقتل شخص واحد.

كل هذه المذابح وغيرها لا تنتمي إلى نظام الثأر التقليدي، وهي من هذا الوجهة حوادث فردية واستثنائية، لكن التوقف هنا خطأ، وخطر، لأنه يمكن أن يخدرنا، فما حدث بشكل استثنائي عارض قد يوحي بأنه لن يحدث مرة أخرى، بينما الحوادث التي نحسبها فردية تتراكم لتكوِّن ظاهرة جديدة.

في كل الحوادث السابقة وغيرها، تشترك مجموعة من الأفراد في العملية الثأرية، أي لا يقوم بها فرد يعبر عن مزاج شخصي في ظرف معين، بل يحصل السلوك الشاذ على دعم آخرين، ويصل الدعم حد المخاطرة بحياتهم من أجل تحقيق الهدف الجنوني،

- تجاوز مفهوم العار يعني تجاوز جوهر المنظومة الثأرية التقليدية، الأمر الذي يترتب عليه سقوط أعراف ومبادئ أخرى، وفي مقدمتها مبدأ العدل نفسه، فالثأر يأخذ شرعيته وقدسيته من مبدأ العدل

وتلك المشاركة تجرد السلوك من شذوذه مهما كان مخالفًا للأعراف، وتقدم ظاهرة جديدة تستحق الرصد والتحليل بعيدًا عن الأفكار المسبقة.

خريطة العنف

من الخطأ وضع كل قرى الصعيد في سلة واحدة، حيث تختلف القرى من حيث علاقتها بالعنف اختلافًا كبيرًا، وتعيش أغلبية القرى في حالة من الهدوء الكبير، باستثناء حوادث العنف الصغيرة مثل التعدي بالقول أو الضرب باليد، حيث تندر أحداث العنف الكبيرة، خاصة تلك التي تنتهي بالقتل، وهذا هو الوضع السائد في الصعيد بخلاف الشائع عبر الصورة الإعلامية التي تركز على الأحداث العنيفة وحدها.

وتوجد في الصعيد دوائر صغيرة ترتفع فيها حدة العنف، وتلك الدوائر عبارة عن نقاط متحركة، فالقرية المسالمة يمكن أن تتحول إلى قرية عنيفة في لحظة، والقرية العنيفة يمكن أن تهدأ وتتحول إلى قرية مسالمة، وعلى سبيل المثال، كان يتم النظر إلى مدينة فرشوط باعتبارها مدينة مسالمة جدًا بين محيط من القرى الأكثر عنفا، وفجأة تحولت فرشوط إلى مركز من مراكز العنف الشديدة مع التناحر الثأري الذي نشب بين عائلة المخالفة وعائلة السحالوة، والذي أدى إلى مصرع ستة عشر شخصا بخلاف المصابين، ونفس الأمر مع الدابودية النوبية في خصومتها مع الهلايل في أسوان، أي أن خريطة العنف متحركة، لكنها تتمتع بقدر من الثبات في بعض القرى ومنها قرية الشعانية التي تضم منطقتي حمرة دوم وأبي حزام التي حدثت فيها مذبحة العوامر والسعدية.

الجغرافيا الدامية

حدثت المذبحة في قرية الشعانية، إحدى قرى نجع حمادي، وتحديدًا في منطقة (أبو حزام) والتي تعتبر مع منطقة (حمرة دوم) الملاصقة لها، من الأماكن الخاصة جدًا، من حيث خطورتها الأمنية، وارتباطها بأكبر الأشقياء الخطرين، ويلعب العامل الجغرافي دورا أساسيا في صنع تلك الخصوصية، لأنه يحصّن المكان بثلاث طبقات أو دروع، وأول هذه الدروع هو بعد المسافة النسبي عن الطريق الأسفلتي السريع، الأمر الذي تستغرق معه قوات الشرطة وقتًا طويلاً حتى تصل إلى البلدة، وهو ما يمكّن المُستهدَفين من الهرب. والدرع الثانية هي زراعات قصب السكر، والتي تسهل اختفاء العناصر المطلوبة، وتمنع عنها أضرار الرصاص، كما تمنحها أفضلية في حالة الهجوم على قوات الشرطة، وهو ما يحدث على فترات متباعدة، ويسفر عن سقوط قتلى من الشرطة. أما الدرع الثالثة فهي الهضبة الجبلية المتاخمة للقرية، وما يتصل بها من مغارات وكهوف ومسالك سرية، من الطبيعي أن يكون أهلها أدرى بشعابها، وكل ذلك يجعل المكان موقعًا استراتيجيًا للهاربين من الأحكام القضائية، ويعزز الشعور بالمكانة والسطوة القبلية وردود الفعل السريعة والعنيفة على ما يُعتبر عدوانًا، غير أن هذا العامل الجغرافي لا يؤثر في حد ذاته على طبيعة سكان المنطقة، حيث توجد غالبية من العائلات المسلمة والمسيحية، والتي تتميز بالتسامح الشديد، ولم تتورط في العنف حتى الآن، رغم أن ضحايا القتل والقتل المضاد يعدون في القرية بالمئات.

- هذا النمط الثأري سيتكرر ويظهر كما لو كان حدثًا لا يمت للواقع الحقيقي للثأر، وهذا يعني أن البكاء على الثأر عموما شيء، والبكاء على الثأر في الأيام القادمة سيكون أكبر وأخطر

بيت الخط

اشتهرت قرية الشعانية، خاصة منطقتي (حمرة دوم وأبو حزام) بخطورتها، كمركز إجرامي واحتوائها على المجرمين، وهناك شخصيات بلغت حدًّا أسطوريًا في علاقتها بالجريمة وثار لقب (الخط) يتنقل بين عدد من أفراد المكان، وكان من أبرزهم نوفل سعد الدين ربيع، والذي ولد في عام 1967، وفي عام 1979 قُتل والده وشقيقه وعمه وأبناء عمه في واقعة ثأرية شهيرة حدثت أمام قسم شرطة نجع حمادي، في كمين أعدته عائلة «هنداوي».

في الثالثة عشر من عمره، حمل نوفل سعد الدين سلاحه من أجل الثأر، وتورط في عدة وقائع، حتى صار من المطلوبين الخطرين، ثم جاء حادث الدير البحري الإرهابي في السابع عشر من شهر نوفمبر 1997، وأسفر عن مصرع 58 سائحاً. كانوا في معبد حتشبسوت، بالإضافة إلى مصرع أربعة من المواطنين، ثلاثة منهم من رجال الشرطة، والرابع كان مرشداً سياحياً، وكان الحادث بمثابة الزلزال الذي دفع إلى حشد كل الجهود، ومنها جهود نوفل ورجاله، من أجل تتبع العناصر المطلوبة والهاربة في الجبال وزراعات القصب، وهكذا صار نوفل ورجاله يعيشون كقوات حكومية خاصة، تُروى عنهم حكايات غريبة، غير أن سنوات الوفاق بين الشرطة ونوفل وصلت إلى طريقها المسدودة في 4 مايو 2007، حيث شنت قوات الأمن حملة أمنية استهدفته، و قتلته قرب بيته.

لم يمض وقت طويل بعد سقوط نوفل حتى ظهرت أسطورة «نشأت عيضة» والذي تورط في الكثير من القضايا وصار صاحب أكبر رصيد من الأحكام بين الهاربين بين الجبل وزراعات القصب، والشقق الفاخرة في المدن الجديدة، وقد وصلت الأحكام القضائية الصادرة بالسجن ضده إلى مئات السنوات، بخلاف أحكام بالإعدام، وقد ظل هاربًا لسنوات طويلة، حتى تورط في قتل أحد الأشخاص بالإسكندرية وتم ضبطه، وتم إعدامه شنقا هذا العام.

وفي نفس الوقت ظهرت أسطورة أخرى تحمل نفس السمات، وتتسم بالشراسة خاصة في مواجهة الشرطة، وهو «نور أبو حجازي» الذي حمل لقب (الخط) و اشتهر على مدار سنوات طويلة بعمليات الخطف مقابل فدية، بالإضافة الى تجارة المخدرات والسلاح وغيرها، وقد استهدف في قرية حمرة دوم بتاريخ 10 أبريل 2018، إلا أنه أستطاع الهرب هو رجاله بعد إطلاق النار على قوات الشرطة، والذي أسفر عن استشهاد النقيب محمدي رجب الحسيني، وفي 6/5/2018، أعلنت وزارة الداخلية مقتل «نور أبو حجازي» في تبادل لإطلاق النار مع الشرطة بقرية الجزيرية على بعد ثلاثين كيلو مترًا من منزله تقريبًا.

كل هذا يدل على أننا أمام منطقة استثنائية، لا يصح تعميم صورتها على صور جميع قرى الصعيد، وتلك المناطق الاستثنائية تحتاج إلى دراسات خاصة، كما أن طابعها الاستثنائي يرتبط بعائلات معينة، لا بكل العائلات المقيمة في نفس القرية، حيث غالبية العائلات مسالمة، وتعتبر الجريمة - خاصة السرقة - عارًا كبيرًا، وقد تصل في الشعور بالعار إلى حدود متطرفة للغاية، لدرجة أن أحد الأشخاص قتل ابنه لأنه تورط في السرقة.

عار الثأر وثأر العار

العار جوهر النظام التقليدي بأكمله، إنه منظومة الـردع الـتي تلـعب الـدور الأسـاسـي فـي ضبط المـجتـمـع، وهـو لا ينشأ نتيجة لـوم شخصي بل يصنعه المجتمع ككل لصالح المجتمع ككل، وعدم رد العدوان على سبيل المثال يعتبر عارًا ويُجرد الرجال من هويتهم الطبيعية ويُدخلهم في تصنيف النساء لأن المجتمع ككل يريد ردع المعتدي وتقليم أظافر العنف.

وتعتبر المرأة رأس الحربة في منظومة العار، ولا شيء يجلب العار أكثر من التعدي عليها، ومن أكبر الفضائح تشاجر الـرجـال مـع الـنسـاء، وفـي المثل الشعبي «لو غلبك راجل سلط عليه امـرأة»، لأنه لا يستطيع مجاراتها والـرد عليها وإلا تعرض لاهتزاز مكانته في المجتمع.

وتحرِّمُ أعـرافُ الثأر النيْلَ من الخصم وهو يمشي مع امـرأة، أو ضيف، وكـان السير مع النساء إحدى الحيل التي يلجأ إليها الشخص المضطر للمرور أمـام الـخـصـم، أمـا رفـع الـسـلاح فـي وجـوه النساء وقتلهن ثأرًا فهو العار بعينه.

وفـي مذبحة أبـي حـزام تم قتل النساء دون تـردد، ودون أدنـي اعـتـبـار لسلطان الـعـار، وهـذا فـي حد ذاتـه سـلـوك جـبـار، لأن الـفـرد يـرضـع الـخـوف من العار مع لبن الأم، ويكبر على اعتبار القبول بالعار من المستحيلات، لكن تحدي العار هنا يمضي في الاتجاه الخاطئ، لا يحارب التقاليد بل يبدع تقليدًا أكثر سوء.

صدمة الأعراف الثأرية

تـجـاوز مفهوم الـعـار يعني تـجـاوز جوهر المنظومة الثأرية التقليدية، الأمـر الـذي يترتب عليه سقوط أعـراف ومـبـادئ أخـرى، وفـي مقدمتها مبدأ العدل نفسه، فـالـثـأر يـأخـذ شرعيته وقدسيته مـن مبدأ العدل، ولهذا فالمستقر وفق أعراف الثأر هو مبدأ (واحـد قصاد واحـد)، ولا يتحقق الثأر بالقتل فقط بل بالمصالحة الثأرية أيضا والتي تقوم على مبدأ القتل الرمزي (واحد قصاد كفن). وتأتي مذبحة أبي حـزام لتسحق مبدأ العدل وتتسفه من جـذوره، لقد تم استبدال مبدأ (واحد قصاد واحد) بمبدأ (واحد قصاد ميكروباص بجميع ركابه).. ومن الطبيعي أن تتساقط مـبـادئ تقليدية أخـرى ومنها مـا لا نشعر بقيمته الكبيرة مثل الزمن الثأري.

للزمن في الخصومات الثأرية منطقه الخاص، حيث يتم قطعه من سياقه المعتاد والنظر إليه في سياق القتل، الـزمـن هنا لا يتحرك بانتظام وفـق دورتـه المعتادة، الزمن هنا جامد أو متجمد، أو متوقف حتى يتم الثأر، وهناك مثل شعبي يقول «أخـذْ تاره بعد عشرين سنة، قالوا له استعْجلت» وهناك صيغ أخـرى كثيرة تؤكد على اتساع البراح الزمني أمام الثأر، لأنه في اعتقاد الجماعة نظام، ويجب أن يتم في أفضل ظروف ممكنة، وهناك حكايات كثيرة عن صبر أهل القتيل على الثأر لأسباب مختلفة.

وتظهر النظرة الخاصة إلى الزمن وعملية التحكم فيه وتجميده، في أول رد فعل على القتل، وهو قرار العائلة بمنع تلقي العزاء، والقرار يصدر وقت الدفن، ويكون بمثابة إعلان حكم الإعدام ضد القاتل، ومنع تلقي العزاء يعني تجميد طقوس الموت إلى حين.

والعزاء لا يرتبط فقط بمجرد تعزية أهل المتوفى، بل يعد مقياسًا لتقدير قيمة الجماعة ومكانتها، ومنع أو تعليق العزاء هنا، يعني رمزيًا تعليقَ طقوس الـجـنـازة، أو عـدم اكـتـمـال مـوت الـقـتـيـل بالمعنى الاجتماعي، الـزمـن يتوقف عند هـذه النقطة، ولا يتحرك فيكتمل موت القتيل إلا يوم الثأر. ومع عودة حركة الزمن يتم قبول العزاء ولو بعد سنوات وكما لو كانت الوفاة حدثت منذ ساعات.

تجميد الزمن يحمل حكمة شعبية كبيرة، لأنه يمنح الفرصة لتقدير الموقف بشكل عقلاني، وتحديد خطورتها على المجتمع، وتقييم الـنـزوع العدواني عـنـد الـقـاتـل، وبـالـتـالـي فـتـح الـبـاب أمـام جهود المصالحات الثأرية لعلها تـردم حفرة الـدم بشكل سلمي.

وإذا نظرنا إلى مذبحة أبي حزام سوف نجد الثأر يتحقق فـي نفس يـوم واقـعـة القتل، بـل وقـبـل دفن القتيل، وهـذا فـي إطـار الـثـأر التقليدي عـار، لأن الواجب هو دفن المتوفي أولا، كما أن الصبر على الثأر ثأر في حد ذاته، وهو يعبر عن ثقة أهل القتيل في عجز القاتل عـن الـهـرب مـن قبضتهم، وتجاوز عنصر الزمن هنا، يعبر عن حالة من الخروج على منظومة الثأر التقليدية والـدخول في حالة ثأرية جديدة أو مختلفة.

محنة النموذج الثأري الجديد

لقد كان لدينا نظام ثأري متوارث في ظل بنية ريفية ثابته لم تتغير على مـدار قـرون طويلة، حيث نجد نفس المشاهد الريفية التي ظهرت في بداية الثورة الزراعية في العصر الحجري الحديث، تستمر حتى العصر الحديث، وتتناغم معها منظومة أخلاقية تتمتع بالكثير من القيم الإيجابية، حتى لو اختلفنا معها.

فـي العقود الأخـيـرة حـدثـت متغيرات كبيرة جـدا، لـقـد اخـتـفـت الـبـيـوت الـطـيـنـيـة، وهـيـمـن الإسمنت المسلح، ولـم تعد الـفـلاحـة هـي المهنة الـسـائـدة، بـل دخـلـت وظـائـف أخـرى، الـنـظـام الـزراعـي تأثر

ببناء السد العالي، نظرًا للتحول في أسلوب الري، الأدوات التقليدية مثل النورج، والمذراة، والمحراث، والساقية، والشادوف، والكانون، والفرن البلدي، كلها اختفت، وظهر الجرار الزراعي، وموتور الماء، وماكينة الحصاد، وأدوات المطبخ الحديث وغيرها.

كل هذه المتغيرات لم تكن منفصلة عن الثقافة التقليدية بل تفاعلت معها، وأثرت فيها، وكان التأثير إيجابيًا وواضحًا على مستوى الأدوات، فالسيارة شيء والدواب شيء آخر، وكذلك موتور المياه قياسا بالساقية، وهكذا، أما على مستوى الثقافة فلم يكن التأثير إيجابيًا بنفس القدر، ولا نبالغ عندما نقول كان التأثير سلبيًا وخطرًا، ويرجع اللوم على الدولة وطبقة المثقفين، لأنهم تركوا مهمة الحوار مع المستجدات لسكان الريف أنفسهم، وهكذا تم التأثير الثقافي بشكل عشوائي، وعجزت الجماعة الشعبية عن هضم تلك المتغيرات الحداثية.

في ظل الثورة الصناعية وثورة المعلومات، كان الطبيعي هو اختفاء ظاهرة الثأر العرفي، باعتبارها ظاهرة بدائية، فرضتها ظروف العصور الوسطى وما قبلها، لكن الثأر خالف المتوقع، واستمر بعناد كبير، وليته توقف عند هذا الحد.

لقد كان الثأر التقليدي مشكلة عويصة، وبدلا من حلها، ها نحن نسقط في نظام ثأري حداثي أسوأ، دون أن نفكر في رصده، أو دراسته بالشكل المناسب.

لقد كشفت مذبحة أبي حزام وشقيقاتها، عن وجود حالة تفاعل مستمر مع منظومة الثأر التقليدية، وهذا التفاعل لا يعني تطبيق المنظومة بشكل حرفي بل تطبيقها بعد أن تتبلور في رأس الفاعل الاجتماعي، وهنا يختلف القانوني عن العرفي، فالقانوني ثابت، مقيد في قواعد مكتوبة بلغة صارمة، ومن ثم يصبح التفاعل معه ضعيفًا قياسًا بالعرفي، غير المكتوب، كما هو الحال مع منظومة الثأر، والتي تتم بلورتها وإعادة بلورتها على يد أعضاء هذه الثقافة باستمرار.

إن القائم بالثأر يعيد تشكيله من جديد، وإعادة التشكيل هنا تتم بشكل عشوائي، تتصدر فيه الرغبة في الانتقام، ويتوارى فيه التفكير العقلاني الرشيد أمام التفكير الخرافي. ويتحول تنظيم العنف إلى توسيع نطاقه، وتعقيد حالته بتوريط أطراف أخرى.

يكتسب التشكيل الجديد شذوذه واستقامته من خلال مقارنته بالنموذج الذي استقرت عليه الجماعة، ورغم رفض الجماعة ككل، للنموذج الثأري الجديد، إلا أنه يشكل نمطًا متكررًا يقوم فيه الفاعل الاجتماعي بإعادة تشكيل الظاهرة بحيث تتوافق مع هواه، أو حالته الخاصة، وعملية إنتاج هذا النمط الثأري لن تتوقف عند حدود المشاركين هنا، بل سوف تتكرر وتظهر كما لو كانت حدثًا غريبًا واستثنائيًا ولا يمت للواقع الحقيقي للثأر، وهذا يعني من ضمن ما يعني، أن البكاء على الثأر بشكل عام شيء، والبكاء على الثأر في الأيام القادمة سيكون أكبر وأخطر وأشرس.

- صنع الآبـاء اليسوعيون من القرية نموذجًا فـريـدًا في التـنـمـيـة الـروحـيـة والإنـسـانـيـة والاقتصادية، قلما نجده في قرى أخرى في مصر

مصنع "جراجوس"..

الإغلاق بقرار ثيوقراطي

الأب وليم سيدهم اليسوعي

أغلقت مؤخرًا، وبكل أسف، جمعية ومصنع جراجوس للخزف، ولهذا المصنع وهذه المدرسة قصة طويلة لا بد أن تروى، وإغلاقها أيضًا بالطريقة التي جرى بها، من إخلاء بالقوة وطرد للفنانين قصة أخرى، تتصل بحقوق الفنانين وحقوق الملكية في مصر، واستخدام عصا الطاعة الكنسية بدلاً من لغة الحوار التي تحتاج إلى صبر كبير، واللجوء لكل الوسائل والاستعانة بكل الأطراف، للوصول إلى تسوية تحافظ على تاريخ فني طويل، ويبدو أننا في مصر أمامنا الكثير لكي نفهم الديموقراطية وحقوق الإنسان، وبدلاً من أن تبذل الكنيسة جهودها في تربية الناس على الديموقراطية، تعاقبهم لأسباب ثيوقراطية سلطوية، فتعيد إنتاج آليات التخلف وديالكتيك العبودية!

منذ عام 1946 حتى عام 1967 صنع الآباء اليسوعيون من قرية جراجوس التي كانت، مثلها مثل آلاف القرى، مرتعًا للفقر وللجهل وللمرض، نموذجًا فريدًا في التنمية الروحية والإنسانية والاقتصادية، قلما نجده في قرى أخرى في مصر. فاستعان مؤسس هذا المشروع التنموي العظيم، الأب ستيفان دي مونجلوفييه، بأساطير الفكر والثقافة والمعمار في ذلك الحين؛ المهندس حسن فتحي للعمارة، وثروت عكاشة رائد الثقافة في مصر، وويصا واصف، وآخرين غيرهم من المتخصصين في فن الخزف من فرنسا وسويسرا.

أراد هـؤلاء الـرواد العظام، وصل الماضي بالحاضر، الحضارة الفرعونية والقبطية والإسلامية، مستندين إلى انتشار المنتجات المحلية من الفخار وأكثرها شهرة القلل القنائي التي غنى لها مطرب الشعب سيد درويش، واستلهم الفنانون الفرنسيون الأدوات الفنية الفرعونية، وأضافوا إليها أشكالاً وألوانًا ومناهج حديثة، وسلموا كل ذلك لمجموعة من الأطفال كبروا مع المشروع، ليبدعوا بأناملهم ما يتعارف عليه بالفن التلقائي، النابع من البيئة، بفضل خامة الطين الأسواني.

نشأت التجربة في حضن الروحانية القبطية المصرية التي تفاعل معها اليسوعيون الفرنسيون في ذلك الحين، إذ تعلموا اللغة العربية، والقبطية بالإضافة إلى ثقافتهم الراقية المستنيرة. فكان الجدل بين الروحانية وبين العمل، بين استكمال الطقوس القبطية، وتحديث وتنوير المسيحيين في هذه القرية مع عمل برامج ثقافية، سينمائية، مسرحية، تغطي كل أبناء القرية من مسلمين ومسيحيين. فبنوا مدرسة على طراز حسن فتحي، ومستوصفًا، ومصنعًا للفخار، وقبّطوا الكنيسة الصغيرة لتصبح معبرة عن شخصية هؤلاء المسيحيين، وحولوها من كنيسة لاتينية إلى كنيسة قبطية كاثوليكية. وإذا حسبنا الزمن الذي استمرت فيه هذه التجربة منذ 1967 تاريخ انسحاب اليسوعيين من جراجوس حتى اليوم 2021، سنجد أنه بعد 54 سنة من ترك اليسوعيين لجراجوس، بالإضافة للإحدى وعشرين سنة التي عاشوها، فإننا اليوم على بعد 74 عامًا من بداية هذه التجربة الروحانية الفريدة. ولم يكن مصنع الفخار مقدرًا له أن يستمر 54 سنة بعد رحيل اليسوعيين، جرت مياه كثيرة في النهر، وتحمل فيها الفنانون كل صنوف العداوة والاضطهاد والغيرة والمحاكم والسجون والضرائب والديون، وقد كنت شخصيًا قلقًا على كيفية استمرار المصنع في تأدية دوره، بعد أن اكتسب سمعة دولية محلية وأصبح مزارًا ومكانًا جامعًا لكل الفنانين.

إلى أن قيض الله حدثًا مجحفًا لأحد مؤسسي المصنع من الجيل الثاني، الذي اضطرته إحدى الشكاوى الكيدية إلى الهروب للقاهرة، وهناك، وبما إنه عضو في نقابة الفنون التشكيلية، قوبل بترحاب من الفنانين، وحاول عرض الصعوبات التي يعاني منها المصنع في التسويق والإنتاج ومشكلته مع الضرائب، فلفت أنظار الغرفة التجارية التي تبنت مشروعًا لمدة سنة (كان ذلك في عام 2017) لتدريب 25 شابًا وشابة من جراجوس على صناعة الفخار، وحمدنا الله أن هؤلاء البسطاء استطاعوا أن يبدوا مرونة ففتحوا الباب على مصراعيه، للتعاون مع كبار الفنانين في الخزف من القاهرة إلا أن الكنيسة ممثلة في مطرانها، رفضت رفضًا تامًا مد يد العون لإنجاح التجربة، وأعلنت أنها لن تشارك في تجربة يصبح المصنع فيها لقمة سائغة للأغراب، واعتبرت الفنانين خارجين عن طاعة الكنيسة ولا مجال إلا مقاضاتهم، ورفعت عليهم قضية تتهمهم بتغيير معالم أحد الأفران التي كانت تعمل بالسولار ورأى الفنانون ضرورة استبداله بالغاز، وقضت المحكمة بإغلاق المصنع وطرد الفنانين، وبدلاً من اللجوء للحوار لحل المشكلات، فضلت المطرانية استخدام لغة القانون وقوات الأمن لإغلاق المنشأة، مع أن الفنانين كتبوا التماسات لمجلس الوزراء وكل الجهات الرسمية.

والحقيقة أن الصراع بين الفنانين والكنيسة، تحركه الرغبة في الاستحواذ على 74 سنة تاريخ وخبرة، شهدت محاكم وجوعًا وسجنًا وتهديدًا بالموت حسدًا وغيرة، بحجة حسن إدارتها، والضحية تجربة تنموية وروحية رائدة في الصعيد، ولن تتكرر.

- أميل أحيانًا إلى القول بأننا نحن العرب، نخطب ولا نتخاطب، وإن كان هذا الأمر شرًا في السياسة كلفنا عواقبه رهقًا، فإنه في الثقافة لشر مستطيرُ

سعدي مثل أسلافه الشعراء العرب قبل الإسلام كانوا يتحدثون بالشعر، يبكون ويضحكون ويولدون ويموتون بالشعر، حين كانت الكلمة العليا للخيال وكان المجاز يحكم القبيلة

الشيوعي الأخير..

كيف مات الأخضر بن يوسف في بلدٍ غريب!

جرجس شكري

عزيزي سعدي...
لا تبنِ قبرًا أبعد من بستان البيت
لئلا يأتي الأعداء ليلاً ويسرقون القلب
فتموت مرتين.
ولا تدفن نفسك
تحت سماء لا تحفظ وجهك
لأنه مكتوب
أن النجوم سوف تحملك
إلى حيث يأكل الشعراء خبزهم اليومي.

قم وانهض،
أعرف..
أنك تقدر أن تمنح هذا الموت حياة.
فبعيدًا
النخلة ما زالت تبكي
تسأل عنك
تتمايل حزنًا
وتشير إلى أبدٍ لا يعرفه
سوى الشعراء.

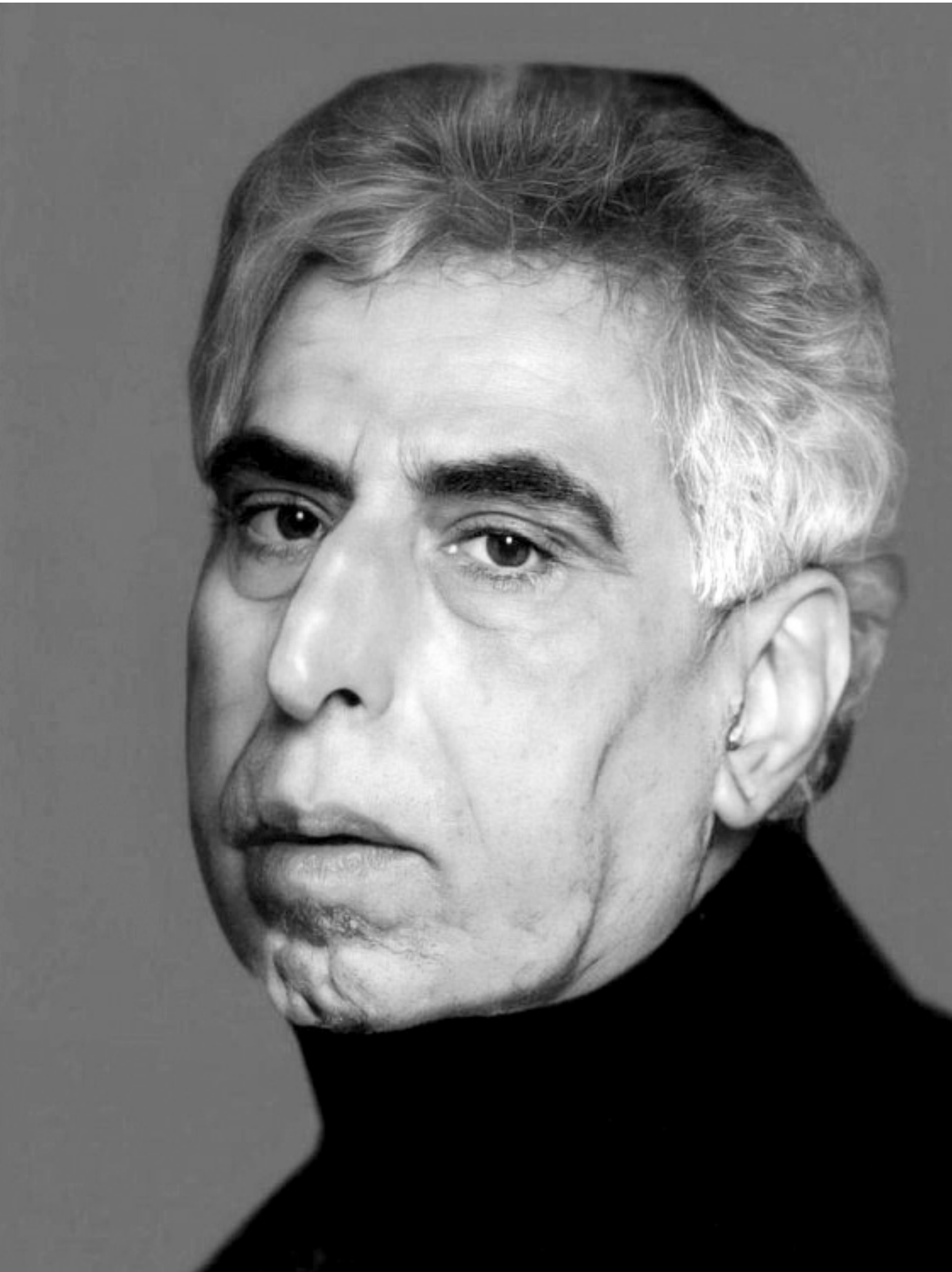

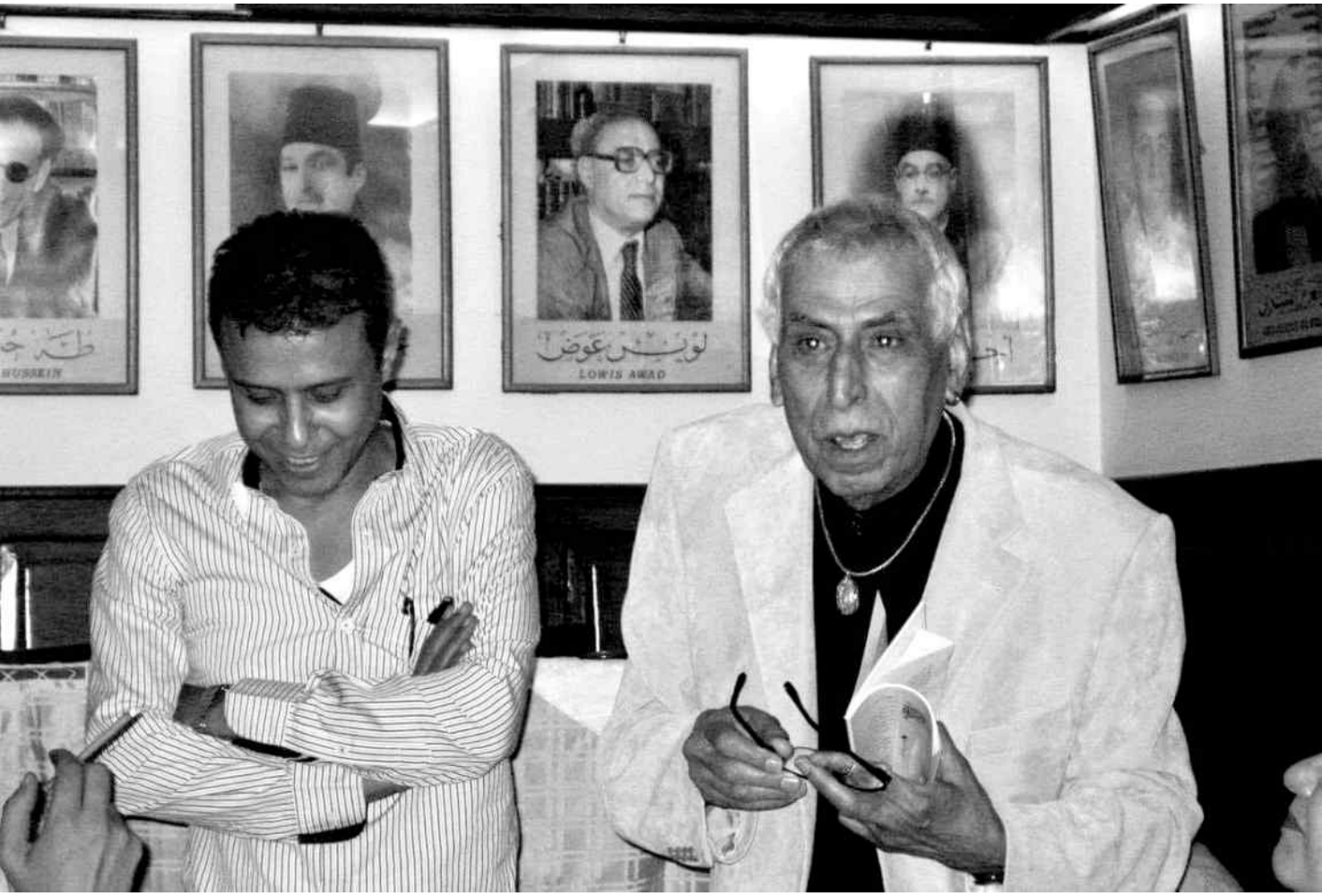

سعدي يوسف وجرجس شكري

مات الأخضر بن يوسف في بلد غريب تحت سماء غير صافية يسكنها الضَباب، تحت سماء لا تعرف وجهه ولا تحفظ ملامحه، مات بعيدًا عن البصرة، لم تكن ولو نخلة وحيدة إلى جواره تتمايل حزنًا على هذا الفتى، لم تنح عليه الجارات، ولم يهرول الرجال من الشوارع والأزقة ليلتفوا حول جسده بينما يعلو عويل النسوة وصراخهن، مات سعدي يوسف في غرفة بعيدة في إحدى مستشفيات العاصمة البريطانية التي أوصى أن يدفن في مقابرها ولا يعود إلى العراق، مات في هدوء، قرر أن ينأى بنفسه بعيدًا عن صخب الأحياء في وداع الميت، وظني أنه لم يكن سعيدًا، هذا الشاعر الذي عاش كطائر يرفرف بجناحيه حرًا طليقًا يقتات وجوه البشر ومحبتهم مات بعيدًا عن العراق وغريبًا في بلاد بعيدة!

-1-

سعدي يوسف الذي تعرف عشرات المدن في العالم وقع أقدامه و موسيقى كلماته، هذه المدن التي عاشها وذهبت إليها أقدامه لم تكن سوى محطات عابرة، فروحه ظلت ترفرف هناك في شوارع بغداد والبصرة منذ رحيله وحتى فارق الحياة، ظلت العراق بالمدن والشوارع بالسكان والمقاهي والحانات، بالماضي والحاضر والمستقبل، بالظلم والقهر، بالزنازين التي عوقب فيه، بالبساتين والفقهاء وعلماء الكلام، بقصور العباسيين، بالخليفة المهدي وضحيته بشار بن برد، كانت العراق تعيش في شعره وتقتات كلماته ليل نهار كأنه يربي وطنًا في روحه، ويحمله أينما ذهب، كان العراق يعيش بداخله ويحمله أينما ذهب، نعم سعدي لم يغادر، فروحه ظلت هناك وكما حمل سركون بولس قرية الحبانية، حمل سعدي البصرة بكاملها فلم تفارقه لحظة

- نام الشيوعي الأخير بسلام هادئ البال في مقبرة كارل ماركس الشيوعي الأول، ومعه تلال من الكلمات والصور التي صاغها في شعره، عشرات المدن التي تعرفه ومئات الشخصيات التي عاشت في قصائده.

في باريس، نيقوسيا، عمان، القاهرة، دمشق، لندن، أثينا حمل معه النخيل وشط العرب، حمل الحكايات وصانع الفخار «في الضفة الأخرى عمى/ في شاطئنا: كان أبي/ في شط العرب: الزورق مختبئ بين البردي وحيدًا/ لم يبق من النخل سوى أعجاز خاوية ، بل وفي قصيدة يسميها افتراض ولا يخلو العنوان من دلالة يتمنى «لو تراءى النخيل/ على خضرة الماء وامتد سعف النخيل/ إلينا.../ فهل من يد تتناول سعف النخيل؟ سعدي الذي رأى كل شيء شعرًا، فكان الشعرة وطنًا، كان حياة، الطاولة، القميص، الغرفة، حبل الغسيل، كل شيء يمكن أن يكون شعرًا ، سعدي مثل أسلافه الشعراء العرب قبل الإسلام كانوا يتحدثون بالشعر، يبكون ويضحكون ويولدون ويموتون بالشعر، حين كانت الكلمة العليا للخيال وكان المجاز يحكم القبيلة، وليس العقل ولا المنطق، بل البلاغة، فليس هناك دراما أو حكاية، هناك صورة شعرية فإذا مات أحدهم فالعزاء شعرًا بالرثاء، وإذا غضب أحدهم فالرد شعرًا بالهجاء والقلب يخفق شعرًا بالغزل والشعور المودة والامتنان شعرًا بالمديح وهكذا البنية العميقة للأعراف والتقاليد لتفاصيل الحياة اليومية جوهرها الشعر وسعدي أحد هؤلاء ووريثهم الشرعي، فهو حفيد امرئ القيس وعروة بن الورد، والمتنبي وسواهم، فإذا مر بالمقهى وغالبه الحنين للكرسي والطاولة كتب يبكي ويرثي هذه الأشياء، وإذا أعجبه القميص وقف أمام المرآة وشكر نسيجه وخيوطة والأرض التي جاء منها، ومدح القميص، وإذا أغضبه الرئيس هجاه وأنتظر الشرطي يحمله إلى السجن مبتسمًا وساخرًا، وإذا شاهد امرأة تعلّق ملابسها راح يرثيها «آه أيتها السيدة/ كيف تقضين عمرك، هذا الجميل/ تحت حبل الغسيل؟ فالحياة شعر والشعر حياة». وظني أنه رغم ثقافته الموسوعية، لم يكن ينحاز إلى اتجاهات أو مدارس، كان ينحاز إلى لغة تتجّدد وتتبدّل تنمو وتكبر وتشيخ وتسترد طفولتها كما يحدث للبشر في الحياة.

وأذكر أنني قرأت منذ زمن بعيد كتابًا لسعدي عنوانه «أفكار بصوت هادئ» صدر عام 1987 عن الحياة الثقافية في العالم العربي، عن المدن والأماكن والشعراء والكتب، مجموعة مقالات صدّرها بكلمات لا تخلو من دلالة حول الهدف من ممارسة هذا النوع من الكتابة «أميل أحيانًا إلى القول بأننا نحن العرب، نخطب ولا نتخاطب، وإن كان هذا الأمر شرًا في السياسة كلفنا عواقبه رهقًا، فإنه في الثقافة لشر مستطيرُ، ذلك لأن الثقافة قطبين أساسيين يكادان يتساويان ويظلان يتخاطبان، هما القائل والقارئ»، ولم يكرر التجربة نثرًا في قالب المقال بل ظل يخاطب القارئ من مقعد القائل ولكن شعرًا فقد عاد إلى طبيعته، وراح يمارس الكتابة شعرًا كل يوم، لم أحب كثيرًا هذه المقالات التي ناقشت بعمق وجرأة واقع الثقافة العربية، ورغم أهميتها كنت أشعر أن صاحبها مقيد، مكبل، ويرتدي ملابس فضفاضة أو ضيقة، وفي كل الأحوال لا تناسبه، يبحث عن شيء ما هو الشعر! وفيما بعد تناول كل هذه الأفكار شعرًا حين راح يمارس كتابة الشعر كطقس يومي، يكتب كلّ شيء، فمنذ تسعينات القرن الماضي ودواوينه المتتالية تؤرخ لقصائد يومية بل في بعض الأحيان يكون اليوم حافلاً بعدد من القصائد، فكان أقرب إلى المؤرخ القديم الذي يسجل يومياته من خلال الأحداث

- ظل يخاطب القارئ من مقعد القائل ولكن شعرًا، فقد عاد إلى طبيعته، وراح يمارس الكتابة شعرًا كل يوم، لم أحب كثيرًا هذه المقالات التي ناقشت بعمق وجرأة واقع الثقافة العربية، ورغم أهميتها كنت أشعر أن صاحبها مقيد

اليومية، من خلال وقائع حقيقية شاهدها وفي أحيان كثيرة شارك فيها، ولكن سعدي يسجلها شعرًا، حتى حين كتب المسرح كان طغيان لغة الشعر على الدراما واضحًا. وحين أصبحت باريس غرفته، غرفة سعدي هكذا كان يجلس في آخر الليل باريس غرفته، وله أن يرتبها، يرتب أشياءها، يحمل النهر في كفه ويرثي بيوت الضواحي/ مثلاً... أو يغرق بالخمر دور السلاح». وفي 29 ديسمبر عام 1992 كتب وهو العاصمة الأردنية عمان عن البلاد «صعبة هذه المدينةُ... لا باب لها كي تدقُهُ حين تأتيها/ ولا أبراج فيها ولا سور/ لكنها القلعة ُ/ إن الهواء الذي يأتي إليها يرتد عنه» وكل المدن كان سعدي يراها بلا باب كي يدقه!

-2-

منذ سنوات في القاهرة عام 2013 وفي ليل خارجي عبرت معه الشارع من المقهى إلى الحانة كنت مندهشًا وكان صامتًا وشاردًا، أبحث عن الوجوه العديدة التي أعرفها، أبحث عن الأخضر ابن يوسف، الشيوعي الأخير في بدلته الزرقاء، عن المناضل الثائر، العاشق وصاحب الإيروتيكا ووجوه عديدة هاجمتني ونحن نقطع الطريق.. وبدأت بالنظر إلى الشاعر «الذي مرت عليه سبعة أيام، وهو لا يكتب. كان يقرأ حتى توجعه عيناه، فرفض أن يقلب سترته الأولي ورفض أن يسكن كلمات المنفى حين يضيق البيت»، وبينما هو هائم يتأمل وجوه المارة في شارع سليمان باشا، سألته عن السجن الرسمي وكيف سجله الضباط المليكيون شيوعيًا.. كيف حوكمت يا سعدي في تلك الأيام رغم قميصك الأسود وربطة العنق الصفراء.. كان لا يرد، ظل صامتًا يسرح ببصره بعيدًا وكأنه يشاهد شيئًا في الآفق، وثمة صوت واهنًا يهمس من بعيد «بدلة العامل الزرقاء/ على مقاسي كانت البدلة/ حتى أنني لم أختبرُها لحظةً في غرفةِ التجريب» وكلما تحدثت تتبعنا شخصيات تعرفهَ وتحاورَه، الطريق من الحانة إلى المقهى قصير لكنه كان مزدحمًا بالسنوات والذكريات والليالي الطويلة.. أوقفنا رجل في ملابس رثة وأشار صارخًا «نبيّ يقاسمني شقتي/ يسكن الغرفة المستطيلة/ وكل صباح يشاركني قهوتي والحليب وسهر الليالي الطويلة «ضحكنا وانتابنا الخوف، الطريق إلى المقهى طويل ولا ينتهي، فجأة، تغير وجه سعدي سألني في الشارع حانة وحيدة أين ذهبت الحانات؟ وبدوري أسأله إلى أين نصل؟ وأنا لا أرى هنا إلا جلجامش بشعر طويل، وسيدوري فتاة الحانة تودعه وتنتظر عودته وقف سعدي وأشار «قد مات عبد الله والأموات في بلد السلامة يمضون كالأحياء في صمت الدموع». كل هذه المدن يا سعدي ماذا فعلت بك، أين هي هل تحملها على كاهلك أم تحملك؟ لم يرد وظل صامتًا فعدت إلى الوراء في مدينة مالمو السويدية، حين وصلت متأخرًا هل تتذكر؟ وفي الصباح مبكرًا قصدت مائدة الإفطار، كنت تجلس يا سعدي مرتديا معطفًا أسود يغطي رقبتك التي يحيطها سوار ذهبي ينتهي بالعراق، قطعة من الذهب على هيئة خريطة الوطن، كنت شاردًا تتكئ على الطاولة، تهتز ويهتز العراق، وأنا أتأمل المشهد حتى انتبهت. وهنا عرفت أن كل المدن التي ذهبت إليها أقدامك كانت مجرد محطات عابرة، وقلت لي بسخرية إنك لا تتذكر البلاد التي هاجرت إليها وعشت فيها وتحتاج الآن

- منذ سنوات في القاهرة عام 2013 وفي ليل خارجي عبرت معه الشارع من المقهى إلى الحانة كنت مندهشًا وكان صامتًا وشاردًا، أبحث عن الوجوه العديدة التي أعرفها، أبحث عن الأخضر ابن يوسف، الشيوعي الأخير في بدلته الزرقاء

إلى خريطة حتى تتذكرها.. وهو يهمس في أذني: كلما حاولت تذكر البلاد التي ذهبت إليها أنظر إلى خريطة العالم!

سعدي الذي جمع قصائده عن حانات العالم من جلجامش إلى مراكش في كتاب، الحانات التي كان يرتادها، الحانات التي يواصل فيها البشر رحلتهم الطويلة العجيبة «رحلة البحث عن مكان يلتقون فيه أحرارًا، ويفترقون أحرارًا، مجتمعين، بألفة مستمدة من علائق المكان ذاته حيث تنبعث ذواتهم وتتألق باهرة، في سياق اجتماعي مفتوح»، وقد خرج من العراق منتصف السبعينيات قاصدًا عشرات المدن.. رحت أتأمل هذا العجوز الذي يحمل في رقبته سلسلة علّق فيها العراق وطنه، ويبدو أنه لا حيلة له سوى أن يحمل وطنه في رقبته ويذهب به أينما شاء حتى إلى المقبرة، فبعد أن فقده تحول إلى مساحة من الذهب تمثل العراق على الخريطة، وقرأ سعدي في مالمو مرتين، في المرة الأولى قرأ من قصائده عن أمريكا، وراح الشاعر العجوز يغني بالإنجليزية مثل طفل ويسب أمريكا وكأنه ينتقم من الأعداء الذين خربوا بلاده، وفي المرة الثانية تأكدت دهشتي فلم أكن سمعت سعدي يقرأ شعرًا منذ زمن طويل.. راح يؤدي بهذه التلقائية الطفولية التي تليق بشاعر كبير مثله وقرأ قصيدة عنوانها الماندولين.. يقول فيها «لا يمكن الكلام عن الماندولين إلا بلغة الماندولين، أعني أن اللغة المعروفة، ليست أداة للكلام عن الماندولين، والسبب بسيط جدًا» وراح يحكي قصته مع الماندولين الكائن الحي وبين الحين والحين يغني الأغنية المصرية «آه يا زين، آه يا زين/ آه يا زين، آه يا زين العابدين/ يا ورد! يا ورد مفتح في البساتين» بصوته الأجش الذي أرهقه التنقل بين المدن الغريبة كان يضبط اللحن بصعوبة ويرفع يديه عاليًا كأنها يحاول أن يمسك بالموسيقى ولا يهرب منه اللحن، وطيلة أيام المهرجان أتأمل هذا العجوز الذي حمل أشعاره وكانت وطنه، الذي أسسه بهذه الكلمات وطنًا هو شعر سعدي يوسف ولسعدي يوسف!

الطريق بين المقهى والحانة لا ينتهي، عهدي به قصيرًا فماذا حدث، يبتسم سعدي ويشير، انظر.. وجوه عديدة تطل على جانبي الطريق وجوه أعرفها فأشير لهم هذا هو سعدي من بينهم أونجاريتي وكفافيس، يانيس ريتسوس، آرثر رامبو، والت ويتمان، جارثيا لوركا وهنري ميلر.. كانوا ينظرون إليه كل واحد في يده كتاب ترجمه سعدي، يحاولون الوصول إليه ويحاول الوصول إليهم، وكلما راح يركض تخونه قدماه فيضحك ويمسك بيدي، أتأمله... سعدي يوسف شاعر قصيدة التفعيلة الأشهر والذي كان له تأثير كبير على شعراء قصيدة النثر، تأثيره أكبر من الآباء الروحيين لهذه القصيدة! لأنه لا يعرف سوي الشعر، سعدي الذي كتب لغة طبيعية، لغة أقرب إلى براءة الأطفال، تتغير وتتبدل في كل مرحلة، لم يكن فقط الشيوعي الأخير بل أيضا الشاعر الأخير الذي عاش بلا وطن، وتنقّل بين مدن العالم عابرًا وأقام في مدن الشعر التي أسسها في قصائده.. فكل شعراء المنافي هاجروا ليستقروا في مدينة أخرى بديلة للوطن أما سعدي فعاش في كل الدنيا كوطن صغير وبالفعل كان يحتاج إلى خريطة حتى يتذكر المدن التي عاش فيها والحانات التي كان يصارع فيها الزمن متمسكا بحريته حتى الرمق الأخير.. كنا

- ظل يكتب الشعر أكثر من سبعة عقود، لم يتوقف فيها عن ممارسة الشعر، وفي السنوات الأخيرة كان يكتب في بعض الأحيان كل يوم قصيدة، ليتحول الشعر عنده إلى سيرة يومية يكتب من خلالها طفولة العالم

نحاول المرور أنا وهو، نحاول العبور إلى الحانة التي نقصدها، فلا نصل وأيضًا لا نعود، وسعدي صامت، وصوت يغني من بعيد: طلعت الشميسة/ على شعر عيشة/ عيشة بنت الباشا/ تلعب بالخرخاشة، وآخر من بعيد يصرخ في ملابس الجنود «مرة في الحدود الهلام أردنا فلسطين بالبندقية، والآن شيء من الأمر لي، وشيء من الرمل لك هل يدور الفلك؟ وصوت يلهث من بعيد بعد أن أرهقه التجوال صارخا قدر استطاعته، من بلدٍ ستدور إلى آخر/ ومن امرأة ستفرّ إلى امرأةٍ/ من صحراء إلى أخرى/ لكن الخيط الممدود مع الطائرة الورقية/ سيظل الخيط المشدود إلى النخلة/ حيث ارتفعت طيارتك الأولى» أصوات ووجوه عديدة كلها وجوه سعدي يوسف وصوته، ولكن الصوت الأخير كان قاسيًا، والطريق لا ينتهي ونحن لا نصل!

-3-

ما زلت حين أتأمل مشروع هذا الشاعر أسأل نفسي كثيرًا: ما الشعر عند سعدي يوسف الذي أصدر ديوانه الأول عام 1953 وظل يكتب الشعر أكثر من سبعة عقود، لم يتوقف فيها عن ممارسة الشعر، وفي السنوات الأخيرة كان يكتب في بعض الأحيان كل يوم قصيدة؟ ليتحول الشعر عنده إلى سيرة يومية يكتب من خلالها طفولة العالم ولذلك سألته ذات مرة: كيف تكتب كل يوم هل هذا طبيعي؟ قال لي بحزم ومحبة ناصحًا إياي: أكتب كل يوم ولا تترك الشعر لحظة واحدة، فسعدي يرى العالم شعرًا، وهو قادر على تحويل كل شيء في هذه الدنيا إلى شعر، كل المواقف إلى لحظة شعرية، وكل الكائنات التي يلتقي بها إلى قصائد، فإذا قرأ فهو يقرأ الشعر وإذا ترجم يترجم الشعر وإذا كتب يكتب الشعر تقريبًا، فقد كتب رواية واحدة» مثلث الدائرة» ومجموعة قصصية «نافذة في المنزل المغربي»، ومسرحية واحدة «عندما في الأعالي»، وثلاثة نصوص مسرحية قصيرة «حانة سيدوري، الطريق إلى سمرقند، حانة الطرق الأربع» جاءت ضمن كتابه «كل حانات العالم»، ويوميات وما يزيد على 45 ديوانًا شعريًا، وفي كل هذه الأنواع كان يبحث عن الشعر، وسعدي لا ينتظر الشعر أن يأتي فهو يذهب إليه أينما كان، فكل شيء يعرفه ويعيشه كتبه شعرًا، فلا شيء في هذا العالم يستحيل على الشعر عنده! وظني أن هذا الشاعر الذي ولد في أبي الخصيب، قرب البصرة عام 1934 وفارق الحياة صباح الأحد 13 يونيو 2021 ليس شخصية واحدة كما تظنون؛ فهناك شخصيات عديدة اسمها سعدي يوسف يقودها روح خفي يحمل هذا الاسم يتنقل بين المدن والحانات والشوارع والمقاهي والأيام، وأذكر أنني التقيت بهم جميعًا منذ أن كتب الأخضر بن يوسف قصيدته الجديدة 1972 وصولاً إلى السونيت 2018، والقصائد المتفرقة التي كتبها في العاميين الماضيين قبل أن يتوقف عن الكتابة ويسكن مقبرة كارل ماركس في لندن! ولا أقصد بالوجوه المتعددة الشاعر والروائي والمترجم والمسرحي، والناقد والسياسي الثائر بل سعدي الشاعر، فقط الشاعر الذي تخرج في دار المعلمين عام 1955 ليطوف الدنيا ويكون له في كل مدينة قصيدة وفي كل حانة من حاناتها كأس ما زالت تتذكره وليال يعرفها ويحفظها كظهر يده، وعشرات الشخصيات التي عاشت في نصوصه وازدحمت بها قصائده.

- التقيت الشاعر الثائر والمتمرد والعابر في مدن الدنيا سعدي يوسف مطلع التسعينات للمرة الأولي وكنت أبحث عن الأخضر بن يوسف ومشاغله، أول ما قرأت وكنت وما زلت مبهورًا بهذه الشخصية، التي توالت عليها شخصيات عديدة بعد ذلك

التقيت الشاعر الثائر والمتمرد والعابر في مدن الدنيا سعدي يوسف مطلع التسعينيات للمرة الأولي وكنت أبحث عن الأخضر بن يوسف ومشاغله، أول ما قرأت وكنت وما زلت مبهورًا بهذه الشخصية، التي توالت عليها شخصيات عديدة بعد ذلك، الشخصية الأقرب إلى سعدي يوسف.

-4-

الطريق من المقهى إلى الحانة لا ينتهي وأنا أسأل أين نصل يا سعدي، وكيف؟ يبتسم ويشير إلى الطريق يتبعنا بشار بن برد وهو يرفع الآذان، والخليفة المهدي في ملابس الرئيس غاضبًا وسعدي يضحك ويهمس في أذني لماذا نصل المهدي قتل بشار، الخليفة قتل الشاعر، وارتفع صوته:

سأكون خزّافًا/ فقال أبي: ستتركنا إذن/ وأقول كيف؟
يقول: من يخلق من الصلصال أشكال الطيور يطرّ
كان بن حفصون يصرخ أجئت لتشتري؟
خذ جرة، خذ ذلك الإبريق، هذا القدر، خذ طيرًا
وحين تشب تأتيني بأول درهم من رزقك المكتوب يا ولدى
انتظر حتى أفي بالدين.

وظل سعدي يحلم بالجرة والإبريق، يحلم أن يفي بالدين، ويسكب روحه في هذه الأواني في دكان ابن حفصون الأندلسي في مراكش، وسعدي في المدن التي وطأتها أقدامه كان يعرف أنه لن يصل ولن يعود، وظني أنه لا أحد كان يرغب في عودته من الحكومات المتعاقبة رغم اختلافها وتناحرها، ولا هو كان يرغب في العودة، فرغم اختلافه وهروبه من نظام البعث وصدام حسين فإنه لم يكن راضيًا عن الحل الأمريكي وكان يصرخ لاعنًا هذا الغزو ليل نهار، وحين تدهورت حالته الصحية في الأيام الأخيرة قبل رحيله وجهه وزير الثقافة العراقي إلى السفارة العراقية في لندن بشأن رعايته وهذا أضعف الإيمان، لكن غضب بعض الرجعيين واحتجوا، وربما سقطت سراويلهم من هول الفضيلة التي يحملونها على أكتافهم ليل نهار، فقد أثار طلب رعاية الشاعر العظيم الكثير من الجدل في العراق، الجدل الذي أثاره سعيد طيلة حياته، فتراجع الوزير عن الطلب! وظني أن دلالة هذا التراجع واحتجاج أصحاب الفضيلة يجسد وبقوة موقف سعدي ومسار حياته مما دفعه مبكرًا أن يحمل أشعاره وحريته ويغادر العراق في سبعينيات القرن الماضي ليطوف مدن الدنيا وشوارعها وحانتها مدافعًا عن حريته، منتصرًا للشعر والحياة، لينام الشيوعي الأخير بسلام هادئ البال في مقبرة كارل ماركس الشيوعي الأول، ومعه تلال من الكلمات والصور التي صاغها في شعره، عشرات المدن التي تعرفه ومئات الشخصيات التي عاشت في قصائده، وسوف يعيش هو من خلال الشعر كما عاش أسلافه العرب الحياة بالشعر ومن أجل الشعر.

- مع سيطرة الأصوليين على البرلمان تكون جميع أركان السلطة داخل المؤسسة السياسية الإيرانية، بيد الأصوليين والمتشددين، وقد أزيح أي صوت إصلاحي أو معارض من المشهد السياسي..

إبراهيم رئيسي

الجمهورية الإسلامية الإيرانية تخسر الانتخابات

شيماء علي

انتهت الانتخابات الرئاسية الثالثة عشرة في إيران، يوم الجمعة 18 يونيو 2021، بإعلان رجل الدين الأصولي المتشدد إبراهيم رئيسي، رئيسًا للجمهورية الإسلامية، بعد خسارته للمنصب في عام 2017 بحصوله على 16 مليون صوت، أمام المعتدل حسن روحاني بنحو 23 مليون صوت، بنسبة إقبال تجاوزت الـ70 %. لقد تمكن المسؤول القضائي البارز أخيرًا من الفوز بـ18 مليون صوت، في أسوأ انتخابات رئاسية في تاريخ الجمهورية الإسلامية؛ إذ شهدت نسبة الإقبال الانتخابي 48.8 %، بالإضافة إلى غياب المنافسة بالكامل. وفي غضون 40 يومًا سينتقل إبراهيم رئيسي، البالغ من العمر 60 عامًا، من منصبه كرئيس للقضاء، إلى القصر الرئاسي. ومع سيطرة الأصوليين على البرلمان أيضًا، تكون جميع أركان السلطة داخل المؤسسة السياسية الإيرانية، بيد الأصوليين والمتشددين، وقد أزيح أي صوت إصلاحي أو معارض من المشهد السياسي.

طريق ممهد

جاء رئيسي من بلدة بعيدة في مدينة مشهد، ثاني أكبر المدن الإيرانية، والتي تتمتع بمكانة دينية كبيرة لدى المسلمين الشيعة، لتلقي دروس الفقه وتعاليم الدين الإسلامي في الحوزة الدينية في مدينة قُم، وهناك تتلمذ على أيادي كبار رجال الدين المؤثرين في الثورة الإيرانية عام 1979، وعلى رأسهم آية الله على خامنئي، الزعيم الأعلى الحالي للبلاد. وفي عمر التاسعة عشر، تقلد أول منصب له في القضاء، كباقي زملائه من رجال الدين بعد انتصار الثورة، حتى وصل سريعًا إلى منصب النائب العام لمدينة طهران، في عام 1985، وبعد ثلاث سنوات، ضمه آية الله روح الله الخميني، مؤسس الجمهورية الإسلامية، إلى اللجنة القضائية، أو كما تعرف باسم «لجنة الموت»، التي حققت مع الآلاف من السجناء السياسيين المعارضين للجمهورية الإسلامية حينها، وحُكم عليهم بالإعدام، بشكل سريع بعد أن كانوا على وشك انقضاء عقوبتهم. وبعد أن تولى آية الله خامنئي، قيادة البلاد في عام 1989، بدأ تقرب رئيسي، من القائد الأعلى، وعيِّن نائبًا لرئيس الهيئة القضائية، في عام 2016، بدأ تمهيد رئيسي، ليخرج من وراء الكواليس إلى الحياة السياسية الفعلية، فعينه آية الله خامنئي، على رأس أهم وأكبر شركة اقتصادية في الشرق الأوسط «آستان رضوي»، التي تشرف على ضريح الإمام الرضا، الإمام الثامن عند المسلمين

الشيعة، في مدينة مشهد. ومن هذا المنصب، تمكن رئيسي، من التواصل مع كبار المسؤولين في الدولة، وتعميق علاقته برجال الدين الحكوميين، مما دفع التيار الأصولي، إلى الاعتماد عليه في الانتخابات الرئاسية لعام 2017، لهزيمة حسن روحاني المعتدل والمغضوب عليه من الأصوليين والمتشددين، لكنه لم يستطع كسب هذه الجولة. وفي عام 2019، عينه آية الله على خامنئي، رئيسًا للسلطة القضائية، ومنذ الأيام الأولى لتوليه هذا المنصب، بدأ في تصدير نفسه رجلاً محاربًا للفساد، من خلال تقديم العديد من المسؤولين البارزين إلى المحاكمات بسبب تورطهم في قضايا فساد مالي وإداري.

ومنذ توليه رئاسة القضاء، بدأت وسائل الإعلام الحكومية في الدعاية الهائلة لرئيسي، مما زاد التكهنات بتجهيزه ليكون الرئيس القادم، كخطوة أولى، في طريق قيادة البلاد، وبعد وفاة آية الله على خامنئي البالغ من العمر 82 عامًا، ذهب رئيسي لتسجيل اسمه كمرشح محتمل للانتخابات، في وزارة الداخلية في آخر يوم للتسجيل.

كما سجل عدد من السياسيين الإصلاحيين والمعتدلين، أسماءهم استعدادًا للتنافس مع المرشح «المفضل»، إبراهيم رئيسي، لكن وجه «مجلس صيانة الدستور»، وهو الهيئة المسؤولة عن فحص أوراق المرشحين لأي انتخابات عامة في إيران، ويسيطر عليه المتشددون، ضربة قوية لكل من تخيل أنه يمكنه منافسة رئيسي، فاستبعد جميع المرشحين الإصلاحيين، لكن كانت المفاجأة الكبرى باستبعاده السياسي الإيراني البارز، ورئيس البرلمان لمدة 12 عامًا، والمستشار الحالي لخامنئي؛ السيد علي لاريجاني، المحسوب على المعتدلين. فوجد رئيسي نفسه أمام 6 مرشحين آخرين، كان نصفهم غطاء له، والبقية لا يتمتعون بدعم أي تيار أو حتى شعبية بين الناس، لدرجة أن رئيسي نفسه قال إنه تحدث مع «مجلس صيانة الدستور»، لجعل الانتخابات أكثر تنافسية، بإرجاع عدد من المرشحين المستبعدين للسباق الانتخابي، في إقرار ضمني منه بأنه المرشح الفريد الذي لا ينازعه منافس آخر في هذه الانتخابات.

هل يمثل «رئيسي» الحكومة الثورية الشابة؟

صرح آية الله على خامنئي مرارًا بأنه يطمح بأن يكون الرئيس القادم وحكومته «ثورية، شابة، ومتدينة»، قادرة على حل مشكلات البلاد الاقتصادية، هذه المواصفات تنطبق على إبراهيم رئيسي، في الأفلام الدعائية التي أنتجتها حملته الانتخابية، صوِّر «رئيسي»، على أنه محارب الفساد في القضاء، كما وصف في أحد هذه الأفلام

- وجد رئيسي نفسه أمام 6 مرشحين آخرين، نصفهم غطاء له، والآخرين لا يتمتعون بدعم أي تيار أو شعبية، لدرجة أنه تحدث مع «مجلس صيانة الدستور»، لجعل الانتخابات أكثر تنافسية!

بأنه «خادم الناس»، مع زياراته المستمرة للعمال والمصانع، وتركيزه على تسهيل عقبات الزواج أمام الشباب، وحل الأزمات الاقتصادية؛ فقدم 50 وعدًا اقتصاديًا، من بينها خفض معدلات البطالة والتضخم، وزيادة القدرة الشرائية، وبناء ملايين من الوحدات السكنية بسعر زهيد، ومنع التهرب الضريبي، وضبط أسواق العملات، لكن جميع تلك الخطط لا يوجد لها تفاصيل ملموسة، أو تصور لتحقيقها على أرض الواقع. كما أنه لم يتناول أي من القضايا الثقافية والاجتماعية، أو حقوق الإنسان، أو حقوق المرأة، ووضع الأقليات في البلاد. وكان تركيزه الأهم هو السير على الخارطة التي وضعها خامنئي في تصوره للحكومة القادمة، والمتمثلة في حل المشكلات الاقتصادية، وتعزيز الإنتاج المحلي.

أما فيما يخص تصور رئيسي وخططه للسياسة الخارجية لحكومته، فاختار السير على النهج الأساسي لعلي خامنئي، والمتمثل في لا للمفاوضات المباشرة مع الولايات المتحدة والغرب، العودة إلى الاتفاق النووي لعام 2015، إذا التزمت واشنطن به ورفعت جميع العقوبات التي فرضتها إدارة دونالد ترامب على طهران في مايو 2018، وبالتأكيد أكد على عدم قابلية التفاوض على البرنامج الصاروخي الباليستي الإيراني، وسياسات البلاد الإقليمية.

هل فهم خامنئي، الرسالة؟

منذ اليوم الأول لتسجيل المترشحين أسماءهم لدخول السباق الانتخابي، وما تلا هذه الأمور، وجميع الظروف والتحركات تقول إن المؤسسة السياسية العليا في إيران تبذل قصارى جهدها لتمهيد الطريق لرئيسي، لإحكام سيطرة التيار الأصولي على جميع مؤسسات الدولة، وإزاحة الإصلاحيين والمعارضين من المشهد السياسي إلى الأبد. لكن في نفس الوقت، تملك الخوف المؤسسة السياسية والأصوليين من تدني نسب الإقبال على التصويت، كما حدث قبل عام في الانتخابات البرلمانية، والتي شهدت أقل نسبة تصويت في تاريخ الجمهورية الإسلامية. إذ وصلت نسبة التصويت في الانتخابات الرئاسية لعام 2021، إلى 48.8 %، أي من بين 59 مليون ناخب مؤهل، قرر أقل من 29 مليون الإدلاء بأصواتهم، وصوت منهم نحو 18 مليون لرئيسي؛ أي أقل من ثلث الناخبين. لكن، الجدير بالملاحظة في لعبة النسب هذه، أن عدد الأصوات الباطلة وصل إلى أكثر من 12 %، وهي أكبر نسبة في الانتخابات الرئاسية الإيرانية الـ12 الماضية، مما يعني أن المنافس الوحيد لرئيسي في هذه الانتخابات، كان الأصوات الباطلة، فلم يحصل أي مرشح آخر تنافس مع رئيسي على هذه النسبة، ولا حتى اقترب منها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك دعوات واسعة النطاق لمقاطعة التصويت، سواء من المعارضين داخل إيران، أو نشطاء تغيير النظام خارج البلاد، أينعم لم تجد هذه الحملات صدى واسعًا بين الإيرانيين العاديين، وفشلت في مساعيها في نهاية المطاف، لكنها تبدو بداية للإعلان عن عدم رضا قطاع واسع من الإيرانيين عن الجمهورية الإسلامية، لأسباب مختلفة.

- اختار رئيسي السير على نهج علي خامنئي، والمتمثل في لا للمفاوضات المباشرة مع الولايات المتحدة والغرب، والعودة إلى الاتفاق النووي لعام 2015، إذا التزمت واشنطن به ورفعت جميع العقوبات..

لا فائز في هذه الانتخابات

بعد فوز رئيسي في هذا المناخ السياسي الكئيب، ونسب الإقبال المخجلة، التي تقوض شرعية الجمهورية الإسلامية، يتوقع المرء، بأن القيادة العليا للبلاد، قد حققت ما أرادت منذ اليوم الأول لهذه الانتخابات، وسيطرت بشكل كامل على السلطات الثلاث في البلاد. لكن في حقيقة الأمر، أنه حتى بالنسبة للأصوليين، فإن هذه الأجواء، قد تلقي بظلال سلبية للغاية على الحياة السياسية في إيران، ومن المتوقع أن يشهد المعسكر الأصولي الكثير من الانقسامات بسبب الصراع على تقاسم السلطة، مما يؤدي إلى الكثير من الخلافات، كما حدث مع التيار الإصلاحي، عندما كان في السلطة، وبدأت الانقسامات التي أثرت عليه إلى يومنا هذا. فمع احتمالية ظهور الخلافات داخل التيار الأصولي، وازاحة المعسكر الإصلاحي من المشهد، وفشل حركة المعارضة ومقاطعة الانتخابات في تحقيق هدفها، وحصول إبراهيم رئيسي، على منصب الرئاسة بأدنى نسبة مشاركة في الانتخابات، لا يوجد فائز في هذا الاستفتاء.

الكثير من الأسئلة

بعد انتهاء الانتخابات، ومحاولات رئيسي الدعائية لحكومته القوية كما وصفها، وبعد أن أسفر تمهيد الطريق أمامه إلى خسارة الجمهورية الإسلامية الكثير والكثير من الشرعية، توجد عشرات الأسئلة، ومنها: هل بفوز إبراهيم رئيسي وسيطرة الأصوليين على السلطة، سيتم التأسيس لطريقة جديدة لحكم الجمهورية الإسلامية؟ هل سيكون هناك أي فرصة لانتخابات رئاسية قادمة في إيران؟ هل يمكن اعتبار هذه الانتخابات، نهاية مأساوية لبعض مظاهر الديموقراطية في إيران؟ هل ستدخل إيران في عزلة دولية جديدة كما كان الحال مع الرئيس المتشدد السابق، محمود أحمدي نجاد؟ والأهم من ذلك، هل سيتمكن الشعب الإيراني من مواصلة الحياة في مثل هذه الظروف؟ تكمن الاجابة على هذه التساؤلات في السنوات الأربع المقبلة، وهي فترة الولاية الأولى لإبراهيم رئيسي، بعد أن أصبح ثاني أهم شخصية في الهيكل السياسي الإيراني.

- الحكومة الجديدة تستمر لمدة أربعة أعوام بالتبادل وسيترأسها نفتالي بينيت لمدة عامين حتى 23 سبتمبر 2023 ثم يحل محله يائير لابيد في العامين التاليين..

إسرائيل:

حكومة غير متجانسة بمشاركة عربية ومشكلات منتظرة

محمد كمال

على الرغم من كل محاولاته للاستمرار على رأس الحكومة، بداية من الألاعيب داخل المؤسسات السياسية الإسرائيلية وصولاً إلى إقدامه على مذابح بحق الفلسطينيين، ذهب بينيامين نتنياهو إلى مقاعد المعارضة صاغرًا تطارده الاتهامات بالفساد، بعد أن اختار الكنيست الإسرائيلي حكومة جديدة، ستكون بالتناوب بين يائير لابيد رئيس حزب «هناك مستقبل» ونفتالي بينيت رئيس حزب «البيت اليهودي». وقبل التصديق على الحكومة انتخب رئيس جديد للكنيست، هو ميكي ليفي ذو الأصول الكردية الملقب بـ«مهندس الضرائب»، لأنه في أثناء توليه منصب نائب وزير المالية عام 2014 وسع نطاق الضرائب وحصلت الدولة وقتها ما يقرب من 4 مليارات شيكل، ونجح يائير لابيد في تشكيل الحكومة التي أطلق عليها «حكومة التغيير» التي كان الهدف الأسمى لها هو التخلص من نتنياهو رغم الاختلافات الأيديولوجية بين جميع الحلفاء، لتخلق ائتلافًا سياسيًّا غير متجانس، إذ يضم 8 أحزاب «هناك مستقبل» وهو حزب يساري بـ 17 مقعدًا، حزب «أزرق أبيض» يميني وحصل على 8 مقاعد، قائمة «يمينًا» وهي يمينية ولها 7 مقاعد، حزب «العمل» يساري ومعه 7 مقاعد، «إسرائيل بيتنا» وهو حزب يميني قومي له 7 مقاعد، حزب» أمل جديد» مين وسط وله 6 مقاعد، حزب «ميرتس» اليساري وله 6 مقاعد، وأخيرًا «القائمة العربية الموحدة» وهي تمثل اليمين المتدين ولها 4 مقاعد. أي أن الائتلاف سيكون ممثلاً في الكنيست بـ 62 مقعدًا فقط من أصل 120، وهنا تكمن أزمة الحكومة الأولى، إذ تعتبر حكومة «ضيقة» غير مستقرة، ودائمًا ستكون على المحك إذا حدث وانشق أي حزب أو قائمة، وقتها ستكون أصوات المعارضة أقوى في التصويت وتمرير قرارات الحكومة.

في حال وجود اختلافات، وهو أمر شبه مؤكد، سيكون الائتلاف على المحك، وأقرب مثال كان في الكنيست العشرين عام 2015 عندما انشق وزير المالية وقتها موشيه كخلون بحزبه «كلنا» وترك يتسحاق هرتسوج «المعسكر الصهيوني» في المعارضة وحيدًا وقوي كخلون بتقوية جبهة نتنياهو. وأيضًا في الكنيست الـ 21 في 2019 عندما انشق يائير لابيد وموشيه يعالون عن قائمة «أزرق أبيض» لتحالف جانتس مع نتنياهو.

نتنياهو

في الحكومة الجديدة أسماء لديها القدرة والتجربة السابقة على الانشقاق على رأسهم بيني جانتس الذي هو بالتأكيد غير راض عن التبادل في رئاسة الحكومة بين لابيد وبينيت، بحكم أن حزب جانتس يتفوق بمقعد عن حزب بينيت لكن في الغالب اتُفق على استمرار جانتس باحتفاظه هو وحزبه بحقيبة الدفاع، والحال نفسه ينطبق على أفجيدور ليبرمان الذي سبق أن أعلن الحرب على نتنياهو.

أما جدعون ساعر ومنصور عباس فمن الوارد أن ينتقلا لمعسكر المعارضة بحكم أن الأول لديه توافقات وموائمات مع الأحزاب اليمينية والدينية لأنه عضو سابق في «الليكود». وفي حال ابتعاد نتنياهو سيفقد الحزب جزءًا كبيرًا من قوته ومن هنا قد تأتي مغازلة ساعر بالوجود على رأس قائمة مشتركة تضم «الليكود» و«أمل جديد»، لأن تخلي ساعر عن أيديولوجيته اليمينية كانت لتحقيق الهدف الأسمى وهو التخلص من نتنياهو، أما منصور عباس رئيس «القائمة العربية الموحدة» فمواقفه دائمًا غير ثابتة، في البداية أعلن دعمه المشاركة في حكومة برئاسة نتنياهو قبل أن يتنصل وينتقل للمعسكر المنافس.

أعضاء الحكومة الجديدة يعون تمامًا أن أملهم الأهم لاستمرار ائتلافهم، هو إضعاف المعارضة داخل الكنيست والتي ستكون أكثر قوة بوجود نتنياهو الذي تعهد بأنه سيحارب في صفوف المعارضة بهدف إسقاط حكومة العار «كما أطلق عليها»، لهذا سربت حكومة التغيير قانونًا جديدًا سيناقش في الكنيست، ليمنع السياسي الذي يترأس الحكومة على مدى ولايتين أو ثمانية أعوام من الترشح للكنيست في غضون 4 أعوام، ولا يوجد سياسي في إسرائيل ينطبق عليه هذه الشرط سوى نتنياهو. أما الضربة الثانية ستكون الضغط بقوة على المحكمة العليا الإسرائيلية ومستشار الحكومة بالإسراع في خطوات محاكمة نتنياهو المتهم في قضايا فساد لكن دون توجيه اتهامات نهائية أو العزل من منصبه لأنه كان محصنًا طبقًا للقانون الإسرائيلي بصفته رئيسًا للحكومة. صحيح أن نتنياهو أصبح الآن خارج الحكومة لكنه سيظل حاضرًا بقوة في المقارنة التي ستحدث من قبل الرأي العام الإسرائيلي بينه وبين الحكومة الجديدة في المشكلات القادمة التي ستظهر للحكومة الجديدة.

نفتالي بينيت

- «بينيت» متطرف عنصري وموقفه صريح ومعلن ضد العرب، لا يعترف بالدولة الفلسطينية من الأساس ويؤكد دعمه للمستوطنات الإسرائيلية، والاستمرار في البناء داخل المنطقة «ج» بالضفة الغربية..

مشكلات الائتلاف الجديد

من المقرر أن تستمر الحكومة الجديدة لمدة 4 أعوام بالتبادل، إذ سيترأس الحكومة نفتالي بينيت لمدة عامين حتى 23 سبتمبر 2023، ثم يحل محله يائير لابيد في العامين التاليين. وستتشكل الحكومة من 27 وزيرًا، من بينهم 9 سيدات، وبجانب الأزمة الأولى المتعلقة باحتمالية الانشقاقات والتحولات تظهر 4 مشكلات أخرى تمثل أزمات داخل الائتلاف الجديد، أولها افتقارهم للخبرة السياسية التي كان يمتلكها نتنياهو الذي كان حتى في ظل الانتقادات واتهامه بالفساد ذو طبيعة كاريزمية – بالنسبة للمواطن الإسرائيلي – بدليل قدرته على المكوث في الحكم منذ 2009، أي طوال 12 عامًا لم يحصل على هذه الثقة بين السياسيين الإسرائيليين سوى آرييل شارون، الذي امتلك نفس الكاريزما لدى المواطن وظهر هذا جليًا في انتخابات الكنيست الـ 16 عام 2003 عندما اكتسحها الليكود بقيادة شارون وعندما انفصل عن الحزب وأسس حزب «كاديما» اكتسح معه انتخابات الكنيست الـ17 عام 2006، وبعد دخوله في الغيبوبة الطويلة ترك «كاديما» تحت قيادة إيهود أولمرت بدأ الحزب في السقوط حتى غاب تمامًا عن المشهد، لذلك فنتنياهو تلميذ مخلص في هذه المدرسة.

المشكلة الثانية تتعلق، بالوضع الداخلي فهناك ملفات يجب تحصل على تعامل خاص من رئيس الحكومة، وهو ما كان نتنياهو بارعًا في تنفيذه، وأهمها الصراع الدائم بين العلمانيين والمتدينين، فالتياران يسيران بالتوازي، ويمتلكان نفس القوة، وقد كان نتنياهو يسير على خطى شارون في كيفية التوازن بين القطبين. ثم يأتي ملف قانون تجنيد الحريديم «اليهود المتدينون» والامتيازات الخاصة التي يحصلون عليها التي هي بالتأكيد الصراع الدائم لقوى اليسار والوسط الليبرالي والحكومة الإسرائيلية اليوم، إذ شكَّلها يساري وتمتلك داخل الائتلاف ثلاثة أحزاب، بالإضافة إلى أن بقية أحزاب الائتلاف التي تنتمي لليمين هي أقرب لليمين القومي أي أن ملف المتدينين ليس من بين أولويتهم لهذا فإن الصراع مع الحريديم قادم لا محالة وهو صراع قد يؤرق الحكومة الجديدة.

ومن الملفات الشائكة أيضًا التي تتطلب تعاملاً قانونيًا خاصًا، «القومية» و«كيمنتس»، وهما مرتبطان لأن نصف الائتلاف يدعمهما بقوة والفريق الآخر ينتقدهما بشدة. والملف الآخر هو «المستوطنات» التي يتعامل أنصار اليسار معها بتوازن، على عكس نفتالي بينيت الذي سيرأس الحكومة في الفترة الأولى، فقد بدأ حياته السياسية من بتأسيس حزب «البيت اليهودي» الذي كان يطلق عليه «حزب المستوطنات». ونفس الموقف يتخذه جدعون ساعر وأفجيدور ليبرمان، بالإضافة إلى الأزمات الداخلية المعتادة مثل تدني مستوى الدخول والتعامل الوقائي مع فيروس كورونا.

المشكلة الثالثة للحكومة الجديدة تتعلق بالأمن الداخلي، وهو ما كان إحدى نقاط قوة نتنياهو، الذي نجح في إقناع المواطن أنه الوحيد القادر على حماية أمن إسرائيل، وها قد عاد الهاجس الأمني (الذي كان مفتاح نجاح نتنياهو منذ 2009) بقوة ليسيطر على المشهد في إسرائيل بعد الحرب والصواريخ التي أطلقتها المقاومة من غزة واخترقت تل أبيب، ولم تعد الفكرة

بيني جانتس

- الأمن الداخلي هو التحدي الجديد أمام الحكومة، بعد صواريخ المقاومة التي اخترقت تل أبيب.. الهاجس الأمني لم يعد يسيطر على المواطن العادي فقط بل امتد إلى النخبة..

الأمنية تسيطر على المواطن العادي فقط بل امتدت إلى النخبة، لهذا فالحرب الأخيرة أعادت نتنياهو للصورة من جديد على أنه القادر على حماية أمن إسرائيل حتى في ظل انتقادات قيادة المعركة في الأيام الأولى، وشعر نتنياهو بهذا، لهذا راهن على فشل لابيد في تشكيل الحكومة وأن الرئيس ريفلين وقتها سيوجه التفويض للكنيست أو اللجوء إلى انتخابات مبكرة للمرة الخامسة خلال عامين، في ذلك التوقيت ستكون أسهم نتنياهو الأفضل، ومؤشرات ذلك هي حصول حزب « الليكود» تحت قيادته من 36 ل 38 مقعدًا في الكنيست.

المفاوضات مع الفلسطينيين

المشكلة الرابعة والتي يحيط ضباب شديد بمسارها المستقبلي، تتمثل في الملف المتعلق بالمفاوضات مع الفلسطينيين بعد قرار وقف إطلاق النار الأخير. وتعتبر نقطة «حل الدولتين» مسار خلاف كبير بين الائتلاف الجديد، فرئيس الحكومة في الفترة الأولى يرفض رفضًا تامًا حل الدولتين، ولا يعترف بسيادة الدولة الفلسطينية. ونفس الحال عند أفجيدور ليبرمان الذي يكن العداء العرب وقدم مشروع قانون من قبل لترحيل عرب 48، وكذلك جدعون ساعر الذي لا يعترف بأي حقوق للدولة الفلسطينية، على النقيض موقف يائير لابيد ومعه قادة اليسار ميراف ميخائيلي ونيتسان هورفيتش، وما يزيد ضبابية المشهد حول استئناف المفاوضات عدم معرفة طبيعة النوايا الأمريكية تجاه الحكومة الجديدة، خصوصًا وأن العلاقات بين الرئيس الأمريكي جو بايدن مع نتنياهو كانت متوترة على خلفية أزماته السابقة مع الرئيس الأسبق باراك أوباما والحزب الديموقراطي لدرجة جعلت بايدن بعد نجاحه لا يجري أي اتصالات تليفونية مع نتنياهو في سابقة هي الأولى. وكانت الصحف الإسرائيلية تسخر من نتنياهو في هذا الأمر. وحتى في ظل هذه التوترات يبقى نتنياهو بخبرته السياسية والأهم الأوراق التي يمتلكها للضغط على الدول المجاورة له والاستراتيجية في المنطقة وفي القارة الأفريقية، مفيدًا للإدارة الأمريكية. وهنا السؤال التي تطرحه واشنطن هل حكومة دون نتنياهو يمكن أن تمسك بكل تلك الخيوط سريعًا، والأهم أن واشنطن أيضًا لا تعلم حتى الآن موقف تلك الحكومة من نقطة استئناف المفاوضات مع الجانب الفلسطيني. وتكمن التخوفات التي تحملها الإدارة الأمريكية في نقطة أساسية وجوهرية وهي عودة الخطوات الإسرائيلية الأحادية الجانب وعدم الاعتراف بالشريك الفلسطيني بسبب بعض أيديولوجيات قادة الائتلاف الجديد المعتادين على تلك الخطوات الأحادية دون الشريك الفلسطيني.

العرب في الحكومة للمرة الأولى

للمرة الأولى في تاريخ حكومات إسرائيل يوجد حزب أو قائمة عربية داخل الائتلاف الحكومي، بعد أن وافق منصور عباس رئيس «القائمة العربية الموحدة» التي تمتلك 4 مقاعد على الانضمام إلى الائتلاف الجديد، فهل وجود هذه القائمة داخل الحكومة في مصلحة تجاه الفلسطينيين؟ حتى هذه اللحظة لا يمكن التكهن بالإجابة لكن المعطيات على أرض الواقع حاليًا تؤكد أمرين الأول أن مشاركة القائمة في الحكومة ما هي إلا

هوامش

لاكتمال النصاب القانوني فقط، والأمر الثاني أن رئيس القائمة العربية الموحدة لم يتمسك بمطالبه التي من المفترض أنها تمثل عرب الداخل فماذا سيفعل إذا كان الموضوع يرتبط بالفلسطينيين في قطاع غزة والضفة الغربية، ومن أهم المطالب التي نحاها عباس الاعتراف الذاتي بعرب 48 والمساواة في الحقوق المدنية والقومية لهم، إنهاء الاحتلال واتخاذ الخطوات الأولية تجاه إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة، وإلغاء قانون القومية وقانون كيمنتس وإيقاف هدم المنازل في القرى العربية والسماح للعرب في الضفة الغربية بالحياة والتعمير والتطوير في المنطقة «ج». في المقابل رضخ عباس إلى إلقاء الفتات له من خلال تمديد تجميد «وليس إلغاء» قانون كيمنتس حتى عام 2024، وإيقاف الهدم في النقب لمدة 9 أشهر فقط، ورصد ميزانية تقدر بنصف مليار شيكل لمشاريع في المجتمع العربي»وهو بالطبع مبلغ زهيد جدًا»، والاعتراف في وقت لاحق بالتجمعات العربية في النقب دون تحديد فترة زمنية، والاعتراف بقانونية 3 قرى عربية في النقب فقط، وتعيين أحد أعضاء القائمة في منصب نائب وزير داخل مكتب رئيس الحكومة «وزير بلا حقيبة»،

يائير لابيد

خصوصًا وأنه حتى الوزير العربي ضمن الحكومة الجديدة وهو عيساوي فريج عضو في حزب «ميرتس» اليساري، ولا ينتمي للقائمة العربية الموحدة، وهو العربي الثاني الذي يحصل على منصب وزير في إسرائيل وليس الأول كما زعمت بعض المواقع، فقد سبقه رجل الأعمال غالب مجادلة الذي عُيِّن وزيرًا بلا حقيبة في مارس 2007 بعد ترشيح من عمير بيرتس رئيس حزب العمل ووزير الدفاع وقتها ضمن حكومة إيهود أولمرت، وينتمي مجادلة لحزب العمل اليساري.

كما أن قبول منصور عباس لهذه الشروط يؤكد لماذا اتجه لابيد وبينيت إلى تلك القائمة وترك «القائمة العربية المشتركة» التي يترأسها أيمن عودة، مع أنها حصلت على ستة مقاعد، أو حتى ضمها بجانب قائمة عباس لتوسيع الائتلاف قليلاً ليصبح 68 مقعدًا بدلاً من 62، وهو تفوق نسبي مطلوب في هذه الفترة، لكن في الحقيقة كان للمكلف بتشكيل الحكومة 3 أهداف من هذا الاختيار، الأول تحقيق التوازن في علاقاته مع الأحزاب اليمينية والقومية، والثاني وهو الأهم أن تعامل تيارات اليسار والوسط في إسرائيل مع الأحزاب العربية أقرب إلى الموقف من عودة اللاجئين لأنه يمثل خطورة على الوضع الديومغرافي أي أنه نوع من الديموغرافية السياسية (إن صح التعبير)، ورغم وجود القائمة العربية المشتركة في المرتبة الثالثة خلال ثلاث جولات انتخابية فقد ظلت بعيدة تمامًا عن المشاركة في الحكومة مثلما حدث في أبريل 2015 خلال انتخابات الكنيست الـ 20، حين حصلت القائمة على 13 مقعدًا، لكن وقتها خاف يتسحاق هرتسوج رئيس قائمة «الاتحاد الصهيوني» المنتمي لليسار من (الديمغرافية السياسية)، وأما الهدف الثالث فهو الابتعاد عن أيمن عودة صاحب المواقف الأكثر ثباتًا تجاه اليمين الإسرائيلي وحقوق عرب 48 وحل الدولتين.

نستطيع إذن القول إنه وبعد عامين من عدم الاستقرار السياسي وإجراء 4 انتخابات مبكرة خلالهما، ابتعد نتنياهو عن المشهد السياسي وانتقل لصفوف المعارضة، وجاءت حكومة جديدة عن طريق التناوب، وهي حكومة غير متجانسة متضاربة التوجهات والأيديولوجيات، حكومة تمثل خطورة كبيرة على مستقبل حل الدولتين وإقامة دولة فلسطينية ذات سيادة. وأخيرًا فإن نفتالي بينيت أخطر بكثير من نتنياهو، صحيح أنه يرفض العرب لكن الأمر بالنسبة له لعبة سياسية يديرها طبقًا لموقفه في توقيت معين، أما بينيت فهو متدين متطرف عنصري وموقفه صريح ومعلن ضد العرب ولا يعترف بالدولة الفلسطينية من الأساس، وأكبر دليل على ذلك الكلمة التي أدلى بها بعد التصديق على الحكومة التي ارتكزت على 3 نقاط؛ وهي الموقف تجاه سياسة إيران النووية، ودعم المستوطنات الإسرائيلية، الاستمرار في البناء داخل المنطقة «ج» بالضفة الغربية.

- علماء الاجتماع يعزون تنامي العنف إلى ما يُطلق عليه «إذاعات القمامة» وهي محطات إذاعية خاصة يتحدث مذيعوها بنبرة متعصبة للعرق الأبيض ومؤمنة بمؤامرة تحاك عليه من قوى خفية..

حادث كندا العنصري..

اعتراف متأخر بالإرهاب الأبيض

محمد عبد الفتاح

أربعة أفراد من أسرة مسلمة قُتلوا غدرًا ومع سبق الإصرار في مدينة لندن، الواقعة بمحافظة أونتاريو الكندية، في السادس من يونيو الماضي، دهسًا بشاحنة كان يقودها الشاب ناثانيل فيلتمان، الذي لم يتجاوز العشرين، ودافعه الأول إيمانه العميق بتفوق العرق الأبيض. لم يستغرق الأمر سوى دقائق ليقبض عليه على بعد 7 كيلومترات من مسرح الجريمة. وقبل غروب شمس نفس اليوم أكد بول وايت، محقق شرطة لندن، أن هناك دلائل دامغة على أن « الحادث مخطط له منذ فترة وبدافع الكراهية، ونعتقد أن الضحايا استهدفوا لأنهم مسلمون». وأصدرت أسرة الضحايا، وهم من أصول باكستانية، بيانًا حددت فيه أسماء أبنائها القتلى، وهم: سلمان أفضل (46 عامًا)، وزوجته مديحة (44 عامًا)، وابنتهما يمنى (15 عامًا)، والجدة (74 عامًا)، إضافة إلى الفتى فايز الذي أصيب بجروح خطيرة ونُقل إلى المستشفى.

غير أن رئيس الوزراء الكندي جاستن ترودو امتلك من الشجاعة ما دفعه للإقرار الصريح، وحتى قبل صدور الاتهام الرسمي من جهات التحقيق، بأن ما حدث هو «عمل إرهابي مصبوغ بكراهية الإسلام»، وفي نفس الاتجاه سار بيل بلير، وزير الأمن العام في كندا، بالقول إن ما حدث «عمل مروع من أعمال الإسلاموفوبيا، وتلك المجزرة الجماعية وغيرها من هجمات مماثلة هدفها إرهاب الجالية المستهدفة ونشر إحساس بين أفرادها بأن الدور سيأتي على عائلاتهم.. لا ينبغي لأحد أن يعيش بهذه الطريقة». فيما قال مصطفى فاروق، رئيس المجلس الوطني لمسلمي كندا، إن هناك «إحساسًا أكبر من الرعب يسود.. إنه حادث إرهابي ويجب التعامل معه على هذا الأساس». وأعاد الحادث للأذهان ذكريات مؤلمة عن واقعة إطلاق نار داخل مسجد بمقاطعة كيبيك في يناير 2017، أودى بحياة ستة أشخاص فضلاً عن خمسة إصابات شديدة الخطورة، وكان يُصنف بالحادث الأسوأ من نوعه ضد جالية مسلمة في دولة غربية، قبل أن يقع حادث أكثر بشاعة بمدينة كرايست تشيرش بنيوزلندا مطلع 2019، راح ضحيته 51 قتيلاً وعشرات المصابين. ومنذ إطلاق النار على المصلين في كيبيك زادت جرائم الكراهية عمومًا في كندا بشكل ملحوظ، حيث شهدت تورنتو في أبريل من عام 2018، مقتل 10 مشاة بشاحنة صغيرة.

المختصون في علم الاجتماع بكندا يعزون تنامي ظاهرة العنف بشكل عام إلى ما يُطلق عليه بالإنجليزية trash radios أو «إذاعات القمامة» وهي محطات إذاعية خاصة يتحدث مذيعوها بنبرة متعصبة للعرق الأبيض ومؤمنة بمؤامرة تحاك عليه من قوى خفية، ومحرضة على العنف في أكثر من اتجاه؛ تارة ضد المسلمين وتارة ضد اليهود، فضلاً عن أوصاف عدوانية تجاه الطبقة السياسية الحاكمة أقلها أنهم «حفنة من الخونة الخنازير سمحت بجلب مهاجرين، ومنهم حمقى وقتلة يستحقون القتل»، وذلك

على حد وصف ستيفان جيندرون، الإذاعي السابق بعدد من محطات كيبيك والذي يصف نفسه الآن بالـ«تائب» في حديث مع صحيفة لوموند الفرنسية اليومية، ويتابع «لقد كنت رجلاً أبيض غاضبًا على الدوام.. العدوانية وإلقاء القاذورات على الآخرين كانت إدمانًا بالنسبة لي.. وكنت دائمًا موضع ثناء وتقدير من رؤسائي في العمل، وكان المستمعون يطلبون مني الاستمرار بنفس اللهجة الغاضبة المتعصبة، كنت أقول بصوت عالٍ ما كانوا يقولونه فيما بينهم بغيظ مكتوم».

Choi-FM

هي المحطة الأشهر التي يقع تصنيفها ضمن «إذاعات القمامة»، ويرى دومنيك بابيت، بالباحث في أصول المجتمعات بجامعة لافال بكيبيك، أن الأمر في هذا النوع من الإذاعات لا علاقة له بصحافة الرأي بل هو «فضاء عام تنتشر فيه الكراهية، وتوجه فيه شتائم لسياسيين بعينهم، وتُنصب فيه محاكمات أخلاقية وهوياتية لمجتمعات بأكملها، دون الأخذ بعين الاعتبار أي من معايير المهنية والحياد».

ومن الصعب التمييز بسهولة بين أبناء كندا ذات الأعراق المتعددة، لكن يختلف الأمر مع المحجبات اللاتي يمكن استهدافهن من المتطرفين بسبب ملابسهن التي تدل على كونهن مسلمات.

أما علي منحنيف، عميد كلية العلوم الاجتماعية والسياسية بجامعة «سياريف هداية الله» الإسلامية، فيشير إلى ظاهرة «الإسلاموفوبيا» كأحد أهم مظاهر العولمة وأزمة الهوية. وقد قال في تصريحات نقلتها وسائل إعلام كندية إن صعود الإسلاموفوبيا في الغرب يدل على أنه «لم يكن مستعدا لاستيعاب المهاجرين بخلفياتهم وثقافاتهم المختلفة». وأوضح أن غياب الحوار في الدول الغربية خلف أزمة الهوية التي نتج عنها العنف ضد المجتمع والعرق والدين.

على مدار العشرين عامًا الماضية استهدفت برامج راديو Choi-FM من خلال مذيعيه، دومنيك موريس ودينيس جرافيل وجيف فيليون، المسلمين والمدافعين عن حقوق البيئة والمرأة، وكانت رسالتهم الصريحة «أننا لم نُخلق لنعيش مع هؤلاء»، بل وفي بعض الأحيان طال هذا الخطاب البيض من الطبقات الفقيرة، وكان لوصول دونالد ترامب إلى سدة الرئاسة في الجارة أمريكا وقع السحر في انتشار هذا الخطاب في كندا على مدار السنوات الأربع الماضية، علمًا بأن كل «إذاعات القمامة» كانت مساندة لترامب بشكل صريح في حملته الانتخابية ضد جو بايدن؛ الذي تراه تلك الإذاعات «حليفًا للشيوعيين ولقوى شيطانية تريد السيطرة على العالم من خلال نشر فيروس كورونا وإجبار البشرية على ارتداء كمامات وتلقي لقاحات». وجاءت جائحة كورونا لتمنح «إذاعات القمامة» الفرصة لخوض معارك جديدة، إذ انخرطت جميعها في حملات شرسة لمعارضة كل التدابير الاحترازية التي أعلنتها الحكومة للحد من انتشار الفيروس، مع دعوات للتظاهر في الشارع في مواعيد الإغلاق العام وحظر التجوال.

من الناحية الصحفية تقدم كوليت برين، مديرة مركز دراسات الإعلام في مونتريال، وجهة نظرها «إذاعات القمامة تشكل مأوى لكل من يرى في نفسه مهمشًا ويشعر بالاغتراب الاجتماعي في نظام يُفترض فيه أنه يمثل النخبة الاجتماعية والثقافية في كيبيك.. أما بالنسبة لمديري هذه المحطات فالأمر لا يتعلق بأيديولوجيا يتبنونها بقدر ما هو محتوى يمنحهم تميزًا في المشهد الإعلامي».

وقد تأسس راديو Choi-FM في عام 1976، ويمتلك تاريخًا حافلاً بالاتهامات، ففي عام 2017 وبعد حادث إطلاق النار في أحد مسجد كيبيك على المصلين، اتهم ضابط مخابرات كندي سابق مذيعي المحطة الإذاعية بأن أيديهم ملطخة بدماء الضحايا على اعتبار أن منفذ الهجوم كان متأثرا بخطابهم الإعلامي المناهض للإسلام والمسلمين. هذا فضلاً عن أن الراديو هو المتهم الأول في تفشي وباء

كورونا على نطاق واسع في كيبيك بعدما تبنى حملة فتح الصالات الرياضية وحض مستمعيه على كسر القيود التي فرضتها الحكومة، وبعد 3 أسابيع من بدء الحملة ومع استجابة قطاع كبير من المستمعين لها، تفشى الوباء بشكل مخيف في كل أرجاء المقاطعة لدرجة أدت لتصنيفها منطقة حمراء، أي شديدة الخطورة، وكشفت تحقيقات وزارة الصحة أن بؤرة التفشي كانت إحدى الصالات الرياضية الذي يملك صاحبها، ويُدعى دان مارينو، علاقات متميزة مع مذيعي المحطة، الذين قد يمثلون بالفعل أمام القضاء إثر قضية رفعتها حركة تسمى «أخرجوا القمامة من المدينة» وتضم طلاب ومعلمين ونقابيين، لا سيما وأنه من المثبت إصابة 208 أشخاص في الصالة الرياضية بالفيروس، وقد توفي أحدهم وهو لم يبلغ الأربعين بعد من العمر.

كانت كاترين دوريون، النائبة ببرلمان كيبيك، أول من حذر من خطورة «إذاعات القمامة» على السلم الاجتماعي، خصوصًا مع تمكن مستشاريهم القانونيين من التلاعب بالألفاظ والمصطلحات للإفلات من القضاء، رغم حالة الاستقطاب والاحتقان والتوترات الشديدة التي يخلقها محتواها الإعلامي وفي بعض الأحيان الإهانات الصريحة لبعض الأشخاص، وتؤكد دوريون أن أحد زملائها في البرلمان «انهار في البكاء بعدما شاهد كم ما تعرض له من سباب وإهانات على صفحات التواصل الاجتماعي الخاصة بتلك المحطات، بعدما تقدم بمشروع قانون يشدد الرقابة على ما تبثه للمستمعين».

ويدافع فيليب لوفيفر، مدير محطة Choi-FM عن خطه التحريري ويدحض اتهامه بتعريض حياة المواطنين للخطر بالقول: «نحن مذنبون في شيء واحد فقط، وهو طرح الأسئلة وتشغيل الراديو للجميع.. نحن نقوم بعملنا.. وسنواصل القيام به رغم أن خطر الرقابة يحاول الإجهاز على الحرية». وفي 2004، كانت الإذاعة مهددة بالإغلاق من قبل هيئة البث الكندية، بسبب ما تبثه من محتوى عنصري ضد الأقليات، فما كان من القائمين عليها إلا اللجوء لشعار «يا حرية التعبير باسمك أستغيث»، ونجحوا بالفعل في حشد عشرات الألاف من المتظاهرين المؤيدين لخطابهم الإذاعي في الشارع فتراجعت هيئة البث عن

- التحريض على العنف في أكثر من اتجاه؛ تارة ضد المسلمين وتارة ضد اليهود، فضلاً عن أوصاف عدوانية تجاه المجموعة الحاكمة أقلها أنهم «حفنة من الخونة الخنازير سمحت بجلب مهاجرين»..

- «إذاعات القمامة» ساعدت ترامب بشكل صريح ضد بايدن الذي تراه «حليفًا للشيوعيين ولقوى شيطانية تريد السيطرة على العالم من خلال نشر كورونا وإجبار البشرية على ارتداء كمامات وتلقي لقاحات»

تلويحها بإغلاق المحطة وهو ما أكسبها أرضية صلبة منذ ذلك الحين.

وبالتوازي مع الخطاب الإعلامي المحرض على العنف وكراهية الآخر، فإن هناك جماعات كندية مؤمنة بتفوق العرق الأبيض لا تختلف أيديولوجيتها عن جماعات أصولية على شاكلة داعش والنُصرة، وأبرز تلك الجماعات حركة «براود بويز» اليمينية الأمريكية المتطرفة، والتي لها أفرع منتشرة في أرجاء كندا، وصنفتها أتاوا في شهر فبراير من العام الجاري، جماعة إرهابية. ومع أن هذه المجموعة لم تشن أي هجوم على الإطلاق في كندا، فإن مراقبين رجحوا احتمالية تورطها في هجوم الشهر الماضي، إذ ذكر مسؤولون كنديون أن «المخابرات المحلية أصبحت قلقة بشكل متزايد بشأن تورط -براود بويز- في هجمات». وقد تأسست «براود بويز» أو «الأولاد الفخورين» في عام 2016 وتضم في صفوفها الذكور فقط، مع بعض الاستثناءات. وبحسب صحيفة وول ستريت، تركز هذه المجموعة على «القيم الغربية» وتصف نفسها بـ«جماعة الشوفينيين الغربيين»، فيما تصفها المخابرات الأمريكية بأنها «أخطر مجموعة متعصبة للبيض». وغالبًا ما يدلي المنتمون للأولاد الفخورين بتصريحات معادية للمرأة، بما فيها تصريحات تدعم الاغتصاب، ومعاداة المسلمين ومناهضة الهجرة. وكشفت الصحيفة الأمريكية أن العديد من أعضاء في الولايات المتحدة أدينوا بجرائم عنف واعتداء، وحُكم عليهم بالسجن لسنوات. وكانت السلطات الكندية قد صرحت حين صنفت المجموعة كمنظمة إرهابية، إن أعضاء «براود بويز» يشجعون ويخططون لأنشطة عنيفة ضد الأشخاص الذين يعارضون أيديولوجيتهم. كما صنفت السلطات الكندية مجموعتين أمريكيتين يمينيتين لهما وجود على أراضيها، هما «أتوموافن ديفيجن» و«ذا بايز»، كيانات إرهابية.

في نشر الأدب و«الراب».. هذا ما فعله السوق!

مينا ناجي

لماذا نصبح انتقائيين في صداقاتنا مع التقدم في العمر؟

عبد الهادي محمد عبد الهادي

التجارة العادلة.. أزمة الصناعات التقليدية وسبل الإنقـــاذ الحقيقي

منى السيد

رؤى

في نشر الأدب و«الراب».. هذا ما فعله السوق!

مينا ناجي

«كم تكسب من كتبك؟» يُطرح على السؤال من الأصدقاء والمعارف، أو من أشخاص أقابلهم للمرة الأولى ويعرفون معلومة أن لي كتبًا منشورة. في العادة، يعلنون بعدها، بفخر أحيانًا وبخجل أحيانًا، أن القراءة ليست جزءًا من روتين حياتهم. الظاهرة العامة لعدم ممارسة القراءة ومن ثَم قلة شراء الكتب في مصر، لا تشير فقط إلى ضعف الثقافة، بل أيضًا إلى أن الكتابة لا يمكن، إلا باستثناءات قليلة للغاية، أن تُصبح «مهنة» لمُمارسها، ناهيك لكونها مربحة أو لا. يَعرف هذا كل من يشتغل بالأدب أو الثقافة. أتذكر دكتورة في كلية الفنون كانت تقيم ندوات تشكيلية في مكتبة مصر الجديدة العامة، طلبت مني أن أقدم نفسي، فقلت على سبيل السياق الفني إني كاتب، فبدا عليها الدهشة المستنكرة كأني أسخر منها. أتذكر ذلك وأشعر أني أفهم ردة فعلها قليلاً.

سؤال «كم تكسب من كتبك؟» يكون غرضه غالبًا قياس سريع ومباشر لـ"حجمي" ككاتب، أو، قياس مدى "جدوى" ما أفعله هاجرًا الهندسة التي تخرجت من كليتها، والجدوى طبعًا، هي حصرًا جدوى اقتصادية. ما يذكرني بنوفيلا "هيا نشتر شاعرًا" للروائي البرتغالي أفونسنو كروش، فبعدما يَفرغ كروش من النوفيلا التي رسالتها أن الشعر (والفن) لا يقيَّم بالمال، يكتب تذييلاً يناشد فيه المسؤولين الاهتمام بالأدب والثقافة ويُعلمهم أنهما مصدر دخل قومي ويرص لهم أرقام الربح السنوية!

لا يعني هذا أن الأدب لا يخضع لاقتصاديات تؤثر وتعيد تشكيل مجال ممارسته إنتاجًا وتلقيًا، ففي السنوات الأخيرة، وبسبب الاستقرار الاقتصادي النسبي -إذا تغاضينا عن انتكاسة الوباء العام الماضي والمستمرة إلى الآن- حدثت تغيرات في مجال الأدب، وبيع الكتب عمومًا، يمكن تتبع جذورها في مرحلة سابقة مع بداية الألفية بتطبيق سياسات سوقية، حيث فتحت دور نشر ومكتبات خاصة، لنشر وبيع الكتب، وصحفًا خاصة تتناولها بالعرض والنقد والإشارة، ومدونات شخصية تتفاعل معها، كونت بشكل أولي سوقًا للأدب والثقافة.

أقارن هنا تغييرات مشهد الأدب التي حدثت مؤخرًا بدخول «السوق» عليه مرة أخرى، في حضور مهيمن لمواقع السوشيال ميديا هذه المرة، مع مشهد فني آخر هو مشهد موسيقى الراب، حيث كان التحول السوقي المتزامن أسرع وأقوى وأكثر اكتمالاً لأسباب تتعلق بسعة الانتشار وسهولة الإنتاج والاستهلاك ووضوح الأرقام والمؤشرات بجانب الاستفادة المادية والمعنوية المباشرة العائدة على الممارسين من مغنيين ومنتجين.

مشهد الأدب

ظهرت مجددًا الملامح السوقية في مجال الأدب عبر ظواهر مختلفة: تضخُّم حجم الإصدارات السنوية وتنوعها النسبي؛ رسوخ أنواع وقوالب كتابية مُحددة (روايات تاريخية، رعب، صوفي رومانسي، إلخ..)؛ ازدياد الترجمات بالذات الروايات والتنمية الذاتية والسير الشخصية؛ التوسع في الجوائز الأدبية وفئاتها؛ دخول وسائط أخرى في مجال النشر مثل النشر الصوتي والرقمي؛ رجوع تقليد حفلات التوقيع بشكل واضح، والحضور المكثف لنوادي القراءة الافتراضية والواقعية.

مع ازدياد حجم سوق القراءة وبداية تأسيس ضوابط ما له، أصبح هناك حاجة أكبر للدور الوسيط، بين المُنتِج (الكاتب/الناشر) والمستهلك (القارئ)، هذا الدور الوسيط ليس فقط تسويقيًا، بل أيضًا توجيهي، وكثيرًا ما يمتزج الدوران معًا. ففي عصر السوشيال ميديا تستعين الآن دور النشر بمسوقين رقميين و«إنفلونسرز» لترويج الإصدارات الجديدة بالكتابة عنها والإشارة إليها، هذا بجانب، وأحيانًا بدلاً من، الصحافيين الثقافيين التقليديين أو الكُتّاب المعروفين، الذين كانت ترسل إليهم نسخًا من الكتب ليكتبوا عنها.

ظهر أيضًا دور وسيط جديد، اكتسح الشكل التقليدي للنقد الأدبي، سواء مقالات مكتوبة أو دراسات، وهو "البوكتيوبنج"، أي المراجعة المصوَّرة للكتب على موقع يوتيوب. وفي العادة يتعاون البوكتيوبر مع دور النشر في وظائف مختلفة تتعلق بالبيع والتسويق وأعمال تنسيقيّة وتنظيميّة أخرى.

ظهرت الملامح السوقية في مجال الأدب عبر ظواهر مختلفة: تضخُّم الإصدارات وتنوعها النسبي، رسوخ أنواع وقوالب كتابية مُحددة، ازدياد الترجمات بالذات الروايات والتنمية الذاتية والسير الشخصية

يقوم كل من الإنفلونسر والبوكتيوبرز بترشيحات توجيهية للقراءة، سواء بمراجعاتها أو الإعلان عن شرائه لها أو وصولها كهدية إليه في فيديوهات قصيرة زمنيًا في العادة، أو كتابة منشورات عنها على مواقع التواصل الاجتماعي، خاصة في مجموعات القراءة على الفيسبوك. وسط سيل الكتب الصادرة حديثًا وقديمًا يلجأ القارئ (المستهلك) إلى هؤلاء الوسطاء، كي لا يتوه بين مئات العناوين المُعلن عنها، مُستعينًا أيضًا بالقوائم الطويلة والقصيرة والفائزة في المسابقات الأدبية، وقوائم الكتب الأكثر مبيعًا (التي لا تزال حتى الآن غير دقيقة ولا موثقة) لكي يضمن حصوله على أفضل المنتجات المطروحة.

هناك إذن خريطة تبزغ بوضوح لفاعلي السوق: الجانب الإنتاجي - الكتّاب والمترجمون مع دور النشر (ومستثمريها)؛ الحلقة الوسيطة - المسوقون والبوكتيوبرز على مواقع التواصل الاجتماعي، هيئات ولجان الجوائز، وبنسبة أقل مواقع القراءة المتخصصة مثل جودريدز؛ في النهاية بالطبع القوة الشرائيّة أو الجانب الاستهلاكي أي القراء. السؤال هنا هل هذه الخريطة لها جوانب إيجابية فقط، من انتشار عادة القراءة وانتظام قنواتها؟ هل لنا أن

نفرح بدخول "سوق" للكتب أخيرًا إلى مصر والوطن العربي؟

***

تأخرت روايتي الثانية ثلاث سنوات بسبب تسويف الناشر السابق لها، وحين قررت الذهاب لمكان آخر وجدت شروطًا جديدة: المحتوى الجنسي واللغة الصريحة في الرواية مرفوضان، ليس فقط لأنها تؤثر في توزيع الرواية في مناطق معينة، بل كما عرفت لاحقًا يحدان كثيرًا من انتشارها بين جمهور المستهلكين الذي ينفرون من تخطي الحدود الحمراء.

طُلب مني تسويق الرواية، بكل ما يستلزمه ذلك من أنشطة مصاحبة. نصحني صديق مثلاً بأن أوجد بشكل «شبه دائم» في معرض الكتاب وقت صدور الرواية. فقد أصبح الكاتب يحتاج بشكل واضح أن يخصص وقتًا ومجهودًا كي يسوق نفسه ولنفسه، ربما لغياب الدور الوسيط المخصص للوكيل الأدبي والمفترض أن يقوم بتلك المهام. أصبح على الكاتب أن يكون موجودًا طول الوقت (افتراضيًا قبل أن يكون واقعيًا) كي لا يُنسى في زخم الأشياء التي تحدث بشكل سريع ومكثف، وأصبح عليه أكثر من أي وقت سابق أن يسير وفق خطوط حمراء تتشكّل بحسب ما تسمح به ذائقة الجمهور التي بدأ عصر دخوله اللعبة الأدبية كفاعل أساسي له حق التصويت الأكبر.

مطلب آخر أصبح مألوفًا الآن أن يُطلب من الكاتب، وهو تشكيل رواية تسير على مقاييس الأعمال الرابحة في الجوائز الأدبية الكبرى، وهو الأمر الذي اتضح سريعًا، مثله مثل ما يعجب القرّاء، أنه غير متوقع ومتروك للمصادفة بلا مَعايير واضحة. ربما لأن السوق مازال في طور التشكّل ولم يصل إلى ذروة رسوخه الكامل بعد.

مع دخول السوق أيضًا انخفض نشر الشعر وكذلك الأعمال الفنية التجريبية، التي امتازت بهما فترة التسعينات وبداية الألفية في مصر. وأصبح التركيز على شخصية الكاتب وليست أعماله؛ إذا كان خفيف الدم أو له مواقف سياسية واجتماعية حدية، أو يجلب كل ما هو مثير وظريف وجديد لجمهور

المتابعين. أما تسليط الضوء على الأعمال نفسها عبر الأدوار الوسيطة فأصبح له قواعد جديدة غير واضحة المعالم وتثير الانتقاد والشكوى، فكثافة التعليقات والمراجعات على الكتب على مواقع التواصل تثير الشكوك فيما قد قُرئ وما قد دبج الكلام عنه، والبوكتويبر، بجانب عمل مراجعاته المصورة، وهو نشاط مجاني غير ربحي يقدم فيه تفضيلاته الشخصية، يعمل أيضًا مقابل راتب كمسوق رقمي أو بائع أو منسق في دور النشر المختلفة ومكتبات البيع، مما يغيِّم الحدود بين ما هو تفضيل شخصي، وما هو مدفوع الأجر للإعلان عنه.

مشهد الراب

في البداية، كان كل مغني راب ينتج لنفسه بشكل مستقل عبر تقنيات منزلية بسيطة، أو يستعين بصديق له مُنتج Producer يعرف كيف يفعل هذا الأمر. يرفع أعماله على موقع ساوندكلاود، (لاحقًا على يوتيوب ويضاف إليها فيديو ليركال، أي الكلمات المُحرَّكة بشكل فني)، دون أن ينتظر ربحًا من هوايته تلك، بل يصرف عليها من جيبه. بطيئًا بدأ تشكّل جمهور صغير ونوعي، أنشأ صفحاته الخاصة على السوشيال ميديا ليتبادل التراكات والآراء والمعلومات، وبدأت أماكن عروض وحفلات غنائيّة صغيرة باستضافة الفنانين ليؤدوا أغانيهم بشكل حي، وذهب حينها مغنون الراب إلى ستوديوهات احترافية من أجل تطوير جودة إنتاجهم.

في عصر السوشيال ميديا تستعين دور النشر بمسوقين رقميين و«إنفلونسرز» لترويج الإصدارات الجديدة، هذا بجانب، وأحيانًا بدلاً من، الصحافيين الثقافيين التقليديين أو الكُتّاب المعروفين. هناك إذن خريطة تبزغ بوضوح لفاعلي السوق: الجانب الإنتاجي، الكتّاب والمترجمون مع دور النشر. الحلقة الوسيطة، المسوقون والبوكتيوبرز، هيئات ولجان الجوائز، وبنسبة أقل مواقع القراءة المتخصصة.

ثم حدثت طفرة في الانتشار والاستماع حين خرج صوت جديد يمزج شكل الراب الحديث" التراب" Trap مع إيقاعات المهرجان الشعبيّة، بمصاحبة لغة أكثر شعبية مثيرة Exotic لباقي الطبقات المستمعة. زاد عدد المشتركين في الصفحات والمجموعات الخاصة بهؤلاء الفنانين ووصل عدد المشاهدات والاستماعات إلى الملايين، محققة "ترندات" على المواقع المختلفة. تكوّن إذًا بجانب الجمهور المخلص للراب، جمهور جديد أوسع لا يستمع حصريًا إليه، سواء داخل مصر أو من البلاد العربية، مما أدى إلى تشكّل ملامح سوق واضحة: ظهور قوالب محددة (تراب، أولد سكول، إلخ..)؛ دخول شركات إنتاج Labels ومنصات مثل سبوتيفاي لتبني إنتاج لفنانين وتسويقه مقابل نصيب من دخل الحفلات والمشاهدات؛ ارتفاع مستوى إنتاج الأغاني والفيديوهات المصورة وزيادة غزارتها؛ إقامة حفلات بشكل أكثر كثافة في أماكن أكبر (مثل الجريك كامبس والمنارة ودار المؤتمرات الجديدة إلخ..)، برعاة وتذاكر تدخل أجر مُعتبر لمغني الراب؛ ظهور وكلاء الأعمال الذين يدبرون الأمور الدعائية والمادية للرابرز؛ دخول أكبر للإناث في المجال كمغنيات للتراب؛ تعاون مع مطربين وفرق غنائية لهم شعبية كبيرة؛ الظهور في حملات دعاية وإعلان كبرى الشركات التجارية؛ تشكّل خطاب نقدي من مواقع مثل معازف وبرامج المراجعات والأخبار على اليوتيوب والصفحات المتخصصة؛ تحويل مغني الراب إلى ماركة Branding بصفته نجم فني حتى وصل ويجز مثلاً أن يُنشئ ماركة ملابس باسمه.

***

بدخول السوق فُرضت شروط ومتطلبات جديدة على المجال الصغير، عصفت بمن لم يقدر أن يواكب التغيرات الجديدة، ورحبت بمن تقبلها ومارس إنتاجه من خلالها، حتى الأسماء القديمة من الأجيال الأولى، الذين هجروا الغناء من أجل مصدر دخل ونمط حياة أكثر ثباتًا حيث لم يقدم لهم الراب دخلاً ماديًا يمكنهم من الاستمرار في ممارسته وتطويره مثل أصله الغربي. من ضمن هؤلاء شاهين، حاذفًا من اسمه وصف العبقري، الذي كانت عودته أنجح بكثير (وربما الأنجح) من قرينه إم سي أمين مثلاً، الذي يقاوم تبني الشكل الفني الجديد مُصممًا على الظهور مرة أخرى بشكله القديم (رغم ابتعاده عن محظورات أخرى مثل التناول المباشر لموضوعات سياسية) ومن كوردي

odreads

الـذي أعتمد على سمعته القديمة وأداء شخصية الجانجستر (عضو العصابة) المتميز به. لكن في النهاية، كان على كل من هو موجود سابقًا أن يعيد اختراع نفسه وفق شروط ومتطلبات السوق الجديدة لكي يستمر وينجح.

***

هناك حادثان دالان يشترك فيهما النجم الأكثر شعبية حاليًا ويجز، يشهدان على لحظة تحولات دخول السوق إلى مشهد موسيقى الراب، الأول هو الخصومة بينه وبين محمود دينيو السكندري مثله. في فيديو لايف يظهر دينيو وهو يشعر بالخديعة والإحباط لأنه خرج من الفرز الجديد لصعود النجوم، بعد تألقه كمغني راب صغير السن حاد المحتوى. فالقطاعات الجديدة الوافدة على المشهد متصاعد الشعبية لم تستسغ محتواه العنيف ولغته الخارجة أغلب الوقت.

في البداية مَوقع دينيو نفسه كفنان يغني من أجل "الجمهور الأصلي للراب" الذين لا يسمعون الشكل الجديد المُحدّث "التراب" بانعطافه التجاري في إنتاجات ويجز وأقرانه، لاعبًا دور مغني الراب الأصيل الذي ينتمي للمدرسة القديمة الفنية، قائل الحق وكاسر المحظورات الذي لا يخشى لومة راع أو مُعلِن. لكن الخصومة اتخذت بُعدًا طبقيًّا صُدم به دينيو، مواجهًا شروطًا جديدة في تقييم النجاح شخصية أكثر منها فنية، مثل ماذا يعمل وكم يملك وما يلبس وإذا كان يتعاطى المخدرات، باختصار قدرته أن يكون قدوة للمجتمع، وهو الدور الذي قام به بذكاء كبير ويجز وأبيوسف على سبيل المثال. استشاط دينيو غضبًا وتوعَّد وقتها بمزيد من الدِسات (الأغاني الهجومية) والعُنف، لكن ما حدث هوَ بالطبع فشل مسعاه في دحض غريمه. انسحب واعتزل الغناء وغاب لفترة كي يظهر مرة أخرى في إنتاجات أكثر قولبة بحسب متطلبات وشروط السوق، تراكات داخل الحدود على النمط الرائج تحت اسم فني جديد هو "ياقوت".

الحادث الثاني هو سعي ويجز المسعور، وقتما أشتهر فجأة وارتفعت أسهمه السوقية، كي يمنع رفع، وبعدها حذف، فيديو معركته الغنائية في برنامج "راب أور داي"، لأنه كان يسب ويشتم فيه، مما سيضر ضررًا كبيرًا صورته الجديدة كفنان

داخل الحدود التي أُقامها السوق بشكل مفاجئ وسريع. ينجح ويجز في مسعاه على حساب خصومة كبيرة مع مجموعة "راب أور داي"، التي دخلت هي نفسها بعد ذلك في السوق لتتمأسس وتضع قواعد جديدة من ضمنها عدم التجاوز في الألفاظ أو السباب.

مواقف أخرى أيضًا تدل على هذا التوجه في إعادة الحسابات لتتكيف مع انتشار الراب (أو التراب بمعنى أدق) بين قطاعات أوسع، مثل اعتراض مروان بابلو في فيديو لايف شهير على نشر الأغنية التي سجلها مع المنتج مولوتوف، وتصريحه بشكل مباشر أنه كان ليصدرها دون الشتيمة التي حاول أن يبررها بأنه كان يرتجل الكلمات المُسجلة "فري ستايل".

***

حاول النجوم الأكثر جماهيرية في الفرز الجديد مثل أبيوسف وويجز ومروان موسى وعفروتو الالتفاف حول هذا التنميط التجاري، ومحاولة استعادة صورة مغني الراب الأصيل والخشن الخارج عن الأعراف، والذي يعبر فعلاً عن حقيقة الحياة اليومية، في محاولة لجذب المستمعين القدامى وضخ الدم في المشهد الحالي البلاستيكي والمقولب بشكل واضح (النموذج الأقصى لهذا التنميط هو تراك لبوت (روبوت) يقلد المغني ترافس سكوت نجح في قوائم الاستماع بعنوان "كاني دوب مان" العام الماضي) فقاموا مؤخرًا بعمل دسات جماعية تنابذوا فيها بين بعضهم ومع آخرين. في أغلب الظن هذه المعركة الغنائية مُدبرة ومتفق عليها، لكن بأي حال يبدو هزالها واضحًا مقارنة مع المحتوى السابق على هذه المرحلة حتى منهم هم أنفسهم. فهم يحاولون فيها الظهور كمن يخرق قواعد السوق والتسويق ليفشي ما في قلبه، لكن لا أحد منهم خرق بالفعل الحدود المرسومة. إلا في بعض المواضع البسيطة وإيماءة العودة المحدودة والسريعة للشكل الأقدم والأقل شعبية للراب.

ظهور سوق للأدب كانت له فوائد مأسسة وترسيخ أعراف يُفترض فيها الوضوح، زادت بسببها عادة القراءة وشراء الكتب، وزاد حضور القرّاء وتبلوروا في كتل لها تأثير واضح

إذن؟

ظهور سوق للأدب كانت له فوائد مأسسة وترسيخ أعراف يُفترض فيها الوضوح، زادت بسببها عادة القراءة وشراء الكتب بشكل ملحوظ، وزاد حضور القرّاء وتبلوروا في كتل كبيرة لها تأثير واضح في التوجهات السوقية. وفي الموسيقى ساعد دخول السوق في خلق مستقبلاً مهنيًا فنيًا لشباب يريد أن يعبر عن نفسه بتلك الطريقة، وأتاح لشباب أكثر فرصة أن يوجهوا طاقاتهم لمناحي إبداعية وفنية. لكن جلب السوق معه أيضًا في الحالتين شروطًا ومتطلبات تبتعد قليلاً أو كثيرًا عن القيم الفنيّة وحرية الإبداع. فمستوى ما يُقرأ ويُسمع بشكل موسع مكرر ومقولب وغير نقدي ولا تجريبي. ربما يكون هذا هو طبيعة الحال في كل الأوقات وكل الأماكن، لكن ينبغي التنبه له كي لا يكون التفاؤل أعمى وسطحي. فالأمر ليس مفاضلة بين حضور السوق أو عدمه، لأنه أمرًا واقعًا لا خيار فيه، بل يكون بعدم الاستسلام التام له، ومناوئته وخلق هوامش مؤثرة داخله تصارع روافده الرئيسية باستمرار. وهو احتياجًا أساسيا وفرصة متاحة معًا في دول طرَفية في مجملها داخل السوق الكلي العالمي.

لماذا نصبح انتقائيين في صداقاتنا مع التقدم في العمر؟

عبد الهادي محمد عبد الهادي

اسألوا الشمبانزي!

عندما يتقدم البشر في العمر، يميلون إلى تفضيلِ الدوائر الصغيرة من الصداقات القائمة بالفعلِ، بدلاً عن البحث عن صداقات جديدة، ويميلون أيضًا إلى العلاقات الإيجابية أكثر من ميلهم لتلك العلاقات التي يمكن أن تسبب لهم التوتر أو الصراع.

كان يُعتقد أن البشر وحدهم من ينفردون بهذه السلوكيات، ولكن اتضح أن الشمبانزي أيضًا، وهو من أقرب أقربائنا الأحياء، لديهم نفس هذه السمات والميول، ويقول علماء إن هذه المعلومات يمكن أن تساعدنا في فهم بيولوجيا الشيخوخة، بخاصة مع زيادة متوسط عمر الإنسان، وزيادة أعداد المسنين في العالم، وكذلك، فهم السلوك البشري في هذه المرحلة من أجل الوصول لأفضل الطرق الممكنة للتعامل مع المسنين.

نُشرت نتائج الدراسة التي مولتها جزئيًّا مؤسسة العلوم الوطنية الأمريكية، في مجلة العلوم- Science – وشارك فيها فريق من علماء النفس وعلماء الرئيسيات وباحثون في جامعة هارفارد.

واعتمدت الدراسة على ٧٨٠٠٠ ساعة من

الملاحظات التي تمت بين عامي ١٩٩٥ و٢٠١٦. درس الباحثون التفاعلات الاجتماعية لـ ٢١ من ذكور الشمبانزي الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٥٨ عامًا ويعيشون في حديقة كيبالي الوطنية بأوغندا، ودرس ذكور الشمبانزي فقط، لأن الذكور وفق دراسات سابقة يظهرون روابط اجتماعية أقوى، وتتكرر تفاعلاتهم الاجتماعية بمعدلات أكبر من تكرارها لدى الإناث.

كشفت النتائج عما يُعتقد أنه الدليل الأول على أن الحيوانات غير البشرية تختار بنشاط من تتعامل معهم مع تقدمهم في العمر، فبعد تحليل البيانات وجد العلماء أن الشمبانزي أظهر الكثير من نفس سلوك الشيخوخة الذي يظهره البشر، على سبيل المثال، تفضل ذكور الشمبانزي الأكبر سنًا قضاء المزيد من الوقت مع الأقران الذين طوروا معهم صداقات متبادلة معهم على مر السنين، بينما كان لدى الشمبانزي الأصغر سنًا، علاقات أكثر من جانب واحد، وتتكرر كثيرا محاولاتهم في بناء صداقات جديدة.

وأن الذكور الأكبر سنًا يفضلون قضاء وقت أطول في التفاعل مع أصدقائهم المسنين، ومثلهم مثل أقرانهم من البشر الأكبر سنًا، يبحثون عن بعض الهدوء والسكينة، كما أظهرت الدراسة، أن ذكور الشمبانزي أظهرت تحولاً من العلاقات السلبية إلى العلاقات الإيجابية عندما وصلوا إلى سنوات الشيخوخة.

تقول ريبيكا فيريل، مديرة البرامج في قسم العلوم السلوكية والمعرفية في مؤسسة العلوم الوطنية الأمريكية «هذه النتائج يمكن الاستفادة منها في فهم ومعالجة بعض أسئلة حول الشيخوخة والسلوك لدى الرئيسيات.. وعلى الرغم من أن البشر قد يسلكون سلوكًا معقدًا إلى أقصى الحدود أحيانًا، فإن المقارنات مع الأنواع القريبة الأخرى وطويلة العمر، توفر سياقًا لا يقدر بثمن لفهم السلوك البشري وتطور تاريخ حياة الإنسان».

أرسطو لا يزال معاصرًا

فهو يذكرنا في كتابه «الأخلاق النيقوماخية» أن الصداقة، أو المحبة philia، هي أحد صور الحب، لذلك لا يجوز معاملتها باستهانة، ولا يمكن تحقيقها بسهولة، فهي إحدى الحاجات الأشد ضرورة للحياة، لأنه «لا أحد يقبل أن يعيش بلا أصدقاء حتى لو توفرت لديه كل الخيرات. ويؤكد على أنها ليست فقط ضرورية، ولكنها فوق ذلك جميلة وشريفة وأنها ضرب من ضروب الفضيلة، فبحكم الفطرة يظهر الحب كإحساس في قلب الكائن الذي يلد نحو الكائن الذي ولده، ولا يوجد هذا الإحساس فقط بين الناس، بل يوجد أيضًا بين الطيور والحيوانات التي يحب بعضها بعضا حبا متبادلاً متى كانت من نوع واحد، ولكنه يظهر على الخصوص بين الناس. ويؤكد أيضًا على أن «كل الناس على وفاق في أن الأصدقاء هم الملاذ الوحيد الذي يمكننا الاعتصام به في البؤس وفي الشدائد المختلفة الأنواع، فحينما نكون شبانًا نطلب إلى الصداقة أن تعصمنا من الزلات بنصائحها، وحينما نكون في كل قوتنا نعتمد عليها لنتم بها بهاء أعمالنا، وحينما نصير شيوخًا نطلب إليها عنايتها ومساعدتها التي تقوم مقام نشاطنا حيث ضعف السن يجلب علينا كثيرًا من أنواع الخور.

يميز أرسطو في الصداقة بين ثلاثة أنواع: صداقة المنفعة أو المصلحة، صداقة اللذة أو المتعة، وصداقة الفضيلة، وهي أعلى مستوى من الصداقة «فالذين يحبون بعضهم بعضًا للمنفعة أو الفائدة التي بها يكون كل منهم للآخر، هم يتحابون لا لذواتهم بالضبط، ولكن من جهة أنهم يصيبون خيرًا ما أو كسبًا ما من علاقاتهم المتبادلة. والأمر كذلك أيضًا في حال أولئك الذين لا يتحابون إلا للذة، وبالنتيجة، متى أحب الإنسان بالفائدة أو للمنفعة، فإنه لا يطلب في الحقيقة إلا خيره الشخصي، ومتى أحب الإنسان بسبب اللذة أو المتعة، فهو لا يبغي في الواقع إلا هذه اللذة نفسها، وفي الحالتين، فإنه لا يحب من يحبه من أجل ما هو في الواقع، بل هو يحبه لمجرد كونه نافعًا وملائمًا. هذه الصداقات ليست حينئذ إلا صداقات عرضية ومؤقتة وقصيرة العمر.

يشدد أرسطو على ضرورة أن تتضمن الصداقة أكثر من مجرد المتعة أو المصلحة، لذلك لا توجد الصداقات الحقيقية والمستمرة إلا بين الذين ظلت نياتهم حسنة تجاه بعضهم البعض

تنقطع الصداقات من هذا النوع بغاية السهولة، لأن هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم أصدقاء، لا يلبثون طويلاً مشابهين لأنفسهم، ومتى صار هؤلاء الأصدقاء لا نافعين ولا ملائمين انقطع حبهم حالاً، لأن النافع أو المفيد لا ثبات له، بل هو يتغير من لحظة إلى أخرى على أتم وجه، وإذا انعدم السبب الذي صيرهم أصدقاء، انعدمت الصداقة أيضًا

بسرعة مع العلة التي كانت كونتها.

ترتبط صداقات المتعة بالسرور المشترك والمتبادل من ممارسة نشاط ما، وتتكون صداقات المصلحة حين يخدم شخصان أحدهما مصالح الآخر. يندرج الأصدقاء الذين يستمتعون معًا بلعب كرة القدم أو مشاهدة أفلام الرعب مثلاً، تحت فئة صداقات المتعة واللذة. أما الزملاء أو الشركاء الذين يتفقون معا على نحو جيد في العمل، لكنهم نادرًا ما يتفقون في غيره من الأمور، فيندرجون تحت فئة صداقات المنفعة أو المصلحة. لذلك فصداقات المتعة أكثر شيوعًا في مرحلة الشباب، وصداقات المصلحة أكثر شيوعًا عندما نتقدم في السن.

اللذة وحدها يظهر أنها هي التي توحي صداقات الفتيان، فإنهم لا يعيشون إلا في الشهوة ويسعون على الخصوص إلى اللذة بل حتى لذة الساعة التي هم فيها، ومع تقدم السنين تتغير اللذات وتصير غير ما كانت بالمرة، لهذا يعقد الشبان علاقاتهم بغاية السرعة، وينقضونها بسرعة لا تقل عن الأولى. إن الصداقة تنحل مع اللذة التي كانت ولدتها، فتتغير اللذة سرعان ما يكون. إن الفتيان ميالون للعشق، والعشق في الأغلب لا يتولد إلا تحت سلطان الشهوة واللذة، لذلك تراهم يحبون بغاية السرعة ويقطعون ما وصلوا من حبهم بغاية السرعة أيضًا، إنهم يتغيرون في أذواقهم عشرين مرة في يوم واحد، لكن هذا لا يمنع من أنهم يريدون أن يقضوا كل الأيام مع من يحبونه ويعيشوا إلى الأبد لأنه هكذا تحصل الصداقة وهكذا تفهم في الشباب.

متى أحب الإنسان بالفائدة أو للمنفعة، فإنه لا يطلب في الحقيقة إلا خيره الشخصي، ومتى أحب الإنسان بسبب اللذة أو المتعة، فهو لا يبغي في الواقع إلا هذه اللذة نفسها

يشدد أرسطو على ضرورة أن تتضمن الصداقة الحقيقية أكثر من مجرد المتعة أو المصلحة

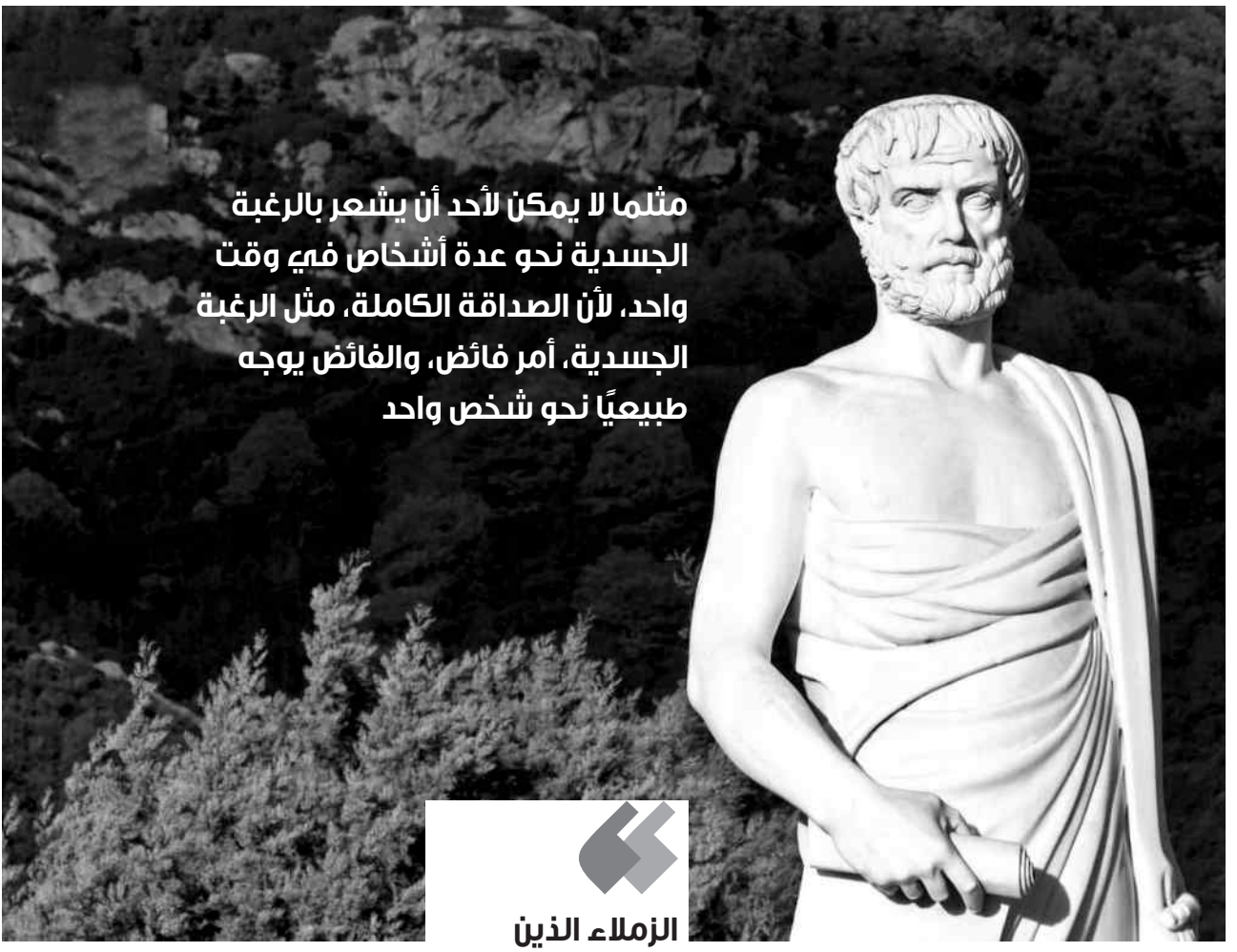

مثلما لا يمكن لأحد أن يشعر بالرغبة الجسدية نحو عدة أشخاص في وقت واحد، لأن الصداقة الكاملة، مثل الرغبة الجسدية، أمر فائض، والفائض يوجه طبيعيًا نحو شخص واحد

المتبادلة، لذلك لا توجد الصداقات الحقيقية والمستمرة إلا بين هؤلاء الذين ظلت نياتهم الحسنة تجاه بعضهم البعض ثابتة أمام اختبارات الزمن. والأرجح أن هذا النوع من الصداقات نادر، نظرًا لندرة هؤلاء الأشخاص الطيبين، كما أنه يحتاج إلى الوقت أيضًا، ليعتاد بعضهم على الآخر، مثلما يقول المثل، لن تعرف فلانًا إلا بعد أن تتقاسما معا العيش والملح، ولن يتقبل أحدهما الآخر إلا بعد أن يظهر أحدهما الحب للآخر، ويكتسبا ثقة أحدهما الآخر.

الصداقة على هذا النحو، يظهر أنها توجد على الخصوص في الناس المسنين فالشيخوخة لا تطلب بعد ما هو ملائم، بل تطلب ما هو نافع ليس غير، يقول أرسطو، وهذا هو أيضًا عيب هؤلاء الرجال الذين هم في كل قوة العمر وهؤلاء الفتيان الذين لا يقصدون إلا إلى منفعتهم الشخصية، إن الصديقين من هذا القبيل ليس من شأنهما عادة أن يعيشا معًا، ولا يجدان أية حاجة إلى المعاشرة، عدا تلك اللحظات التي يرضي فيها كلاهما منفعته، ولا يرضى كلاهما عن الآخر، إلا بقدر ما يكون لهما

الزملاء الذين يتفقون معا في العمل، لكنهم نادرًا ما يتفقون في غيره من الأمور، يندرجون تحت فئة صداقات المنفعة أو المصلحة. لذلك فصداقات المتعة أكثر شيوعًا في مرحلة الشباب

من الأمل في أن يجز أحدهما إلى نفسه من الآخر فائدة ما.

ويذكرنا أرسطو أن الأصدقاء الحقيقيين يعتبرون بعضهم بعضا أحباء، وهو شرط غائب تمامًا في صداقات المصلحة أو المتعة، وتأكيدًا على هذه النقطة، يضع الصداقة الحقيقية في مرتبة تضاهي مرتبة الحب والرغبة (eros) ويزعم أنه ليس بإمكان أحد أن يصادق كثيرين، مثلما لا يمكن لأحد أن يشعر بالرغبة الجسدية نحو عدة أشخاص في وقت واحد، لأن الصداقة الكاملة، مثل الرغبة الجسدية، أمر فائض، والفائض يوجه طبيعيًا نحو شخص واحد.

التجارة العادلة.. أزمة الصناعات التقليدية وسبل الإنقاذ الحقيقي

منى السيد

الصناعات التقليدية ومنها الحرف اليدوية تاريخ تراثي وهوية وقطاع اقتصادي مهم لأي دولة. ليست فقط كذلك، فهي أيضًا فن وشغف لكل من يعمل بها ومن يقتنيها. الحرفة اليدوية منتج له روح يعبر عن تاريخ صانعه وحياته، بها ما بها من أنفاس وإحساس وفكر الصانع مما يجعل لها خصوصية. وتسهم الحرف كذلك بدور كبير في التشغيل على مستوى جغرافي واسع لانتشارها في معظم المدن والقرى المصرية ولا يتطلب العمل بها مستوى تعليميًا عاليًا كما أن الاستثمار بها غير مكلف مقارنة بصناعات وقطاعات أخرى. هذا ويسهم هذا الدور التشغيلي في توظيف طبقات شعبية مختلفة لتمتد لجميع الأعراق الأكثر تهميشًا في الصحراء والمجتمعات القبلية من سيناء شرقًا لسيوة غربًا مرورًا بالصحراء الشرقية والغربية امتدادًا لمطروح شمالاً والنوبة جنوبًا.

الحرف المصرية وتنوعها وما اندثر منها

تحتل الحرف اليدوية والصناعات التقليدية في مصر مساحة كبيرة تجعلها دولة غنية جدًا في هذه الفنون، وعلى الرغم من اندثار الكثير من الحرف، فلا زال الحرفي المصري يتميز في حرف مثل الخيامية، والحفر على الرخام وفنون التطعيم بالصدف والعظم، وصياغة الفضة والذهب والنقش على النحاس والنحت في الحجر وتعشيق والحفر على الأخشاب والزجاج المنفوخ، وكذلك فنون الخط العربي والكليم والسجاد والجبلان والمنسوجات بالإضافة إلى فنون الخزف والفخار والتطريز بأنواعه من موتيفات وتكنيك متميز لكل منطقة وغيرها. وعلى الرغم من استمرار ذلك التراث من الحرف، تعرضت الكثير من الحرف القديمة المتميزة في مصر إلى الاندثار، مثل صناعة الحرير بأخميم سوهاج ومنها المهددة بشدة

بالاندثار مثل صناعة الحصر والسلال، صناعة الطرابيش، الأزياء التقليدية وصناعة السبح والنعال.

نبذة عن تاريخ الحرف بمصر

يرجع تاريخ نشأة الحرف إلى نشأة الجنس البشري منذ بدأ الإنسان في صناعة احتياجاته من أدوات صيد وفؤوس والتماثيل النحتية. وفي مصر تطورت في عصر الدولة المصرية القديمة لتشمل صناعة ورق البردي والأواني الفخارية وخرط الخشب، ثم تشير الآثار إلى بروز صناعة النسيج والنجارة وتطور صناعة الأثاث الفخم في عهد الدولة الحديثة. توالت بعد ذلك على مصر موجات استعمارية من الفرس والإغريق ثم الرومان أثرت في تطور الحرف، حتى جاء الفتح العربي لمصر حيث كان الأقباط ينتجون معظم الحرف آنذاك، واستمر ذلك زمنًا طويلاً حتى مع دخول الفن الإسلامي وتطوره حتى أصبح له شخصيته المستقلة.

هذا وقد انتعشت الحرف التقليدية في ظل الدولتين الفاطمية والأيوبية، لتصل إلى قمة ازدهارها في العصر المملوكي (١٢٥٠ – ١٥١٧) لسيطرة مصر على طريق هام للتجارة بين الشرق وأوروبا. ظهر نظام الطوائف الحرفية في مصر تحت مظلة الدولة الفاطمية والذي كان سببًا في نجاح وتنظيم الكثير من الحرف التي سادت في ذلك الوقت. وتتشابه إلى حد كبير الطوائف مع النقابات المهنية في العصر الحديث وقد وضعت نظامًا للتدريب والتلمذة على المهنة يتدرج فيه الحرفي بدايةً من سن صغيرة كالعاشرة. يبدأ كصبي ثم عريف ليصبح أسطى ومعلم ثم شيخًا. ووضعت الطوائف نظام للجودة والتفتيش على الحرفيين والورش لتطبيقه بدقة. وأصبح لكل حرفة دستورها من العادات والتقاليد الموروثة. وقد امتد هذا النظام إلى العصور الأيوبي، المملوكي والعثماني لتقسم القاهرة إلى طوائف حرفية تسكن مكانًا واحدًا فظهرت أحياء مثل حي النحاسين، والمغربلين، والفخارين والصاغة وتركز في القاهرة خصوصًا عدد كبير من الحرفيين في مناطق الجمالية، الدرب الأحمر، السيدة زينب والخليفة. كما تخصصت بعض القرى في حرف بعينها مثل كفر الحُصر بالشرقية وقرية البلاص بقنا.

ومع انتقال السلطة إلى العثمانيين تدهورت الحرف تدهورًا كبيرًا، وكما أحصى لنا المؤرخ "ابن إياس" فإن عدد الحرف اليدوية التي كانت مزدهرة في مصر المحروسة قبل احتلال العثمانيين لها عام ١٥١٧م بخمسين حرفة، تعرض أغلبها للانهيار حين نقل السلطان العثماني سليم الأول أكثر من خمسمئة حرفي إلى إسطنبول لينشئوا في تركيا مثل هذه الحرف ولم يعد معظمهم إلا بعد ثلاث سنوات. واستمر هذا التدهور حتى نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، واحتاجت مصر قرونًا لتسترد عافيتها الإبداعية على أيدي أجيال جديدة بعد نقل شيوخ الصنعة والمبدعين منها.

شهدت بدايات القرن التاسع عشر تولى محمد على حكم مصر واتجاهه لبناء الدولة الحديثة، ثم عصر الخديو إسماعيل الذي آمل أن تصبح مصر قطعة من أوروبا، لتتدهور الحرف تدهورًا جديدًا لتبتعد شيئًا فشيئًا عن الفن التقليدي. فلم يعد هناك احتياج لأسقف مزخرفة ولا إلى مشربية ولا أبواب ذات تعشيقات ولا التطعيم أو الجبس المعشق أو تكفيت النحاس أو الزجاج المنفوخ وغيرها، فتم الاستغناء عن الكثير من مبدعي الفنون والحرف. ومع دخول الاحتلال البريطاني في نهاية القرن التاسع عشر تعمق هذا التدهور ليتحول من بقي من الأسطوات الحرفيين للآثار للسوق السياحي الذي تطلب تحويل المنتج الحرفي إلى قطع تذكارية صغيرة جاعلاً الاهتمام بآثار الكم أهم من الكيف ليصبح الحرفي أقرب إلى "العامل" منه إلى الفنان.

كان لكل حرفة دستورها من العادات والتقاليد الموروثة، وقسمت القاهرة إلى طوائف حرفية، فظهرت أحياء النحاسين، المغربلين، الفخارين والصاغة، وتخصصت بعض القرى في حرف بعينها مثل كفر الحُصر وقرية البلاص

أدى هذا التدهور تاريخيًا إلى خطر اندثار الكثير من الحرف والفنون مما دفع بعض الناشطين إلى إنشاء المؤسسات والمشروعات مع نهاية القرن العشرين ليصبح هناك اتجاه قوي للحفاظ على ما تبقى من التراث المصري من الفنون والحرف التقليدية التي تعبر عن تاريخه ومهارته. أدت هذه الجهود إلى الحفاظ على ما تبقى من حرف يدوية بمصر ومحاولة إحياء البعض منها. وقد واجهت هذه الجهود الكثير من التحديات التي لا زلنا نتصدى لها للحفاظ على هذا التراث المصري من الاندثار وفتح أبواب التشغيل لعدد أكبر من العاملين بهذا المجال.

الحرف اليدوية والأزمة الحالية

بالإضافة إلى العوامل التاريخية التي سردناها سابقًا، تتجلى مجموعة أخرى من العوامل التي كان لها أثر سلبي على تلك الصناعات التاريخية، أولها الثورة الصناعية والحداثة التكنولوجية. والتي تسببت "بداية من القرن الماضي" في توفير البدائل الصناعية لتحل محل الحرف التي كانت تستخدم في الحياة اليومية للمجتمعات المحلية. الأمر الذي أثَّر على رواج تلك الحرف في القري والمحليات لتصبح أسواقها الجديدة في المدن الكبرى التي تشتري هذه الحرف لقيمتها وفنها.

هذا وقد ظل سوق الحرف بالمدن معتمدًا إلى حد كبير على الأجانب المُقيمين بمصر والسياحة وذلك لعدم الوعي الكافي لدى المصريين بما هي الحرف التقليدية المصرية وانحسار انطباع القطاع الأوسع منهم عن الحرف لكونها أشياء عفا عليها الزمن أو ما شاهدوه منها في العصور الحديثة مثل التريكو والكورشية. وقد وُجهت جهود كثيرة في العقدين الماضيين لزيادة الوعي لدى المصريين بقيمة الحرف اليدوية وإبداعاتها، كما عملت الكثير من المؤسسات التي ترعى الحرفيين على تطوير المنتجات الحرفية لتناسب تلك الأسواق الجديدة ومتطلباتها الحديثة. لكن وللأسف تراجع كل من البيع المحلي للمصريين والسوق السياحي في السنوات القليلة الماضية. فقد أدت العوامل الاقتصادية السلبية لتراجع احتياجات العميل للسلع الرفاهية وتقلص القوة الشرائية لتغطية الاحتياجات الأساسية فقط. كما أدي تراجع السياحة، والتي تمثل عميل هام للحرف التقليدية، لأسباب سياسية واقتصادية إلى فقد هذا السوق، ونرى مؤخرًا زيادة في هذا التراجع مع ظهور فيروس كورونا بسبب تعليق الرحلات الجوية والحد من السفر.

ويعتبر الوضع كارثي للغاية حاليًا بعد تداعيات الأزمة الصحية بسبب تفشي فيروس كورونا؛ لتتراجع الكثير من المبادرات الأهلية والتجارية لإحياء الحرف ودعم العاملين بها وذلك نتيجة ضعف التسويق على المستويين المحلي من خلال المتاجر والأسواق والمعارض وعلى المستوى الدولي من خلال قلة التصدير حيث يمر العالم بنفس الأزمة الاقتصادية وخاصة في ظل قرارات الإغلاق لمواجهة فيروس كورونا.

أدت كل تلك الأسباب إلى صراع للتمسك بالحرفة في إطار منافسة، أسواق متراجعة وانعدام وعي تستدعي اللجوء إلى طرق ومفاهيم جديدة للنهوض بها. كل ذلك أثر في توارث الحرفة وانتقالها إلى الأجيال الجديدة مما يجعل خطر اندثارها تهديد مستمر. خصوصًا وأن إتقان الحرف يحتاج إلى سنوات عديدة لاستيعاب التقنيات والزخارف الموروثة واكتساب المهارات الأساسية.

مفهوم التجارة العادلة كوسيلة للخروج من الأزمة

التجارة العادلة هي مفهوم دولي مغاير للتجارة التقليدية القائمة على المكسب والخسارة فقط. ليمتد ويشمل التأثير الاجتماعي الإيجابي لقطاعات مهمشة من المنتجين في مجالي الزراعة والحرف التقليدية. وهو مفهوم قائم على الشراكة، الحوار، الشفافية والاحترام بين كل أطراف سلسلة الإنتاج من حرفي/مزارع إلى التاجر ثم العميل أو المشتري. هذه المشاركة تضع في أولوياتها تنمية وحق الإنسان والبيئة بما لا يتعارض مع المكسب التجاري ومن ثم تحقيق التنمية المستدامة خاصة للفئات المهمشة من الحرفيين/المزارعين. تعمل مؤسسات التجارة العادلة حول العالم بهذه الرؤية لمحاربة الفقر والتمييز ولتصبح الإثبات العملي أن العدالة مُمكنه في بناء نموذج اقتصادي جديد للعالم.

نشأ مفهوم التجارة العادلة ببطء في نهاية الأربعينيات في الولايات المتحدة الأمريكية وصولاً إلى المملكة المتحدة في نهاية الخمسينيات ليتم افتتاح أول متجر وشركة استيراد متخصصين للتجارة العادلة في منتصف الستينيات. سُميت التجارة العادلة في البدايات باسم

التجارة البديلة ومع تطور المفهوم وامتداده لدول أخرى في الشمال المُستهلك والجنوب المُنتج، تم تغيير اسمه إلى التجارة العادلة ووضعت له مبادئ واضحة ومُلزمة كما نشأت منظمة أم لتشمل مؤسسات وشركات تنتهج هذا النهج من دول العالم. وقد أُنشئت هذه المنظمة المُسماة بـ "المنظمة الدولية للتجارة العادلة" عام ١٩٨٩ لتحافظ على تطوير المبادئ وتطبيقها في كل الدول بشكل موحد ولتعطي المصداقية لكل مؤسسة أو شركة تطلق على نفسها صفة التجارة العادلة عن طريق استخدام السمة (اللوجو) للمُنتج ليتعرف عليه العميل بسهولة.

مع انتقال السلطة إلى العثمانيين تدهورت الحرف، وكما أحصى ابن إياس كان عدد الحرف اليدوية التي كانت مزدهرة في مصر المحروسة قبل العثمانيين لها عام ٩١٧هـ خمسين حرفة، تعرضت للانهيار

تقوم التجارة العادلة على عشر مبادئ هي توفير فرص العمل للفقراء والمهمشين، الشفافية والمسؤولية، ممارسات التجارة العادلة، الدفع العادل، ضمان عدم ممارسة تشغيل الأطفال ومكافحة العمل القسري، الالتزام بعدم التمييز بين الجنسين وبتمكين المرأة اقتصاديًا، وتوفير ظروف وبيئة عمل مناسبة وجيدة، توفير بناء القدرات، تعزيز ونشر مفهوم التجارة العادلة وأخيرًا احترام البيئة.

ووفقًا لبيانات المنظمة الدولية فقد أثرت التجارة العادلة حتى الآن في حياة مليون شخص ٥٤٪ منهم من النساء وذلك في ٧٥ دولة ومن خلال ٣٥٥ شركة ومؤسسة تجارة عادلة تباع منتجاتهم الحرفية والزراعية في الآلاف المتاجر المتخصصة حول العالم. ويمتد هذا التأثير ليشمل ليس فقط الدعم الاقتصادي من خلال الدخل العادل والمستدام للعاملين تحت مبادئ التجارة العادلة، بل أيضًا الدعم الاجتماعي وبناء قدراتهم والحفاظ على حقوقهم كأشخاص مؤثرة فيمن حولهم من مجتمع وبيئة أفضل. كما انعكس هذا التأثير ليحافظ على هوية الشعوب من خلال الحفاظ على موروثاتهم وتراثهم التاريخي.

بدأت أول شركة اجتماعية (Fair Trade Egypt) في مصر اهتمامها بالتجارة العادلة في بداية الالفية الثانية وعملت على تطبيقها حتى حازت على عضوية المنظمة الدولية عام ٢٠٠٨ لتصبح أول منظمة وشبكة للحرفيين مُعترف بها دوليًا في مصر. تؤثر فير تريد إيجبت حاليًا في حياة أكثر من ٢٠٠٠ حرفي ٩٠٪ منهم من النساء منتشرين في ١٣ محافظة في مصر يعملون بشكل ثابت ودخل مستدام لآثار الكثير من الحرف التراثية بشكل عصري. هذا وتُباع الكثير من تلك المنتجات الحرفية المصرية داخل وخارج مصر من خلال متاجرها المتخصصة والتصدير والبيع الإلكتروني. تضم تلك الحرف النسيج اليدوي، والنحاس، والأخشاب، والزجاج المنفوخ، والخزف والفخار، والمنتجات الجلدية، والخوص بجميع أنواعه من

فيومي، ونوبي إلى مرسى علم وشلاتين. كما تبيع المنظمة جميع أنواع التطريز اليدوي التقليدي مثل التَّللي، والمنسج، والفلاحي، والتطريز السيناوي والسيوي. إضافة إلى حرف أكثر استحداثًا تعمل على الحفاظ على البيئة وإدرار الدخل المستدام على مُنتجيها مثل الورق المعاد تدويره ومنتجات من قصاقيص القماش، وإعادة استخدام وتشكيل قرن الجاموس عوضًا عن حرقه بالمجازر والإضرار بالبيئة.

هذا وكونها منظمة تجارة عادلة تهتم فير تريد إيجبت بالتأثير الاجتماعي والصحي لشبكة الحرفيين العاملين معها بشكل مستدام. وعليه فقد قدمت العديد من التدخلات لتنمية الكثير منهم بشكل شبه يومي مؤثرة في حياتهم. فعلى سبيل المثال قامت بمحو أمية المئات من الحرفيين وأسرهم، كما عالجت مئات آخرين بالدعم الصحي خاصة للعيون وتوفير النظارات الطبية والتدخل الجراحي عند اللزوم.

نجاح فير تريد إيجبت التجاري بالإضافة إلى تأثيرها للحفاظ على التراث والتأثير الاجتماعي لحرفييها ألهم العشرات من التجار الناشئين لينتهجوا نفس النهج. مما سيكون له أكبر الأثر في ظهور منظمات تجارة عادلة عديدة بمصر ليتضاعف الأثر والدعم لحرفيين آخرين على نطاق أوسع.

فرص وبدائل للاستمرار

كل ما سبق من أزمات لا يعني بالضرورة أن الحكم قد صدر بالإعدام على الحرف اليدوية، على العكس تمامًا فالحرف اليدوية لا يزال أمامها الكثير من الفرص التي من ضمنها إلا تقتصر صناعة الحرف على تجليات الإبداع التاريخي فقط، بل تمتد لتقدم فرص للتطور على أيدي الحرفيين المهرة والتجار العادلين الدارسين للسوق وتطوره بصورة مستمرة وخاصة في آثار ما تحتاجه الحياة والأسواق العصرية الحديثة. ولكن في إطار هذا التطوير من المهم الحفاظ على العناصر الأصيلة والجوهرية للحرفة للحفاظ على المأثورات التاريخية وألا يتم التخلي عن الروح والذاتية الثقافية للشعب المصري. وعليه يركز العمل على دمج استخدام الأدوات والرموز التقليدية التي يرجع بعضها إلى عصر المصريين القدماء مع التكنولوجيا والاستخدامات العصرية الحديثة.

كما يعتبر استمرار الناشطين في دفع مؤسسات ومشاريع دعم الترويج للحرف اليدوية التقليدية ودعم فنانيها وظهور منظمات جديدة للتجارة العادلة من الفرص المهمة التي تعطي الكثير من الأمل في استمرار الحرف والحفاظ على تاريخها وتطوير مُنتجيها.

الجهود التي بُذلت حتى الآن في زيادة وعي المصريين بالحرف اليدوية مع تطور وسائل الاتصال وشبكات التواصل الاجتماعية يمثلان إمكانية هائلة لزيادة وسرعة انتشار هذا الوعي ليتضاعف في مدة زمنية قصيرة مؤثرًا بشكل إيجابي في فتح أسواق جديدة.

أثرت التجارة العادلة حتى الآن في حياة مليون شخص ٥٤٪ منهم من النساء، في ٧٥ دولة ومن خلال ٣٥٥ شركة ومؤسسة تجارة عادلة تباع منتجاتهم الحرفية والزراعية في آلاف المتاجر

الخلاصة

لطالما ظلت صناعة الحرف اليدوية لعقود طويلة القوة الآن تاجية الثانية بعد الزراعة في مصر ومثلت داعم كبير لاقتصادها ولتشغيل العديد من مواطنيها. ولكن تضرر هذا القطاع الحيوي للصناعات الحرفية خسارة وطنية كبيرة؛ فهو أحد أبرز أعمدة الهوية المصرية والتراث الثقافي كما أنه ذو تأثير اقتصادي لفئات مهمشة كثيرة وداعم للاقتصاد الوطني. وعليه يمثل إنقاذ هذا القطاع مهمة اقتصادية، إنسانية واجتماعية على أعلى مستوى يتكاتف فيها الكثير من المؤسسات ومنظمات التجارة العادلة الناشئة. جهود تتباين بين تطوير المنتجات الحرفية ذاتها لتناسب الأسواق العصرية دون فقد شخصيتها التراثية، وبين تطوير وبناء قدرات الحرفيين، وأخيرًا وليس آخرًا فتح أسواق مستدامة لها من خلال زيادة الوعي والانتشار عند قطاع أوسع من المجتمع.

المراجع

الحرف التقليدية المصرية ونظام الطوائف، المحور الخامس: تعليم الفنون والحفاظ على الحرف التقليدية وتنميتها. إعداد: هبه الله حمدي محمود عبد المطلب، مدرس مساعد، كلية الفنون الجميلة، جامعة المنصورة.

ثـــمـــــار
من بسَاتيـــن الجـــوع

محمد عبد النبي

ثقافـــــات

ثِمار من بساتين الجوع

محمد عبد النبي

رسمَ الإنسان الأوّل طعامه منذ أن عرف الصيد والألوان وجدران الكهوف، رسم رحلة الحصول على هذا الطعام الحي ومخاطرها الجسيمة، لكنَّ الشَبح المهدد والأكثر إفزاعًا من الدواب البرية لم يجد سبيلًا لرسمه؛ الجوع، رُبمَّا لأنه مرادف العَدم والفراغ. لكنه مع الوقت وجد سبيله للتَعبير بالكلمة ثم عبر الفن الحديث بتصوير الإنسان الجائع.

من بين أول ما يتبادر للذهن في هذا لوحة الفنان المَصري الكبير عبد الهادي الجزار (١٩٢٥-١٩٦٦)، والتي تختلف المصادر حول عنوانها، فمرة هي لوحة الجوع، ومرَّة الوجبة، أو مسرح الحياة، أو الكورس الشعبي، ولعلها العمل الفني الوحيد، في تاريخ الفن التشكيلي المصري، الذي ألقى بمبدعه في السجن. لم يُسجن وحده، بل مع أستاذه الفنان حسين يوسف أمين، بتهمة العَيب في الذات المَلكية، حين ظهرت اللوحة للمرة الأولى في المعرض الدولي للفنون سنة ١٩٤٩، فأثارت استياء بعض السياسين والمعلقين، وتذهب بعض الروايات إلى أنه أهداها رمزيًا إلى الملك فاروق بعبارة: (هؤلاء هم رعاياك يا مولاي!).

ولم يُفرَج عن الجزَّار إلا بعد تدخل بعض الفنانين المرموقين آنذاك مثل محمود سعيد ومحمد ناجي.

تصوّر لوحته مجموعة من النساء المختلفات من حيث المظهر، ففيهن العَجوز المستندة على عُكَاز وفيهن المرتدية البُرقع والملاءة ومعها طفلتها الصغيرة، وإحداهن عارية تمامًا تخفي عورتها بكفيها وتبدو كأنها جارية معروضة في سوق النخاسين، وأخريات طويلات الشَعر دميمات أقرب إلى مجذوبات ودوريشات، ما يعكس أبرز سِمات الجزَّار المعهودة من الحس الشَعبي الصوفي شَديد المصرية الذي أصبحَ علامة على فنه. إنهن واقفات في طابور مستوٍ جنبًا إلى جنب، وأمامهن أطباق وإبريق من الفخَّار، كأنهن في انتظار الوَجبة أو الصَدقة أو الطعام.

ليس غريبًا أن الجزار درس الطبّ لفترة، قبل أن يهجره ويتفرّغ للفن، واطلع بلا شك على الحالة الصحية المتدهورة لغالبية الشعب المصري خلال أربعينيات القرن العشرين، والتي شهدت ذورتها في تفشي وباء الكوليرا في أسوان وبعض

مدن الصعيد، سنة ١٩٤٤، وشهدت الفترة نفسها نقصًا حادًا في الغذاء نظرًا إلى مضاعفة حصص الجنود البريطانيين من المؤونة خلال خوضهم الحرب العالمية الثانية، واستخدمت الحكومة القوة العسكرية لفرض إجراءات العَزل الصارمة لحصر الوباء في إطار الصعيد وأغلقت طرق السفر
وشهدت تلك المناطق مواجهات مباشرة بين الأهالي وقوات الحكومة.

نستطيع أن نتخيّل إذَن من أين أتى طابور جائعات عبد الهادي الجزَّار، غير أن الفن الذي يثبت اللحظة ويفضح تناقضاتها ويضعها في أيقونات تتجاوز الزمن والمكان يبقى شاهدًا ونذيرًا. لا يزال طابور الجائعات ماثلًا أمامَ أعيننا، سواء في لوحة الجزَّار أو في نشرات الأخبار، ولم تزل الآنية الفارغة موضوعة أمامهم في اتهام صامت لهذا الواقع وأنظمته السياسية.

في جزء من مذكراته بعنوان الجَوع، يعرض الشاعر الكبير بيرم التونسي تجربته مع هذا الوحش، خلال عَيشه شِبه شريد في ليون بمنفاه الفرنسي، بعد أن تباعدَ وصول الشيكات من الصحيفة التي يكتب لها في القاهرة، حتى صار الشيك الأسبوعي يصل مرة كل شهر تقريبًا، كتب "وقد تناولتُ الطعام في هذا الأسبوع مرتين أو ثلاثًا. وقبل الليلة التي أدوّن فيها هذه الكلمات رقدتُ بلا عشاء وفي مِثل تلك الحال يشعر الإنسان أن النوم يغني عن الطعام بعض الغَناء. فبقيت في الفراش أنظر إلى السماء المكفهرة ولا أعرف إن كان الوقت ضُحى أو مساء"(١)

ثم يشم روائح تسييح الزبدة وتحمير قطع البفتيك تنبعث إليه من شقق الجيران فيعرف أن النهار انتصف وحانت حصة الغداء، فَيخرج للتسكّع علّه يلتقي بعض طلاب العلم الشرقيين فيقرضونه أو يدعونه إلى شيء، أحدهم يدير وجهه منه، ويقابل آخرين فيسري بعض الدفء إلى يده من مصافحتهم ولا يرد بكلمة غير رد التحية. وفي الرابعة تضاء المصابيح وهو يواصل تسكعه: "وما هي التسلية التي يجدها مِن يجوع ثلاثة أيام إلى أن تحين ساعة النوم. كان مَنظر (المرقاز) [السُجق] والأجبان والخبز في الحوانيت أجمل وأشهى مِن منظر المجوهرات والفِراء والمنسوجات الفاخرة. لقد كنت أجد نفسي واقفًا أمام واجهة الحلواني أتفرج على الفطائر المنقوشة في ذهول ثم أنتبه وأحسب أن الناس تراني وتعلم حقيقة أمري فأنصرف خجلًا".

في جزء من مذكراته بعنوان الجَوع، يعرض الشاعر الكبير بيرم التونسي تجربته مع هذا الوحش، خلال عَيشه شِبه شريد في ليون بمنفاه الفرنسي، بعد أن تباعدَ وصول الشيكات من القاهرة

ثم يعمد إلى تحليل المراحل المختلفة للجوع: "للجوع ثلاثة أدوار:
الأول يشتهي فيه الجائع كل شيء حتَّى الحشائش وأوراق الشجر.
والثاني مغصٌ والتواء في الأمعاء.
والثالث غيبوبة وأحلام وهذيان".

ثم يوحي له الهذيان بأنَّ حشوة الفراش الطرية قد تصلح غذاء، أو أن يبيع بطّانيته، لكن الوقت تأخر، فينبش كل ركن في غرفته ويرفع الوسائد علَّه يعثر على كسرة خبز، وبحركة عنيفة يقلب الكنبة فيلمح تحتها بصلة، ولأنه لا يملك ما يشوي عليه البصلة يشعل النار في قاموس عربي فرنسي وديوان أبي العتاهية وأيضًا (الأدهى والأمر) عدة خطابات من الأصدقاء والأقارب، بينها خطابات مِن سيد درويش وعباس العقاد. ورغم ذلك وبعد أن صعدَ اللهب من الكانون المرتجَل، اكتشف أنَّ البصلة قد

سقطعت منذ أن بدأ اشتعال النار ولم ينضج منها إلا غلافها الخارجي، لكن على الأقل تدفأت الغرفة وسوف يساعده هذا على النوم من جديد.

هنا عينة صغيرة لقرصة الجوع الكافر التي طالت ولم تزل تطول ملايين الناس، أغلبهم لا تتوفّر لهم فرصة تسجيل تجاربهم، سواء كانوا سجناء أو في ظروف تشرد ومجاعة وفقر. وقد يقضي بعضهم نحبه جوعًا، وخاصة النساء والأطفال، ولا تتبقى منهم إلّا أرقام فقط في السجلات والتقارير، أرقام عارية من أية أحاسيس وخبرات حية وأفكار تفترس الجائع بنفس القسوة.

حكاية بيرم مع بصلته وأيام الجوع والتسكّع قريبة للغاية مِن أجواء رواية النرويجي كنوت هامسون، صاحب نوبل ١٩٢٠، بعنوان "جوع". هامسون الذي عمل في صباه لدى إسكافي، وادخر طويلاً لكي يطبع لنفسه قصيدة طويلة وقصة قصيرة، هو ابن الفلاحين البسطاء، الذي اشتغلَ حمالاً ومعلمًا وفي تعبيد الطرق وملاحظ مساحة وعاملاً زراعيًا ومُحصلاً وصحفيًا بالقطعَة، وحين سافر إلى أمريكا اشتغلَ في أقسى الأعمال كذلك في سهول داكوتا أو شوارع شيكاغو. لا يَخفى اعتماده، في روايته هذه، على فترة من شبابه قاسى فيها حرمانًا وفقرًا هائلين: "حدثَ ذلك خلال الأيام التي كنتُ أهيم فيها وأنا أتصوّر جوعًا في كريستيانا [الاسم القديم لمدينة أوسلو]..."(٢)

إنها حكاية كاتب شاب مُعدَم، يسكن غرفة على السطح، ويرتزق بكتابة مقالات هنا وهناك إذا تسنى له ذلك، ويرهن تباعًا جميع ممتلكاته حتَّى لم يبق معه مشط ولا كتاب يقرأه ، بل رهنَ صداره الصوفي الذي يقيه البرد والقلم الرصاص الذي يكتب به مقالاته، ويعاني البرد والجوع والوحشة ويلعن العالَم ويسائل الرب لمَ اختاره هو من بين جميع الناس ليعيش هذا العذاب. نتتبعه في جولات التسكع والتشرد ونرى من يلتقي بهم، وبعضهم أشد منه بؤسًا فيرأف هو بهم ويعطيهم ولو رهن شيئًا آخر. وكيف يحلم بروايته الفريدة التي ستغير مجرى حياته وكيف يقع في غرامِ إحدى السيدات بالرغم من كل ما يقاسيه، وصولاً إلى قراره بالرحيل بعيدًا عن المدينة التي أنهكته وجوَّعته، كَعامل على متن سفينة. بأثر رجعي نالَ هامسون الاعتَراف كأحد أوائل أقطاب تيار الوعي في الكتابة الأدبية، وبتأثيره العميق والواضح على بعض أهم وأشهر كتَّاب القرن العشرين في الغرب. لا تقدم روايته هذه الجوعَ بوصفه قضية إنسانية عامة، بل ترسم صورة للجوع الشخصي؛ ذلك الجوع الخاص المنطوي على نفسه في خجل وكبرياء، ويشتعل في أحشاء الفنان وقودًا لإلهامه ونضاله في مواجهة الحياة، راصدًا ما يطرأ على جسده من تغيرات بسبب الحرمان جنبًا إلى

جنب ما يعتري روحه من تلوث ولوثات.

للروائي المصري الراحل محمد البساطي رواية مُهمة تشترك في عنوانها وموضوعها مع رواية هامسون، لكن إذا كان جوع هامسون ألمًا جوانيًا شخصيًّا وله سَمت فني نبيل، فإن جوع البساطي عَلني وجماعي، ليس فقط لأنّ أبطاله أسرة ريفية فقيرة من زوجين وولدين، بل لأن هذه الأسرة نموذج معبر عن آلاف وربما ملايين غيرهم، في مصر وفي دول أخرى كثيرة، أصبح جوعهم اليومي أليفًا وداجنًا مثل ضيف مُقيم؛ جوع مُجرد من الفن والنبل الذي قد يضفيه عليه كاتب أو فنّان، بل مبتذل ووضيع ومخز، يكاد يكون فضيحة مرئية لا سبيل لمداراتها شأن الرقع في ثوب الفقير.

لا يجد سكينة وزغلول وولداهما الخبز الحاف ليأكلوه، هكذا بمنتهى البساطة، ومَهمة تدبير الخبز ولو بلا غموس تكاد تستحوذ على وعي سكينة تمامًا، مع فترات البطالة المتواصلة لزوجها المتسكع بلا هدف والميال للثرثرة مع بعض الطلبة على المقهى أو مساعدة الناس في الأفراح والمآتم. ثمة بيت كبير غير بعيد من بيتهم، بيت عائلة موسرة لها أبناء وبنات يعيشون في الحضر، بيت له أكثر من طابق وقطعة أرض خلاء حوله كأنما تصد عن أهله تطفل الفقراء المصطفين في بيوتهم غير بعيد، وهو ما تفعله سكينة بالفعل كلما وجدت باب البيت الكبير مفتوحًا، عسى أن يُنعموا عليها بشيء أو يطلبوا منها خدمة، لكنها لا تلقى غير الصَد، ولا نصيب لها هي وولدها من البيت الكبير إلّا النبش في مخلفاته.

في أحد أكثر مشاهد العمل قوة ودلالة يراقب سكينة وزغلول طقس (سفر الخزين)، وهو اليوم الذي يرسل فيه أهل الدار لأحد أولادهم المقيمين في المدينة خزين بيوتهم من خيرات الريف، وهي (فرجة) لا يجب أن تفوت الفقيرَين، إذ تتوقف سكينة عمَّا تفعل فورًا، وتنادي بسرعة على زوجها: "زغلول، الخزين يا زغلول"، تمامًا كما قد ينادي بعضنا بعضًا عند بداية بث برنامج تليفزيوني مهم أو مباراة حاسمة، وزغلول يأتي مهرولًا، ويقف مائلاً ليرى عربات النصف نقل الثلاث مصطفة أمام البيت الكبير، ويسحب رغيفين هما كل ما في الدار ليأكل وقد انفتحت نفسه، وتتساهل معه سكينة على غير عادتها، بل تدله على قطعة مخلل خيار مركونة على جنب ليتناولها مع الخبز، فيسرع ليأخذها ويجد معها فتات جُبن جاف فيأخذها أيضًا. يجلسان ويأكلان بأعينهما أجولة الحبوب وقفص البيض الملفوف في القش، وأقفاص الطيور وصفائح الجبن والعسل وقدور السمن والزبد، بينما يدور بينهما حوار حول أدق تفاصيل المكونات والمحتويات، وكيف يختلف ما يُرسَل للولد عمّا يرسل للبنتين. تعتريهما نشوة غلَّابة خلال المشاهدة، تقودهما تدريجيًا للتلامس والمداعبة، إذ يقول لها كلمة حلوة فتسقط رأسها على كتفه ويمد يده داخل جلبابها، وتتسلل يدها تحت جلبابه، وتمتدح فحولته بالإشارة إلى الخزين: (قال سمّان قال، ييجوا يشوفوا)(٣)، وسرعان ما يتساندان ويدخلان البيت.

مدهش تصوير هذا المشهد لحالة الشبع الوهمي أو استثارة الشهية بمجرد المشاهَدة، وضعٌ لا يختلف كثيرًا عن آلاف المتحلقين حول الوجبات الفقيرة والأرغفة الحزينة والغموس المُمل، يزدردون وأعينهم مُعلَّقة بشاشات ملونة تبث صورًا لكل ما لذَّ وطاب، في مسلسلات وبرامج وإعلانات، من مطعم ومَشرب وملبس، وصور لنجوم وعارضين من رجال نماذج للقوة والوسامة ونساء يُتهادين مثل الحوريات، وأماكن سكنى ذات مساحات خضراء فسيحة يكاد يهب نسيمها العليل من خلف الشاشات على المحبوسين في عُلب الإسمنت والطوب الأحمر. بالمشاهدة فقط، وباستمرار المشاهدة لما لا نهاية، يتلهون عن حرمانهم وجوعهم، ويتصبرون عليه حتّى إن أنكروا وجوهًا تشبههم وهي تظهر خَطْفًا في الإعلانات التي تستدر التبرعات وتحض على إطعام المسكين.

لا تقدم رواية كنوت هامسون الجوع بوصفه قضية إنسانية عامة، بل ترسم صورة للجوع الشخصي؛ ذلك الجوع الخاص المنطوي على نفسه في خجل وكبرياء، ويشتعل في أحشاء الفنان وقودًا لإلهامه

في قصة فنان جُوع، لفرانز كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤)، شكل آخر للجوع قد يُذكّرنا في جانب منه بالصَوم كعبادة ووسيلة للارتقاء الروحي، غير أنه هنا ليس خالص النية بل مشوب بارتباكات الفنان الذي قد يضحي حتى بجسده ليحظى بإعجاب الآخرين وتقديرهم لقدرات يرونها خارقة ويعرف هو أنها أقرب إلى عاهة أو إعاقة.

يحكي الرواي العليم من البداية كيف انحسرت أضواء المجد عن هذا الفن القديم، فن الجوع، إذ يوضع فنان الجوع في قفص ويُترك هناك مع القش لأربعين يومًا ليشاهده المتفرجون ويرون كيف يواصل العيش بلا طعام، مع وجود بعض المراقبين

الدائمين الذين كانوا يثيرون غيظَ الفنان لتراخيهم في مراقبته، بحيث يمكنه إذا شاء أن يختلس لقمة بسرعة، لكنه كان يحترم فنه ويستسخف فكرة أن يقطع صومه، وليثبت لهم إخلاصه كان يغني إذا ابتعد المراقبون في ركن ليلعبوا الورق فيتعجبون كيف له أن يغني وهو يأكل.

إذا كان الجوع هو عَرضه الأساسي فعروضه الجانبية المصاحبة تُرجح كفّة الفَن على كفّة التضحية بمعناها الروحي والديني، فهو يغني ويحكي لبعض زواره حكايات ويسمع منهم حكاياتهم ويمد من بين القضبان يده العَظمية ليلمسوها. إنه ليس استشهاديًا يريد أن يموت في لحظة واحدة ويُحدث دويًا ويثبت صورته في صفوف أصحاب القضايا السامية، بل هو فنان استعراضي من نوعية ما، ولعل جوعه الحقيقي ليس إلى الطعام بقدر ما هو إلى التواصل، عبر هذه اللعبة، مع الجمهور والناس. غير أن هدف التواصل يُحبط باستمرار، بسبب التشكيك فيه وإساءة فهمه، حتَّى في أوج مجده وقبل انحسار الضوء عنه، يظل محاصَرًا بالإهمال والريبة وإساءة الفهم إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، كومة عظام تتنفس تحت القش النتن وقد نسيه الجميع. قبل موته ينطق بكلمة أخيرة، حيث يُسر للمشرف على العرض بتناقضه الكبير وتمزقه بين أن رغبته الدائمة في أن ينال إعجابهم وبين إدركه لأن جوعه ليس بطولة واختيارًا بقدر ما كان قدرًا مفروضًا عليه: "لأنني لم أعثر على الطعام الذي أشتهيه، لو أني كنت عثرت عليه، صدقني، لما أحدثت ضجّة، ولأكلت منه حتَّى أشبع مثلك ومثل الباقين".(*)

لا تنحصر مأساة فنان الجوع في انفضاض الناس عن فنه، ولا في رفضهم أن يتركوه يواصل الجوع لما لا نهاية كما يشتهي وكما يستطيع، لكيلا يفسد فكرة العَرض وبهجة الختام، لكنَّ مأساته أيضًا في أنه لم يختر فنه، بل وجدَ نفسه مضطرًا إليه لعَدم عثوره على طعام يشتهيه. كأنه برفضه الطعام ينبذ كل ذلك العَرَض الإنساني المبتذل والمتواصل خارج قفصه، ويصنع من رفضه الصلبي عرضه الخاص، عرضًا لا يثير اهتمامًا حتى ولو قدم جسده قربانًا له. تبرز المفارقة مع نهاية القصة حيث سرعان ما يُدفَن وسط قشه العفن، وبعد أيام يُملأ قفصه بنمر فتي عفي يسحر ألباب المتفرجين بشهيته للطعام والحياة والحرية التي اكتنزها في جسده وإن كان أسيرًا. هذا ما يحتاج رواد السيرك رؤيته، القبول بأي غذاء والرغبة الإيجابية في الحياة ولو في قفص، التسامح مع الجانب الحيواني فيهم ومع الرضا والخنوع لجميع الأقفاص كذلك. أمَّا القديسون والشهداء وصائمو الدهر فلن ينالوا إلَّا نظرة عابرة، شفقة أو رهبة، وربما التشكيك في مقدار إخلاصهم وحقيقة نياتهم واحتمال أنهم مخدوعون.

كتب كافكا هذه القصة خلال السنتين الأخيرتين من حياته، بينما كان داءُ السُل يفتك به، ما جعله غير

قادرٍ على تناول أي طعام لفترات طويلة بسبب الآلام الشديدة في منطقة البلعوم، إلى درجة أنَّ التقرير الطبي بعد موته أرجع سبب الوفاة للجوع.

الأيقونة البصرية الأشهر والأجمل للصعلوك الذي يتميز بالطيبة والحرية وقدرة السخرية من الأغنياء والأقوياء ابتكرها فنان السينما الأهم شارلي شابلن، في شخصية شارلو الصعلوك. في مشهد من فيلمه (the Gold Rush) أو حُمَّى الذَهب (١٩٢٤)، ، يضطره الجوع إلى طبخ فردة حذائه. يتذوق ويقلّب ثم يرفع الفردة من الماء الساخن (الحساء؟) ويضعها على المائدة فيأخذ زميله البدين الغضوب الجزء الأعلى الممتلئ بالجِلد (اللحم؟) ويترك لشارلو النعل المسطح المغروس بالمسامير والرباط، لكنَّ شارلو يندمج في الأكل، بالشوكة والسكين كأنه يتناول دجاجة، إذ يمصمص المسامير كأنها عظام صغيرة للغاية، ويلف رباط الحذاء على الشوكة كأنه يأكل مكرونة إسباجيتي. جانبٌ من الكوميديا، في هذا المشهد، يتصل بلعبة (كأن) تلك تحديدًا، أي المسافة بين ما نتخيله (الدجاج، الإسباجيتي) وما نراه أمامنا (نَعل الحذاء، ورباط الحذاء)، مسافة يقوم شارلي الصعلوك بملئها بأدائه وتعبيرات وجهه الشاحب والهالات الداكنة أسفل عينيه، مسافة يسكنها ملايين المحرومين أيضًا، بين ما يُضطرون لأكله وما يحلمون به.

The Hunger Games (مبارايات الجوع)، ثلاثية روائية، للكاتبة الأمريكية سوزان كولينز، من نوع الخيال العلمي والدستوبيا الموجَّهة للشباب، حققت نجاحًا عالميا بعد تحويلها للسينما، وعُرض أولها سنة ٢٠١٢، بعد سنة واحدة فقط من موجة انتفاضات الربيع العربي التي طالبت بالخُبز والحرية من ضمن ما طالبت به. نشاهد في الجزء الأول كَيف انهزمت منذ سنوات عديدة انتفاضات شبيهة بها، وكيف حرصت الطبقة المنتصرة على تذكير المقهورين بانهزامها، بل وتحويل هذه الهزيمة إلى مناسبة قومية لإذلال الأجيال الجديدة من أبناء المنتفضين القدامى وأحفادهم، بأن يتم اختيار فتى وفتاة من كل مقاطعة، لخوض معركة مصيرية، يتقاتلون فيها حتى موتهم جميعًا ما عدا واحد هو الفائز الوحيد، في عَرض يُبث على الهواء مباشرةً لتسلية القلة المتخمة والمَحاطة برفاهية أسطورية. استعارة درامية، ببعض المباشَرة والمُبالَغة، لما يحدث بالفعل في عالمنا الراهن، حيث يتقاتل المحرومون على فرص العَمل والظهور كما يتقاتلون على أكياس المعونات الغذائية والدواء والماء. استعارة مبارايات الجوع ربما تجد لها انعكاسًا كذلك في برامج اكتشاف المواهب والتلاعب بهم، في مسابقات للرقص والغناء والطبخ وأكل الصراصير والعبور من حلقات النيران، فقط للحصول على عرض مُسل وإلقاء شيء من الفتات للفائز الأخير الوحيد الذي عليه أن يبقى ولو سارَ على جثث جميع مَن حوله من الجوعى.

للروائي المصري الراحل محمد البساطي رواية مُهمة تشترك في عنوانها وموضوعها مع رواية هامسون، لكن إذا كان جوع هامسون ألمًا جوانيًا شخصيًا وله سَمت فني نبيل، فإن جوع البساطي عَلني وجماعي

*

تظهر ثيمة الجوع بوضوح بين ثنايا أحداث فيلم كراكيب (١٩٨٩- بهجت قمر وعمر عبد العزيز)، حتى مع شارة البداية حيث تظهر أخبار صحف ورسوم كاريكتير عن أزمات الغذاء والتقشف وغلاء الأسعار.

بعد متابعة محاولات التلاعب على حياة الفقر والحرمان التي يعيشها كل من سيد (صلاح السعدني) وعلوية (آثار الحكيم)، ولو بالانتحار بعد

شراء بوليصة تأمين، يُرسَل سيد من طرف الوزارة التي يعمل موظفًا فيها إلى بور سعيد لحضور مؤتمر الإنسان والجوع في العالم الثالث. يستقبله مسؤول العلاقات العامة في ردهة الفندق ويأخذه بسرعة إلى غداء عمل للمؤتمر، وبسرعة ننتقل لمشهد يستغرق فيه ضيوف المؤتمر في الأكل والقَطع والنهش. بينما يكون سيد مضطرًا لإلقاء كلمته من مائدة صغيرة بعيدة قليلًا عن المائدة العامرة: (حضرات المحرومات والمحرومين وأبناء السبيل من أبناء العالم التالت النامي.. أيها الجعانين الأفاضل، أيها المساكين المحترمين، أحمل إليكم تحيات السيد الوزير وتمنياته القلبية لكم بمزيد من الفقر والبؤس والجوع، أيها التعساء.. - بصفتناَ من الجعانين القدماء لازم نُعلم أبناءنا من طلائع الجوع أنَّ الجوع الحقيقي يجب أن يكون للعقل لا للمعدة، أن يكون الجوع للمعرفة لا للمغرفة) ولم تزل تتوالي الصحون والأصناف والمشويات على مائدة المؤتمرين، وصاحبنا يقرأ كلمته الهزلية التي يرتجلها غالبًا من وحي ما يرى، وعيناه تكاد تطلع، وسرعان ما تأخذه الجلالة ويدق المنصة في ثورة ويطيح بعيدًا بكوب الماء ويبدأ بالزحف فوق المائدة العامرة القريبة منه، مصارعًا الآخرين على ما تبقَّى. المفارقة بين عنوان المؤتمر المتخيَّل وبين ما يُغدقه على المشاركين فيه من طعام وشراب ونزهات وسهرات وتدليل، ربما تمتد خارج النطاق المحلي الضيق إلى الصعيد الدولي، حيث ترتفع درجة خطورة القضايا الموضوعة على موائد النقاش وموائد الطعام بالدرجة نفسها التي ترتفع معها جودة الولائم والتدليل والتنعُّم، إذ يتم استبعاد الجائع لصالح قضية الجوع وإخفاء المريض لمناقشة المَرَض، ولا بد أن يحدث ذلك في أجواء ناعمة وظروف مرفهة، قد تصل حد الإساءة المتعمّدة.

تنقلب عربة كارو محملة بالفاكهة بعد نحو خمس دقائق من بداية أحداث فيلم الجوع (علي بدرخان، ١٩٨٦)، فَيندفع الحرافيش يتخاطفون الثمار من على الأرض، لولا أن يتصدى لهم فتوات الحارة في الحال. ومع تقدم أحداث الفيلم، يحدث ألا يفيض النيل وتخيب الزراعة وتشح الغلال والأرزاق ويفتك الجوع بالناس في بر مصر كله، تنتشر السرقة والسطو. ومن عنوان الفيلم ومن خلال أحداثه، تتكشَّف تدريجيًا ثيمة الجوع عن وجوهٍ عديدة، من بينها رحلة صعود الفتوة فرج الجبالي (محمود عبد العزيز)، من عربجي يعمل على عربة لا يملكها، يترحم على عز جده فضل الجبالي، الفتوة العادل النموذج الذي يتردد ذكره طوال الفيلم مثل حلم مثالي مفتقَد وعصر ذهبي يتمنى الجميع عودته، إلى أن يصبحَ هو نفسه الفتوة الطيب نصير الغلابة والمساكين، ثم يتغير شيئًا فشيئًا ويتزوج سيدة ثرية ويدير لها متجر الغلال الكبير ويجالس كبار التجار ويحيط نفسه برجال الفتوة السابق، وهكذا تتكرر الحكاية القديمة التي تردد صداها أكثر من مرة في رواية الحرافيش وفي التاريخ الحديث أيضًا.

يختلف فيلم الجوع عن أفلام الحرافيش الأخرى في عدم اعتماده على إحدى قصص رواية محفوظ بل استلهام الجو العام والرموز المتكررة فيها، كما يختلف من حيث الرسالة كذلك فقد أشارَ بوضوح إلى طريق الخلاص من الدائرة الجهنمية التي تعيشها الحارة من فتوة إلى آخر، حين وضعَ الحرافيش في قلب المُعادَلة، بكلمة واحدة هي الثورة ، إذ يشرعون، قرب نهاية الفيلم، في الحركة ولو بتحريض من جابر الجبالي (عبد العزيز مخيون) وزوجته زبيدة (سعاد حسني)، فَيجمعون قواهم ويهاجمون الفتوات وهم نيام ثُمَّ يرجمون الفتوة الأكبر بالحجارة حتى يهلك، وحين يشعر أثرياء الحارة بالتهديد يفكرون في اللجوء إلى فتوة حي آخر لكبح المتمردين، ثم نرى الحرافيش يجتمعون خارج الحارة، ربما في الخلاء الذي اعتاد جدهم الأسطوري أن يعتزل العالَم فيه، وهناك يصنعون أسلحتهم من فروع الأشجار، في مشاهد أقرب للحُلم والبشارة، لا شيء فيها يشي بما قد يأتي بعد ذلك، أو بالطريق التي عليهم أن يقطعونها، الطريق الطويلة الوعرة الملتوية والحافلة بالمنعطفات المفاجئة والفخاخ المُربكة وشراك الخيانة والعنف والتحوّلات. كَأنَّ طائر الجوع كامن ينتظر الفرصة لكي ينقض على الناس من جديد، متخذًا في كل مرة صورة أقبح، وكأنهم لا يتوقفون، مدى تاريخهم، عن مطاردته واصطياده وتدجينه في بساتين الدين والفن والثورة.

(مبارايات الجوع) ثلاثية روائية، للكاتبة الأمريكية سوزان كولينز، من نوع الخيال العلمي والدستوبيا، حققت نجاحًا عالميا بعد تحويلها للسينما، وعُرض أولها عقب موجة انتفاضات الربيع العربي التي طالبت بالخُبز والحرية

الدليل الشامل لمراقد الحكام من أسرة محمد علي

كتابة وتصوير: ميشيل حنا

نظـر

مثلما تسكن الأسر الحاكمة في القصور والسرايات، تهتم أيضا هذه الأسر بمصير أجسادها بعد الموت، فلا يصحّ أن يدفن أفرادها في مقابر عاديّة مع عامّة الشّعب، وإنما يجب أن تتمتّع مقابرها بالفخامة اللائقة بالملوك والسلاطين، والأسرة العلوية التي حكمت مصر بين عامي ١٨٠٥ و١٩٥٣ ليست استثناء.

في الصفحات التالية نتتبّع مصير أجساد الحكّام من أسرة محمد علي، حتى استقرارها في مثواها الأخير.

كتابة وتصوير: ميشيل حنا

الدليل الشامل لمراقد الحكام من أسرة محمد علي

صورة قديمة للمدافن الملكية بالنبي دانيال بالإسكندرية

محمد على باشا

{الوفاة: ٢ أغسطس ١٨٤٩ / العمر وقت الوفاة: ٨٠ سنة / حكم: ١٧ مايو ١٨٠٥ - ٢ مارس ١٨٤٨}

كان من المقرر أن يدفَن محمد علي باشا في المقابر التي أنشأها لنفسه ولأسرته في منطقة مقابر الإمام الشافعي، والتي تعرف بحوش الباشا (وقد أنشأها في ١٨١٦). لكن يشاء القدر أن يدفن فيها ابنه المحبوب طوسون باشا (١٧٩٤ - ١٨١٦) قبله، تلك الوفاة المبكرة التي حطمت قلبه، فبنى مقصورة هائلة من البرونز لتحيط بالتابوت.

في شهوره الأخيرة، تدهورت الصحة الجسدية والعقلية لمحمد علي باشا، ولم يعد قادرًا على إدارة شئون الحكم، فشُكِّل مجلس وصاية على العرش برئاسة إبراهيم باشا ابنه، والذي وافق الباب العالي على تعيينه واليًا على مصر، لكن كانت فترة حكمه قصيرة جدا، إذ توفي في أثناء حياة والده، ولم يخبر والده بخبر وفاته لأنه - على ما يبدو - كان قد وصل إلى درجة عالية من قصور الإدراك.

مات محمد علي في قصر رأس التين بعد وفاة ابنه بأشهر، ونقل جثمانه إلى مسجده في قلعة الجبل.

إبراهيم باشا { حكم: ٢ مارس ١٨٤٨ / ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ / الوفاة: ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ / العمر وقت الوفاة: ٥٩ سنة }

يعتبر إبراهيم باشا واحدا من أعظم القادة العسكريين في القرن التاسع عشر. حقق انتصارات هائلة لوالده محمد علي باشا على صعيد كل الجبهات تقريبا، وقد كان على وشك إسقاط الخلافة العثمانية بعد انتصاره في قونية عام ١٨٣٢، حيت أراد الزحف إلى الأستانة وإسقاط الخلافة، لكن تردد والده وتفضيله للحل السياسي أوقف هذا الأمر، مما أدى إلى الخلاف بينهما. دفن إبراهيم باشا في مقابر حوش الباشا.

نظر

عباس الأول { حكم: ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ - ١٣ يوليو ١٨٥٤ / الوفاة: ١٣ يوليو ١٨٥٤ / العمر وقت الوفاة: ٤١ سنة }

من حسن الحظ أن فترة حكم عباس حلمي الأول لم تطل كثيرًا، وإلا لتم مسح الكثير جدا من إنجازات محمد علي. كان عباس -بشهادة أهل عصره- غريب الأطوار متشائما ويميل إلى العزلة.

وقد مات مقتولا في قصره في بنها، ويحيط الغموض بظروف مقتله، ولعله كان ضحية لإحدى المؤامرات التي تحاك في القصور لتغيير اتجاه مسار وراثة العرش، دفن عباس الأول في مقابر حوش الباشا.

سعيد باشا { حكم: ٢٤ يوليو ١٨٥٤ - ١٨ يناير ١٨٦٣ / الوفاة: ١٨ يناير ١٨٦٣ / العمر وقت الوفاة: ٤٠ سنة }

دفن سعيد باشا في المقابر الملكية في الإسكندرية، والتي كانت توجد ملاصقة لمسجد النبي دانيال، في شارع النبي دانيال بالإسكندرية. كان محمد علي قد وسع هذا المسجد، كما ألحق مدفن للعائلة في إحدى زواياه.

أتى عبد الناصر ليهدم المقابر الملكية بحجة توسيع شارع النبي دانيال، ولينقل ما تبقى من رفات سعيد باشا، هو والعديد من أمراء الأسرة، إلى قبة أفندينا، أسفل هذه التركيبة المتواضعة، التي يبدو أنها كل ما تبقى من مقبرة الإسكندرية.

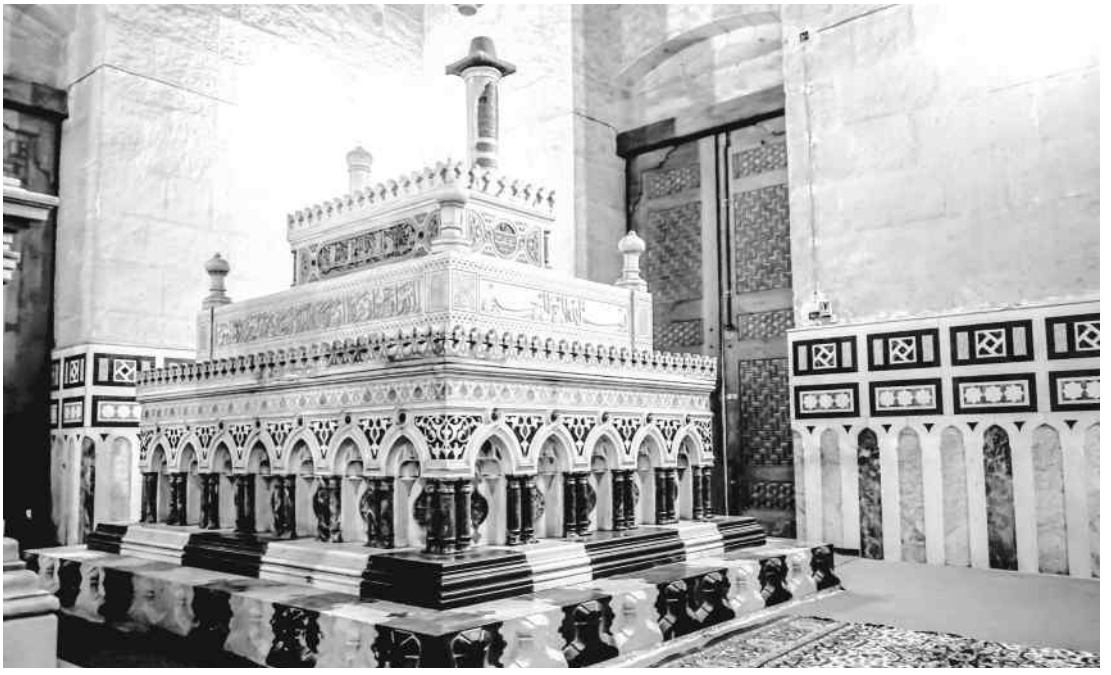

الخديو إسماعيل { حكم: ١٨ يناير ١٨٦٣ - ٢٦ يونيو ١٨٧٩ / الوفاة: ٢ مارس ١٨٩٥ / العمر وقت الوفاة: ٣٩ سنة }

أدت الطموحات الهائلة لإسماعيل باشا إلى تورطه في كم هائل من القروض التي عجز عن سدادها، ومن ثم أشهرت البلاد إفلاسها، ووقعت تحت نير دائنيها الذين استصدروا أمرا من السلطان العثماني بعزله عن منصبه في ٢٦ يوليو ١٨٧٩، وتولية ابنه توفيق مكانه.

بعد ثلاثة أيام سافر إسماعيل منفيا إلى نابولي بإيطاليا، والتي أقام فيها حتى عام ١٨٨٨، حتى وافق السلطان العثماني أخيرا على التماساته المتكررة بالانتقال إلى اسطنبول، حيث عاش في قصر إميرجان على ضفاف البوسفور، وهو القصر الذي كان قد اشتراه وأثثه عام ١٨٦٥. توفي إسماعيل في قصره عام ١٨٩٥ بعد ١٦ عاما في المنفى، وعاد جثمانه إلى مصر حيث أقيمت له جنازة ضخمة في الإسكندرية، وجنازة أخرى في القاهرة سارت حتى موضع دفنه في مسجد الرفاعي بميدان القلعة. ويمكننا أن نلاحظ أن التركيبة الرخامية لضريح إسماعيل باشا ليست على قدر الفخامة المتوقع لشخص مثله كان يعشق البذخ وينفق بلا حدود.

الخديو توفيق { حكم: ٢٦ يونيو ١٨٧٩ - ٧ يناير ١٨٩٢ / الوفاة: ٧ يناير ١٨٩٢ / العمر وقت الوفاة: ٣٩ سنة }

توفي الخديو توفيق في قصره بحلوان -ذلك القصر الذي تحول إلى مشرحة للموتى بعد ثورة يوليو- إثر نزلة برد أصابته بحمى احتار فيها الأطباء فمات بعد يومين من العلاج.
دفن الخديو في قبة أفندينا التي بنتها زوجته أمينة هانم إلهامي عام ١٨٧٠ في منطقة مقابر العفيفي (وتقع حاليا على طريق الأوتوستراد).

عباس حلمي الثاني { حكم: ٨ يناير ١٨٩٢ - ١٩ ديسمبر ١٩١٤ / الوفاة: ١٩ ديسمبر / ١٩٤٤ / العمر وقت الوفاة: ٧٠ سنة }

على العكس من أبيه الذي كان مواليًا ومداهنًا للإنجليز، كان الخديو عباس حلمي الثاني معارضًا صريحًا للوجود الإنجليزي في مصر، وقد أدخله هذا في أزمات عديدة مع إنجلترا، إلى أن انتهى به الأمر مخلوعًا من قبل الإنجليز عام ١٩١٤. كان الخديوي وقتها في تركيا، وكان قد تعرض قبلها بأشهر إلى محاولة اغتيال هناك أصيب فيها إصابات غير مميتة، وقد أخرت هذه الحادثة عودته إلى مصر. اندلعت الحرب العالمية الأولى وشكّ الإنجليز في نواياه تجاههم بعد أن طالت إقامته لدى أعدائهم من الأتراك، فعزلوه وقد كان وقتها في فيينا، ثم أنهوا علاقة مصر بالدولة العثمانية، تلك العلاقة التي استمرت لنحو أربعمائة عام منذ انتصار السلطان سليم الأول على طومنباي، ومن ثم لم تعد مصر خديويّة وتحولت إلى سلطنة.
ظل الخديو في المنفى لثلاثين عاما، وكان المصريون يهتفون في مظاهراتهم "عباس جاي" باعتباره رمزا للنضال ضد الإنجليز.
توفي عباس في سويسرا عام ١٩٤٤، وعاد جثمانه إلى مصر عام ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ليدفن في قبة أفندينا.

السلطان حسين كامل { حكم: ١٩ ديسمبر ١٩١٤ - ٩ أكتوبر ١٩١٧ / الوفاة: ٩ أكتوبر ١٩١٧ / العمر وقت الوفاة: ٦٣ سنة }

تولى حسين كامل الحكم وقد صار سلطانًا على مصر، بذلك صار مساويًا للسلطان العثماني وحاملا لنفس لقبه، وإن كانت سلطاته منقوصة بسبب الاحتلال البريطاني. توفي السلطان حسين ودفن في مسجد الرفاعي.

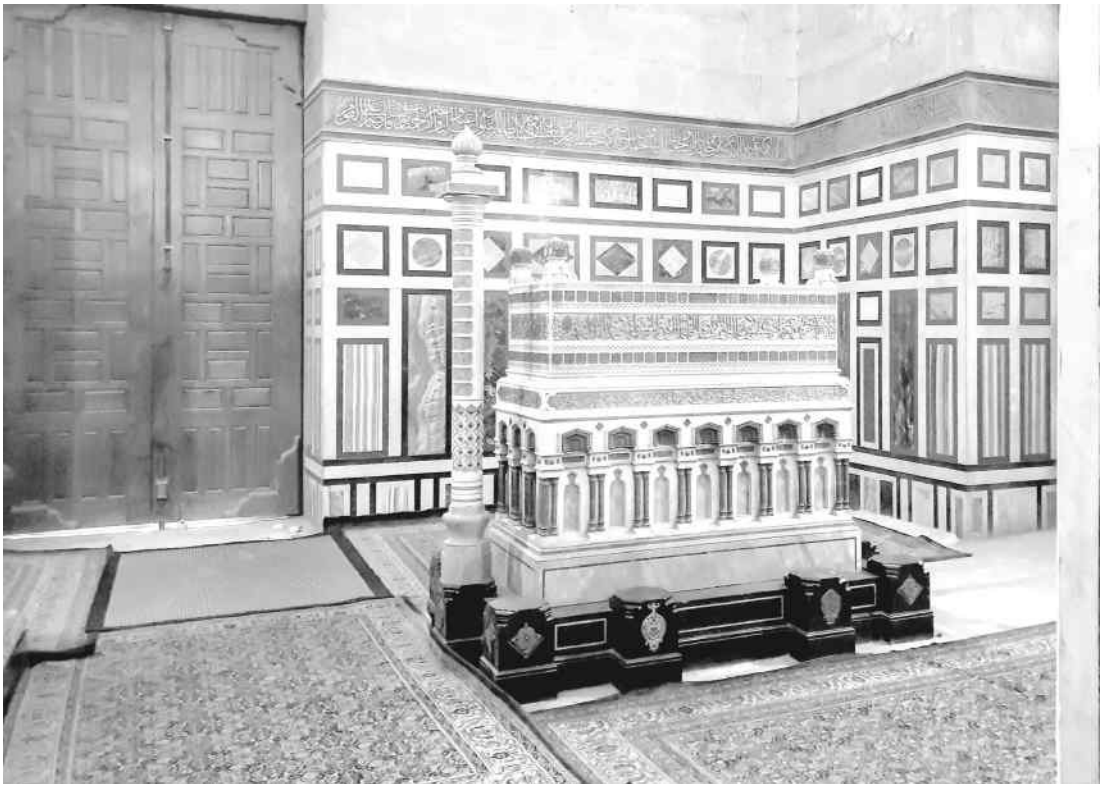

الملك فؤاد الأول { حكم: ٩ أكتوبر ١٩١٧ - ٢٨ أبريل ١٩٣٦ / الوفاة: ٢٨ أبريل ١٩٣٦ / العمر وقت الوفاة: ٦٨ سنة }

بدأ فؤاد حكمه كسلطان، ثم عندما حصلت مصر على استقلالها من بريطانيا عام ١٩٢٢، حول البلاد إلى مملكة ودعا نفسه ملكًا مساويًا نفسه هكذا بملك إنجلترا. توفي في قصر القبة، ودفن في مسجد الرفاعي.

الملك فاروق الأول { حكم: ٢٨ أبريل ١٩٣٦ - ٢٦ يوليو ١٩٥٢ / الوفاة: ١٨ مارس ١٩٦٥ / العمر وقت الوفاة: ٤٥ سنة }

في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أجبرت حركة الجيش الملك فاروق الأول على التنازل عن العرش لابنه الطفل أحمد فؤاد الثاني، وبعد ثلاثة أيام سافر من الإسكندرية منفيًا إلى إيطاليا. عاش فاروق في إيطاليا نحو ثلاثة عشر عاما، وكان يخرج منها أحيانا إلى فرنسا وسويسرا، وقبل وفاته بخمس سنوات منحه الأمير رينيه جنسية موناكو وجواز سفر دبلوماسي. مات فاروق في روما بعد عشاء في أحد المطاعم الشهيرة، ويعتقد أنه مات مسمومًا على يد أحد رجال المخابرات المصرية.

وكانت وصيته أن يدفن في جامع الرفاعي، إلا أن جمال عبد الناصر رفض عودة الجثمان إلى مصر، ثم وافق بعد وساطات من الملك فيصل، فدفن تحت حراسة مشددة في حوش الباشا، وفي عهد السادات نفذت وصيته ونقل الجثمان إلى مسجد الرفاعي.

نلاحظ أن ضريح فاروق هو الأكثر تواضعًا بين كل أضرحة الأسرة المالكة، حتى إن تاريخ الوفاة كتب خطأ.

أما الحاكم الحادي عشر من أسرة محمد علي، فهو الملك أحمد فؤاد الثاني (١٦ يناير ١٩٥٢ -)، وقد كان رضيعًا وقت أن نصبه ضباط حركة الجيش المباركة ملكًا، قبل أن يخلعوه بعد ذلك في ١٨ يونيو ١٩٥٣ لإعلان الجمهورية، ولينتهي بذلك حكم أسرة محمد علي في مصر. ويعيش أحمد فؤاد الثاني الآن في سويسرا.

بقايا المدفن القديم للملك فاروق

حربنا «المجهولة» في ٦٧: أصوات تحت الرقابة

خالد يوسف

تواريخ

حربنا «المجهولة» في ٦٧:

أصـــوات تحت الرقـــابة

استمرت اللقطة لـ ٧٠ ثانية دون قطع.. لقطة بانورامية بالأبيض والأسود من طائرة هليكوبتر لصف كامل من الدبابات المدمرة تمامًا، جنود قتلة متناثرون حولها وسط صحراء جرداء، تستمر اللقطة كسكين غمس في كحل نقي يمر قاطعًا مسيرته في جسد متعب. ألم صامت تعمقه حالة الدهشة كونها المرة الأولى التي تعرض فيها تلك اللقطات المملوكة لفريق التصوير المصاحب للجيش الإسرائيلي، في أثناء احتلال سيناء في حرب الأيام الستة من ٥ إلى ١١ يونيو ١٩٦٧. وكأنها صورة من ألبوم عائلي عُثر عليه لأسرتك التي أبلغت بأنها لقت مصرعهَا بالكامل في هجوم ناري قبل سنوات، في ليلة كالحة.

٧٠ ثانية بالغة القسوة تنتمي لـ ٨٠ دقيقة من شريط صورة لفيلم ١٦ مم، صورته أسماء مجهولة من قسم السينما بالجيش الإسرائيلي، يصاحبه شريط صوت يبدو أكثر إيلامًا، وهو شريط صوت بشكل حرفي لمجموعة بكرات سجلت على لسان ثمانية جنود قاموا بتسجيل شهاداتهم، بعد بضعة أيام فقط من عودتهم من حرب الأيام الستة. يمكن سماع أنفاس المحيطين بالجنود في جلساتهم بكل كيبوتز، ربما نفث السجائر، ضبط وضعية الكراسي، طيور الصباح في الخلفية، هدوء ساعات الفجر الذي قام بتوديع صمت الليل المطبق.

لا توجد لحظات احتفالية، ولا حماسية، ربما ضحكات متفرقة في محاولة لتخفيف ثقل الشهادات. سرعان ما تلتقي بمساحات خالية من الكلمات، عامرة بالرغبة في تذكر كل التفاصيل، وكأنها محاولة أخيرة لطرد الكوابيس التي تعرفوا عليها. هؤلاء الجنود ليسوا في حفلة سمر لتبادل أنخاب النصر، إنهم في حالة كرب. وهو كرب ظل ممنوعًا من الخروج للعلن من قبل سلطات الجيش الإسرائيلي لنحو ٤٨ عامًا، قبل أن تفرج عنها المخرجة مور لوشي، بتعاون مثمر من الكاتب عاموس عوز، الذي كان أحد الجنود الثمانية، ومعهم إفرايم.

خالد يوسف

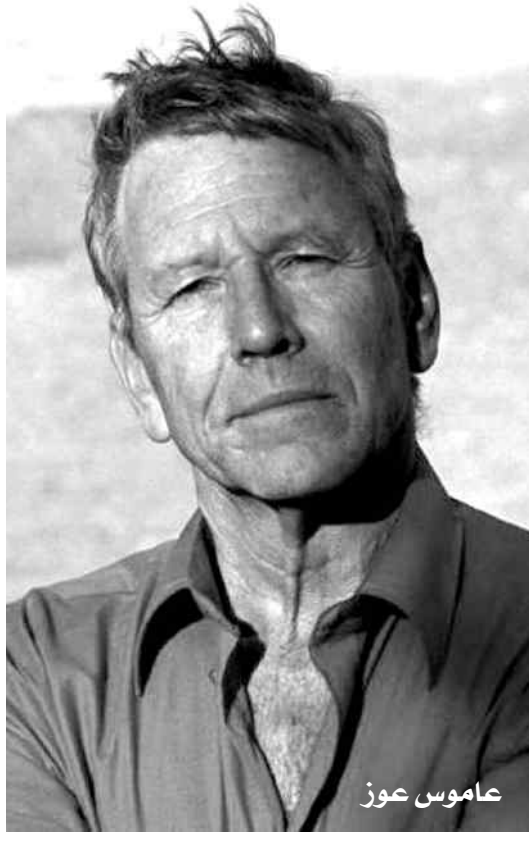

عاموس عوز

الأسطورة كأمر واقع

حولت مور لوشي لحظات المكاشفة الممزوجة بخيبة الأمل التي حفل بها الكتاب إلى جلسات مصورة للجنود في خريف عمرهم، وهم يستمعون إلى النسخ اليافعة من أنفسهم، وكأنهم في حالة إنصات إلى أشباح يصعب التعرف عليها. إنصات دون تعليق طيلة زمن الفيلم (فيما عدا الدقائق الخمس الأخيرة).

قد تكون الدقائق الأولى للشهادات هي الأقل ثقلاً، بين حالة الاستنفار والاستدعاء والتعبئة العامة «مع الإشارة في عنوان أساسي إلى أن مصر كانت تنوي الهجوم أولاً» المصير الغامض لم يكن الأكثر رعبًا بالنسبة للجنود الثمانية، ولكنه العبء الوجودي والأخلاقي الأول، كونهم ينتمون إلى جيل جديد وضع على عاتقه إكمال ما بدأه المؤسسون، معظمهم ينتمون لعائلات ذات نشأة صهيونية يمينية، غير متدينة في أغلب الأحيان، ولكنها ما زالت تؤمن بالأسطورة.

ربما يداهم الجنود الثمانية القلق في بمجرد الاستدعاء، ولكنهم محاطون بأجواء من الثقة. أحد الجنود يبلغ مراسل قناة ABC الأمريكية أن معسكرهم يبدو كالاستجمام في شواطئ ميامي انتظارًا للأوامر النهائية. جنود ينشدون الأغاني الحماسية، التي تتوعد المصريين والسوريين، لكن حتى رغم العجرفة لم تكن توقعاتهم خلال أول يومين تتجاوز المهام الدفاعية، لم يكن أحد من الجنود الثمانية يتوقع السقوط كسكارى لانتصار كامل.

لا تشغل مور لوشي بالها كثيرًا بهوية صاحب كل شهادة، فكلها تبدو منتمية لعين واحدة، صدر مختنق واحد، ونزعة عدمية، حتى لو كانت من نبرات صوت مختلفة. بدا هذا الأسلوب جليًا على نحو مبكر من المشاهد الأولى للغزو البري لسيناء. لوشي تجعل من الاختراق بالغ السهولة للأرض الجديدة تجربة شبيهة بالتيه الذي عرفه القوم الأوائل في نفس المكان قبل مئات القرون. التيه في "أصوات تحت الرقابة" أخلاقي بالدرجة الأولى كما حاولت لوشي اقتناصه.

أحد الأصوات بدا مفزوعًا من سهولة الاختراق، في ظل غياب الرد المصري. بلغ فزع الانتصار بأحدهم أن يندهش من قدرتهم على اقتناص الجنود المصريين في سيرهم كصيد العرائس في الكرنفالات. الصور الأرشيفية للمصورين الإسرائيليين بها الحرص الشديد لتوثيق المدرعات منطلقة بأكبر سرعة لها، حالة من عدم التصديق أكبر من كونها لقطات بروباجندا خالصة.

الخياط أصبح مقاتلاً

اللقطات الخاصة باقتحام مدينة الطور هي من بين الأكثر قسوة للعين المصرية، ولكنها قسوة من الضروري أن يبتلعها الباحثون عما «يخصنا»؛ كاميرا تمتطي عربات الجيب تجول في مدينة أشباح، غرف مهدمة، فيما عدا الصور العائلية على الحوائط، كانت هنا عائلات وأحلام وخيبات أمل. على. الرغم من التجول الحر في

أزقة المدينة وحوانيتها وبيوتها المهجورة إلا أن المشاعر مختلطة بالنسبة للجنود الثمانية. أحد الأصوات يقول بنبرة بها الكثير من الاضطراب "لقد رأيت متعلقات ضابط مصري وصور أولاده.. تجد أن الإنسان بداخلك بدأ يتحرك، ولكن بعد خمس دقائق يكون عليك الإطلاق النار مثل لعبة في معسكر صيفي.. البطل هو الذي يقتل أكبر عدد ممكن".

قد تكون الدقائق الأولى للشهادات هي الأقل ثقلاً، بين حالة الاستنفار والاستدعاء والتعبئة العامة "مع الإشارة في عنوان أساسي إلى أن مصر كانت تنوي الهجوم أولاً..

صوت من بين الشهادات المتوالية تقوم بتشخيص الاضطراب الذي داهمه في نجاح جيله على تحطيم صورة اليهودي التقليدي كخياط أو تاجر أو عامل يدوي، واستبدالها بصورة "المقاتل"، كهوس متواصل للفكرة الصهيونية. في الوقت نفسه يقول الصوت إنه "بمجرد وصولنا إلى الضفة الغربية قرب السويس أضحت فكرة الحرب سخيفة، كان مرعبًا تخيل وضع الجنود المصريين في انكسارهم، كان ممكنًا جدًا أن نكون مكانهم في ظروف أخرى.. لقد دخلنا هذه الحرب باعتبارنا داوود في مواجهة جالوت".

صناعة اللاجئين

قسوة اللقطات تتصاعد مع القسم الخاص بالأسرى المصريين، الأصوات المتداخلة لأصحاب الشهادات تصبح متحشرجة، كأنها دخلت نفق مظلم، خاصة فيما يتعلق بإجبار بعض الجنود المصريين على حفر قبور لرفاقهم من الشهداء؛ فيما يتضح إنها فاجعة القبور الجماعية التي اكتشفت لاحقًا. شرارة الأزمة الأخلاقية للمجتمع الإسرائيلي تبدأ في الظهور تدريجيًا في "أصوات تحت الرقابة"، وهي الأزمة التي شغلت الدراما الإسرائيلية على مدار العقدين الأخيرين. تمامًا مثل "فالس مع بشير" ٢٠٠٨، أو "لبنان"٢٠٠٩، أو "حراس البوابة ٢٠١٢، أو "الأمير الأخضر"٢٠١٤، تمهيدًا للفصل الخاص باقتحام القدس والضفة الغربية وغزة، وهو فصل الأسئلة الكبرى في الفيلم.

كان على الشهود الثمانية على حرب يونيو الإجابة على السؤال الرئيسي المحير عقب اقتحام القدس، وهو الشعور بالبرود واللامبالاة التامة عند وصولهم إلى حائط المبكى، أحدهم يبادر بالسؤال «لقد كنا نستخدم تعبير تحرير القدس

طوال الوقت، وأنا كنت أسأل تحريرها من ماذا؟ من أي طرف؟».

عاموس عوز في نسخته العجوز يستمع إلى عوز الشاب، صوته قادم من مسجل الصوت العتيق، متحدثًا عن الفتور الداخلي الذي شعر به كمنتصر تجاه المدينة القديمة (وهو المولود في القدس قبل تسع سنوات من قيام الدولة). مندهشًا من جنود المظلات في عويلهم الاحتفالي عند الوصول إلى حائط المبكى، على الرغم من أن المنتمين لذلك السلاح هم أكثر أفراد الجيش الإسرائيلي شراسة حسب قول الشهود الثمانية.

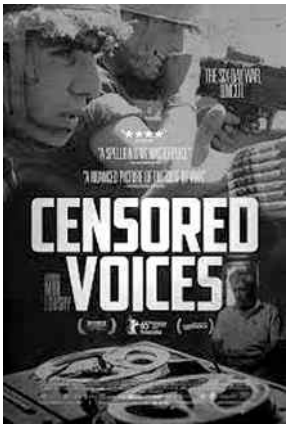

"الغريب في الأمر أن كل هذا التقديس لا علاقة له بالديانة اليهودية.. لقد قالوا إن المظليين بكوا حين وصلوا إلى حائط المبكى، أنا لا أريد تحطيم تلك الأسطورة عند الجميع.. لم أشعر بشيء إطلاقًا عند الوصول إلى المعبد والحائط، ومن كانوا يبكون أشعروني بالقرف، بالنسبة لي كانت مدينة محتلة، لم تكن مدينة مقدسة.

اللقطات الخاصة باقتحام مدينة الطور هي من بين الأكثر قسوة للعين المصرية، ولكنها قسوة من الضروري أن يبتلعها الباحثون عما "يخصنا"؛ كاميرا تمتطي عربات الجيب تجول في مدينة أشباح

صوت إفرايم شابيرا مؤلف «اليوم السابع» وأحد الشهود الثمانية يشاطره الرأي «أنا قادم من عائلة تنتمي لحزب هيورت اليميني المتطرف، لقد تربيت على المشاعر القومية، على الرغم من هذا شعرت في القدس بأني غريب في مدينة غريبة.. مصطلح الأراضي المحررة كان يفزعني».

لحظة الانكسار الحقيقية للجنود الثمانية لم تكن في المناطق الساخنة، بل كانت في البقاع النائية، المزارع الخاوية. الجنود الثمانية أفيخاي جروسمان أو يوسي ليمور وإيلان لوتان، والأخوان أليشا واميتاي شيليم وبيشاس ليفيتان أضحوا وقد أدركوا جميعًا أنهم في كابوس حين وصلوا إلى القرى العربية الصغيرة، عندما قاموا بتحويل الفلاحين إلى "لاجئين" في أقل من أسبوع. كانت الأوامر تصدر لهم بتجريدهم من ملابسهم، فيشاهدون منازلهم وهي تتهدم، دون القدرة على إبداء أي اعتراض حتى لو كان مهذبًا "كانوا يقولون لنا إنهم مستعدون للموت تحت القصف دون أن نغادر أرضنا، كنا نشحنهم كالخراف، دون أي مقاومة من جانبهم.. وقتها أدركت معنى الهولكوست".

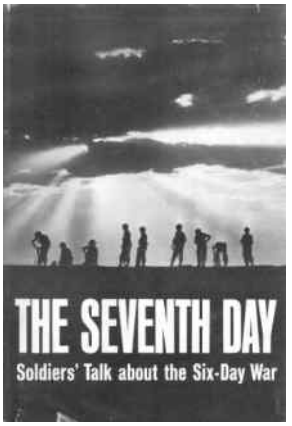

كان الجنود ينشدون الأغاني الحماسية، التي تتوعد المصريين والسوريين، لكن حتى رغم العجرفة لم تكن توقعاتهم خلال أول يومين تتجاوز الدفاع، لم يكن أحد من الجنود الثمانية يتوقع السقوط كسكارى

إنه صوت الشاب شابيرو يخرج بصعوبة من الشريط، معلنًا حالة الاضطراب التي اجتاحته مع رفاقه في تلك اللحظات.

حفنة أحجار

الأرشيف السينمائي للجيش الإسرائيلي لا يبدو إجرائيًا كسولاً، التدقيق في تفاصيل الوجوه والتنكيل لا تنقصه الصراحة، جثث عربية ملقاة في منتصف الطريق، مسنون يسحبون أقدامهم بصعوبة. تمامًا كما قال لوتان بأنها لقطات تنتمي لشعب محتل "أنا لم أذهب إلى الحرب لإخلاء القرى.. الصهيونية هي مأساة من البدايات، قدومنا إلى هذه الأرض كان

يعني إقصاء هؤلاء الناس.. إخلاء كل هذه القرى".

شابيرو يصل إلى مرحلة الانكسار الحقيقية في روايته لقصة المسن الفلسطيني الذي جمع حاجياته في غطاء نومه، وهو في حالة نحيب، سائرًا بصعوبة وخلفه جندي يصول إليه سلاحه في تحفز، لقد شعر بالمرض في أمعائه بعد أن أدرك أنه أصبح الشرير أو النذل في تلك القصة. الضحايا مجرد نشارة خشب تتناثر في أثناء عملية تقطيع الخشب، أمر لا بد منه، مجرد أعراض جانبية، هامش للخطأ في أثناء القيام بعملية حسابية، أو استقطاعات ضريبية في فاتورة مطعم.

وصل عاموس عوز إلى مرحلة انكساره الخاصة عند دخوله إلى أريحا "كنت أشعر بالتوحد مع هؤلاء النازحين، أنا كنت ذلك الطفل الذي يتعلق بوالده.. إنها اللحظة التي شعرت فيها بآلام الآخرين.. لقد عاش العرب لحظات كالتي عشناها نحن في الحرب العالمية الثانية.. إنها مأساة التوحد مع الطرف الآخر، مع الأعداء".

لم توجد لحظات احتفالية، ولا حماسية، ربما ضحكات متفرقة في محاولة لتخفيف ثقل الشهادات. سرعان ما تلتقي بمساحات خالية من الكلمات، عامرة بالرغبة في تذكر كل التفاصيل..

مشاهد الاستقبال الاحتفالي للجنود الإسرائيليين من قبل عائلاتهم تشكل تناقضًا صارخًا مع نبرة العار التي تخرج من صوت الشهود الثمانية. أحدهم توقف عند تلك السيدة التي فقدت ابنها عند دخوله المدينة المقدسة، لم تملك سوى الصراخ بعد أن أخبرها رفاقه بالنبأ، حاولوا تعزيتها بإبلاغها أن "الابن مات ولكننا حررنا القدس"، لترد دون تفكير بأن القدس لا تستحق ظفر ابنها، وأنها مستعدة لتفجير حائط المبكى على الفور من أجل أن يبقى على قيد الحياة". شابيرا نفسه أدرك في اليوم السابع بعد عودته إلى أهله أنه شارك في عملية تضحية بالبشر "من أجل حفنة أحجار".

نهاية الكابوس؟

لا يملك الرواة الثمانية بعد انتهاء الشريط أن يرسموا ابتسامات صامتة، لا يعلموا إذا كانوا يستمعون إلى أشباحهم أم أنهم أضحوا أشباحًا لهؤلاء الشباب. مجرد شيوخ في عقدهم الثامن، عاشوا حياتهم تاريخيًّا باعتبارهم من الجيل الذهبي، ولكن بأرواح مدحورة.

جروسمان يبلغنا بأنه بعد ٦٧ أصبح أقل صهيونية، وأقل وطنية وإيمانًا. لوتان يشعر بالقلق إزاء أمته التي لا تريد مواجهة الحقيقة. ليمور لم يعد يؤمن بأي سلام. ليفيتان يعترف بأنه أصبح يمينيًا تاركًا ليبراليته خلفه. شابيرا نفسه كان أكثر عبوسًا، معربًا عن فزعه إزاء مصير الأحفاد طالما استمر الوضع على ما هو عليه.

ربما كان عاموس عوز كان الأقل تعرضًا للصدمة، فقد كان يؤمن بأن الأصوات التي خرجت من تسجيلات يونيو ٦٧ نطقت بالحقيقة، وهو أمر ما زال يدافع عنه حتى اليوم.

الثواني الأخيرة من "أصوات تحت الرقابة" تعرض لقطات لجنود بلا أسماء في حالة احتفال، جزء من بروباجندا لم تتغير كثيرًا بعد أكثر من نصف قرن؛ الكاميرا تثبت على وجه أحدهم، وصوت الشاب عوز يتصاعد تدريجيًّا متقطعًا بسبب تهالك نسخة الشريط، معلنًا "بالحكي عن الألم الذي كنا نشعر به في تلك الأوقات العظيمة، ربما لن نقدم أي خدمات للمزاج العام القومي، ولكننا سنقدم خدمة صغيرة للحقيقة".

ربما كانت هذه جملة ختامية مثالية لواحد من أهم الوثائق عن الحرب المنسية، والكوابيس التي تطارد المنتصرين، ذلك الألبوم العائلي الذي فُقد قبل العثور عليه في سندرة منزل السارق. ولكن الكابوس الأكبر قاله عوز مع صورة عائلة فلسطينية ريفية تعبر نهرًا بصعوبة بعد إتمام تهجيرها «أعتقد أنه في الجولة المقبلة سيكون غضب العرب تجاهنا عميقًا وجادًا.. الحرب القادمة ستكون أشد قسوة ودموية».

كيف تتحرر فلسطين؟

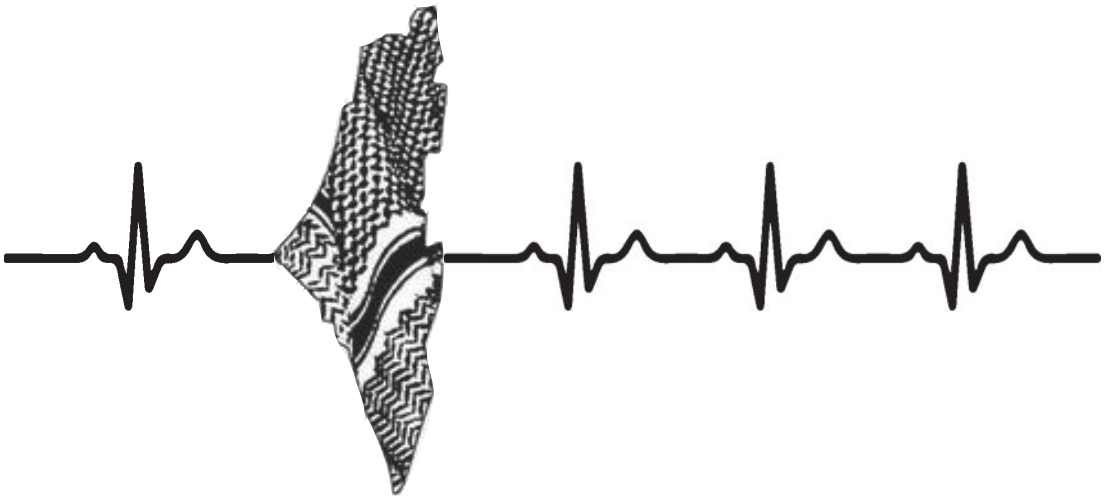

أنا شاهدُ المذبحة
وشهيد الخريطة
أنا ولد الكلماتُ البسيطة
رأيتُ الحصى أجنحة
رأيت الندى أسلحة
عندما أغلقوا باب قلبي عليّا
وأقاموا الحواجز فيّا
ومنع التجوّل
صار قلبي حارةْ
وضلوعي حجارةْ
وأطلّ القرنفل
وأطلّ القرنفل

محمود درويش

قضـــــايا

كيف تتحرر فلسطين؟!

هذا السؤال القديم المتجدد.. السؤال الأيقونة، مفتاح السـر، وحجـر الأسـاس، ومـربـط الـفـرس.. السـؤال العسير، ذو الإجـابـات الـحـائـرة الملتبسة.. السؤال المفارق، حمَّال الأوجه، الباعث على الشقاق والصدام.. السـؤال الحلم، المحمل بالدمع والشـجـن، وأغـانـي الحنين.. السـؤال المقاوم، المفجر للغضب، الملهم لملايين المناضلين في كل بقاع الأرض..

كيف تتحرر فلسطين؟!

السـؤال الـذي كتب تاريخ بلادنا ومنطقتنا على امـتـداد خمسة وسبعين عـامًـا، وكـان الـحـافـز وراء كـل الـثـورات والانـقـلابـات والحروب.. السؤال الذي استوطنت حروفه آلامًـا وقلوبًـا انفطرت حزنًـا وولعًـا، وأنهارًا من الـدم، ومـئـات الآلاف مـن الـشـهـداء، وملايين من اللاجئين والضحايا..

كيف تتحرر فلسطين؟!

سـؤال يـعـود لـيـطـرح نفسه مـجـددًا، بـكل توهجه واحتدامه، وبنفس عزيمته الأولى وحضوره الطاغي، وبعد أن ظـن الجميع أن العالم قـد تـجـاوزه. يعود ليصفع هـؤلاء الـذيـن كـانـوا – منذ بضعة أسابيع – يتهافتون على الجلوس مع الصهاينة، والوقوف معهم أمـــام كـامـيـرات الـتـصـويـر، ويـضـعـهـم فـي حجمهم الحقيقي. يعود مُعمدًا انتفاضة ثالثة، تأتي في شروط جديدة، وأشكال مغايرة، وظرف تاريخي مختلف كلية.

هل من ضرورة لبذل الجهد بحثًا عن إجابة جديدة عن ذلـك الـسـؤال؟ ألا يكفينا كل ما كتب وقيل حول الأمر على مدار عقود من الزمن؟! نعم هناك ضرورة.. ضرورة يفرضها التاريخ نفسه. فالعالم الذي يشهد الانتفاضة الثالثة، غير ذلك الذي شهد انطلاق الثانية عام 2000، أو الأولـى عام 1987؛ والآفـاق التي تنفتح أبوابها اليوم تختلف عن تلك التي حددت شروط اتفاقية أوسلو عام 1993، واتفاقية كامب دايفيد عام 1978؛ والوعي الجمعي للشعب الفلسطيني بقضيته الآن يُغاير كثيرًا ما أعلنه ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1974؛ حتى المقاومة الفلسطينية اليوم تختلف نوعيًا عما كان عليه الحال عشية تأسيس فتح عام 1965، أو انطلاق المقاومة المسلحة عام 1955؛ وبالقطع فإن المواقف العالمية تجاه القضية الفلسطينية تنطلق الآن من رؤى لا علاقة لها بالكلية بما كان قائمًا عام 1967، أو 1948.

أول متغير هو خريطة الانتفاضة؛ فالمقاومة الفلسطينية ومعركة التحرير كان مركزها الشتات منذ عام 1948 وحتى عام 1987، عندما انطلقت الانتفاضة الأولى، ومن ساعتها وحتى اليوم صار مركز النضال الفلسطيني هو الضفة وغزة. أما جديد الانتفاضة الثالثة هو المشاركة الفعَّالة الجسورة لفلسطينيي الداخل (عرب 1948)، التي تفتح آفاقًا مختلفة نوعيًا أمام مشروع التحرر، وتضع نهاية لكل الأوهـام المتعلقة بمشروع الدولتين، الذي سقط عمليًا منذ انطلاق الانتفاضة الثانية.

المتغير الثاني هو المقاومة الفلسطينية، فإثبات السلاح الفلسطيني أنـه قـادر على الصمود والمواصلة وتحقيق ضربات موجعة لإسرائيل، رغم كل ما يعانيه من حصار، بات عنصرًا فارقًا. وصار هناك إدراك واضـح في الداخل الإسرائيلي لضرورة وضع ذلك السلاح في الاعتبار.

المتغير الثالث هو التواصل مع العالم. فقد نجح الشـبـاب الفلسطيني الـمـقـاوم في استخدام الإعلام والوسائط الاجتماعية على نـطـاق كبير، لفضح الاستعمار الصهيوني والدفاع عن مشروعية المقاومة في مواجهته، ذلك رغم تـواطـؤ الـمـؤسـسـات الإعـلامـيـة الكبرى في العالم، والقيود الشديدة التي فرضتها على إعلام المقاومة.

النجاح في التواصل مع العالم فتح الباب أمـام حركة تضامن شعبية عالمية غير مسبوقة مع الشعب الفلسطيني وقضية تـحـرره. صحيح كـان هناك دائـمًـا تضامن عالمي مع القضية الفلسطينية، لكن جديد الانتفاضة الثالثة هـو صعود حركة تضامن شعبية معتبرة ذات وزن داخـل بـلـدان الغرب الإمبريالي ضد الاستيطان الصهيوني والفصل العنصري.. حركة نجحت في حشد نجوم إعلاميين ذوي شأن للدفاع عن القضية الفلسطينية، من كتاب وفنانين ورياضيين ونـواب برلمانيين، ونظمت تظاهرات كانت الأكبر من نوعها، ووضعت الدعاية الصهيونية في موقف دفاعي، وصار لها تأثير بقدر أو آخر على صناعة القرار السياسي.

على جانب آخـر افتقدت الانتفاضة الثالثة إلـى الدعم الشعبي العربي المعتاد، وهو المتغير الرابع المهم. صحيح أن التوجهات الحكومية الرسمية في مصر كانت داعمة

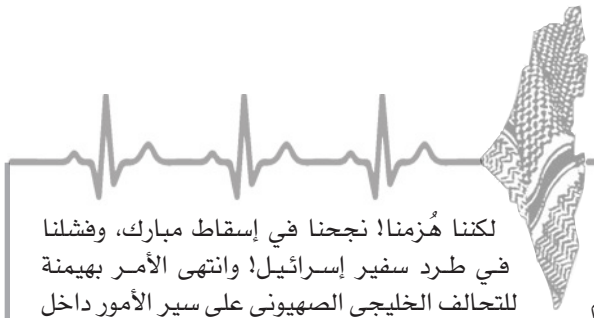

للمقاومة، وهو موقف جديد، لكنه يأتي في سياق محاولات الدولة المصرية للتوازن داخل الساحات الإقليمية والدولية. إلا أن هناك غيابًا ملحوظًا للدعم الشعبي العربي، الذي شكل ظهيرًا تاريخيًا للشعب الفلسطيني طوال سنوات نضاله، اللهم إلا بعض التظاهرات المحدودة في الأردن ولبنان. وبالقطع كان للقبضة الأمنية في القاهرة ودمشق – وهما المركزان الأهم للدعم الشعبي– دورًا حاسمًا في وأد أي تحرك جماهيري داعم للانتفاضة. وبالقطع أيضًا لعب الاندفاع المحموم من جانب أمراء الخليج للإعلان عن تحالفهم مع إسرائيل، وهم المسيطرون عمليًا على تمويل كل الصناعات الإعلامية بالمنطقة، دورًا حاسمًا كذلك في منع أي تعبئة إعلامية لخلق تضامن شعبي.

المتغير الخامس هو موقف الجمهور اليهودي في الولايات المتحدة. فللمرة الأولى تنهض حركة متسعة وسط جماهير اليهود الأمريكيين رافضة للسياسة الإسرائيلية، ومتضامنة مع المطالب الفلسطينية، وضاغطة من أجل وقف الاستيطان الصهيوني. وقد لعب صعود اليسار الجديد الأمريكي، الذي يجسده بيرني ساندرز والحركة الملتفة حوله، دورًا مركزيًا في هذا التحول بالتأكيد. لكننا – في جميع الأحوال– أمام متغير جليل الشأن، يفتح أبوابًا جديدة، كانت مغلقة تاريخيًا، أمام مشروع التحرر.

كيف تتحرر فلسطين؟!

كنا نقول إن الطريق إلى تحرير فلسطين يبدأ بتحرير مصر، وأن سفير إسرائيل لن يخرج من القاهرة قبل أن يخرج منها حسني مبارك.. وحاولنا، لكننا هُزمنا! نجحنا في إسقاط مبارك، وفشلنا في طرد سفير إسرائيل! وانتهى الأمر بهيمنة للتحالف الخليجي الصهيوني على سير الأمور داخل المنطقة.. ويبقى السؤال: ماذا بعد؟!

القائمون على هذا الإصدار يتبنون رؤية استراتيجية للقضية الفلسطينية، تنطلق من موقف يساري جذري، أن لا سبيل لحلها إلا ببناء: "دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية واحدة، متعددة الأعراق والأديان، تكفل حقوقًا متساوية لكل من يعيشون اليوم على أرضها، مسلمين ومسيحيين ويهود". وفي تقديري لم يكن قط هذا الشعار القديم واضحًا كفرصة وحيدة، وإمكانية حقيقية في الواقع العملي والفعلي مثلما هو اليوم. لكن يظل السؤال كيف نصل لهذا الهدف؟! كيف تتحرر فلسطين؟! ومع هذا السؤال المركزي تأتي أسئلة قديمة وجديدة كثيرة تبحث عن إجابات.

أسئلة عن المقاومة المسلحة، حدودها، ودورها، وفرصها؛ عن الداخل الفلسطيني، وكيف يمكن توحيد النضال في الضفة وغزة وأراضي 1948؛ عن الحاجة الملحة لوجود بديل سياسي شعبي، قادر على حشد الشعب الفلسطيني كله وراءه؛ عن إمكانات انقسام المجتمع الإسرائيلي، واندماج قطاعات من اليهود المقيمين في فلسطين مع مشروع التحرر الفلسطيني؛ عن فرص اتساع الحركة العالمية، وعودة الجماهير العربية إلى المشهد؛ وغير ذلك الكثير من الأسئلة..

هذا الملف لا يجيب على السؤال المركزي، وإنما يُعيد طرحه.. ولا يتناول كل الأسئلة المحيطة به، وإنما يفتح الباب للبحث فيها.. هو ملف غير مكتمل، ولا يمكن أن يكتمل، لأن النظر إلى الأمر في اتساعه يحتاج إلى جهد أكبر بكثير، والملف ليس إلا مبادرة في هذا الاتجاه.. ورغم الموقف اليساري الجذري لهذا الإصدار، فإنه منفتح لكتاب وضيوف ومحاورين من توجهات ورؤى أوسع وأكثر تنوعًا، فكل الإجابات مطروحة للنقاش، والمؤكد ألا أحد اليوم يملك "يقينًا" غير مطروح للشك أو التساؤل.

يحيى فكري

مدير المكتب الإعلامي للجان المقاومة في فلسطين محمد البريم «أبو مجاهد»:

ما بعد معركة «سيف القــدس» ليــس كما قبلها

حوار: بيسان عدوان

«ليس هناك نصر مطلق ولا هزيمة مطلقة، في أي نصر لا بد من بعض الخسائر، وكذلك في كل هزيمة لا بد من بعض الانتصارات».. نجح الفلسطينيون خلال المواجهات الأخيرة مع العدو الصهيوني في تحقيق عدة أهداف أجبرت الاحتلال إلى السعي الحثيث لوقف إطلاق النار بوساطات مصرية وإقليمية منها معادلة ردع جديدة في سياق المواجهات المستمرة مع الكيان، واعتبار أن المواجهات السلمية والشعبية لم تكن وحدها لتنجح في حمل المجتمع الدولي على التحرك، وقف تنفيذ قرار إخلاء حي الشيخ جراح، وكسب الرأي العام العالمي. وقد تمكنوا من إعادة تسليط الضوء على قضيتهم، وتأكيد ضرورة إيجاد حل عادل لها، والأهم أنهم استعادوا إلى حد بعيد ثقتهم بأنفسهم وبقضيتهم. ورغم أن الانتفاضة الشعبيّة فقدت زخمها في غالبيّة البلدات والمدن الفلسطينية في الأيام التي تلت الهدنة المؤقتة، نتيجة حملة الاعتقالات التعسفيّة الواسعة داخل الأراضي المحتلة عام 48 وفي مناطق الضفة الغربية عبر أجهزة السّلطة الأمنية، لكن الواقع أظهر عدة أن المقاومة الشعبية نجحت في رفع الروح المعنوية للفلسطينيين بعد سنوات من الشعور بالهزيمة، كما أعادت القضية إلى واجهة العالم بعد سنوات من التّراجع، بالإضافة إلى توحيد الشارع الفلسطيني على كامل الجغرافيا الفلسطينية، بل وحتى في خارجها. ونحن نقف على أعتاب مرحلة مهمة ليس أمام الشعب الفلسطيني سوى استمرار النّضال الشعبي، من أجل تحرير كل فلسطين، وتوسيع ساحات المقاومة عبر تفعيل دور الشتات فيها، ما يضمن وحدة الشارع الفلسطيني، ويساعده على فرز تنظيمات تعبر عنه، من رحم نضاله اليومي. هذا ما يخبرنا به الناطق الإعلامي للجان المقاومة والغرفة المشتركة في فلسطين محمد البريم «أبو مجاهد» في حوار خاص لمجلة «مرايا» حول المقاومة الفلسطينية إلى أين؟ وما العمل في المرحلة القادمة؟

ويؤكد «أبو مجاهد» أن هناك معادلة ردع جديدة ثبتتها فصائل المقاومة الفلسطينية في سياق المواجهات المستمرة مع الكيان الصهيوني عنوانها استمرار التصدي للاحتلال الإسرائيلي في فلسطين المحتلة وبكل أشكال المقاومة، ويقول بوضوح: «ما بعد معركة سيف القدس ليس كما قبلها، وأن شعبنا الفلسطيني في كل أماكن وجوده على أرضنا المباركة في فلسطين أو في أماكن اللجوء والشتات في اشتباك مفتوح مع هذا العدو الصهيوني، المحتل لا يفهم أبدًا سوى لغة القوة والمقاومة والانتفاضة والثورة»، مضيفًا أن الشعب الفلسطيني بكل أطيافه سياسيًّا وجغرافيًّا يقف موحدًا خلف نهج المقاومة، وبات يعي جيدًا ألا حرية ولا تحرير ولا كرامة إلا بالمقاومة والجهاد والبذل والعطاء، وأصبح فريق أوسلو معزولًا ومنبوذًا وبات نهج أوسلو خلف ظهر شعبنا، وأن التطبيع هو خيار بعض المستسلمين والخانعين من أنظمة عميلة لا خيار الشعوب التي جلها تقف بجانب الشعب الفلسطيني». ويرى الناطق الإعلامي للجان المقاومة أن المطلوب الآن البناء على هذه الهبّة الشعبية وعلى منجزات المقاومة في غزة تجاوز مسار التسوية ولا بد من أحداث تغيير جوهري عبر الاتفاق على برنامج أساسه التمسك بنهج المقاومة قولًا وفعلًا والتمسّك بالثوابت الوطنية لشعبنا وسحب الاعتراف بالكيان الصهيوني وإلغاء اتفاق أوسلو وملحقاته».

معركة التحرير معركة تراكمية وليست بالضربة القاضية.. ونحن مع تحرير أي شبر من أرض فلسطين ليشكل قاعدة انطلاق لنا ضد العدو الصهيوني ولكن دون أي اعتراف بالكيان الصهيوني.

وأبو المجاهد محمد البريم؛ الناطق الإعلامي للجان المقاومة في فلسطين، والقيادي في حركة الجهاد الإسلامي لجان المقاومة الشعبية، وهو تنظيم فلسطيني نشأ وظهر مع انتفاضة الأقصى التي بدأت في 28 سبتمبر 2000. وقد قامت الحركة بالعديد من العمليات العسكرية عبر جناحها العسكري ألوية الناصر صلاح الدين، وأشهرها العمليات تفجير دبابة الميركافا أقوى دبابة إسرائيلية، وكذلك شراكتها في عملية (الوهم المتبدد) التي أُسر فيها الجندي الإسرائيلي (جلعاد شاليط). وقد أسسها جمال بن عطايا

أبو سمهدانة برفقة ياسر زنون وأبي عبير عبد العال ومبارك الحسنات وأبو يوسف القوقا مع مجموعة من الشباب الفلسطيني، الذين كانت لهم مواقع ريادية في تنظيماتهم قبل الانتفاضة، إلا أنهم عملوا باستقلالية عن جميع تلك التنظيمات. واستطاعت اللجان أن تحظى بحضور شعبي وامتداد في قطاع غزة وفلسطين وأوساط اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين.

• ما مقومات مشروع التحرير، وما الأشكال النضالية الفاعلة من أجل تحقيق التحرير الكامل؟

– مقومات مشروع تحرير فلسطين كثيرة وكبيرة، ولا مجال لذكرها جميعها لكن أهمها وحدة شعبنا في كل أماكن وجوده ومشاركته في معركة التحرير في غزة والضفة والقدس والداخل المحتل والشتات.. وهذا ما رأيناه في أثناء معركة سيف القدس وكذلك وحدة الأمة وشعوبها والتفافها حول فلسطين وقضيتها ووحدة كل فصائل المقاومة ومراكمة قوتها وامتلاك أسباب القوة الحقيقية التي تتيح ضرب العدو الصهيوني وإيقاع الخسائر المادية والبشرية والمعنوية الكبيرة في صفوف جيشه و مغتصبيها

المقاومة الشعبية نجحت في رفع الروح المعنوية للفلسطينيين بعد سنوات من الشعور بالهزيمة، وأعادت القضية إلى واجهة العالم بعد سنوات من التراجع، ووحيد الشارع على كامل الجغرافيّة الفلسطينية وفي خارجها

• كيف ترى مسار تحرير فلسطين، هل هو مسار من مرحلة وحيدة، أما متعدد المراحل، مثل البدء بتحرير غزة ثم الضفة أو القدس ومن ثم استكمال مجمل الأراضي؟

– معركة التحرير معركة تراكمية وليست بالضربة القاضية.. ونحن مع تحرير أي شبر من أرض فلسطين ليشكل قاعدة انطلاق لنا ضد العدو الصهيوني ولكن دون أي اعتراف بالكيان الصهيوني.

• ما تقييم المقاومة العسكرية لمرحلة انحسارها إلى داخل قطاع غزة، بعدما كانت قوة ضاربة في الضفة وغزة ومجمل أرض فلسطين؟

– المقاومة الفلسطينية موجودة في كل مكان من أرض فلسطين وشاهدنا في الفترة الماضية خروج مقاومين من كل مكان في أرض فلسطين من النقب من أم الفحم من يافا من الضفة والقدس، ولكن وجودها بهذه القوة الكبيرة في غزة هو لعدم وجود احتلال على أرض قطاع غزة، ووجوده حكومة تحمي المقاومة وتساندها وتحتضنها وتوفر لها الأرض الخصبة.

• ما سبب اعتماد المقاومة العسكرية شكلاً واحدًا، متمثلًا راهنًا بالقذائف قريبة ومتوسطة المدى؟ مثل العمليات النوعية ذات البعد الاستخباراتي، العمليات الداخلية والخارجية، العمليات السيبرانية.. إلخ؟

– كل أشكال المقاومة العسكرية كانت موجودة وحاضرة في أثناء معركة سيف القدس، ولكن هناك قيادة عسكرية تمتلك الخبرة والقدرة على إدارة هذه المعركة هي التي كانت تحدد شكل الرد وشكل المواجهة المطلوب، ولا يوجد ارتجال أو عشوائية أبدًا، كل شيء محسوب ومخطط له حسب ما تقرره قيادة غرفة العمليات المشتركة لفصائل المقاومة.

• كيف تقيمون ما وصفته المقاومة مؤخرًا بالانتصار، وهل يعد قبول إسرائيل بالهدنة في حد ذاته انتصارًا؟

- الكيان الصهيوني هو الذي طلب وقف إطلاق النار، وهو الذي ركض إلى الوسطاء طالبا منهم وقف إطلاق النار مع المقاومة في قطاع غزة، بعد أن كان يتبجح ويستعرض قادته تهديداتهم بأنهم لن يوقفوا النار تجاه غزة إلا بعد تدمير المقاومة وقدراتها وقوتها.. والملاحظ لمعركة سيف القدس فلأنها بدأت بتهديد وانتهت بتهديد الاحتلال بأن هناك ضربة كبيرة من أكثر 300 صاروخ تغطي كل المدن المحتلة، والمعركة انتهت بمواصلة المقاومة إطلاقها للصواريخ بكثافة على مدن عسقلان وأسدود وبئر السبع وباقي مغتصبات غلاف غزة، ونحن كمقاومة نعتبر هذا نصرًا عزيزًا وكبيرًا لأننا فرضنا على العدو الصهيوني معادلات جديدة وقواعد اشتباك جديدة؛ أهمها أن القدس قلب المعركة وهي أساس المعركة وبعد عشرة أيام من وقف إطلاق النار لا زال العدو الصهيوني الغاصب يحسب مليون حساب لكل خطوة

يخطوها في القدس والشيخ جراح.. ولا شك عندما تستطيع غزة المحاصرة منذ 13 عامًا أو أكثر ضرب كل المدن المحتلة في كيان العدو الصهيوني وفرض حظر التجول على أكثر من خمسة مليون صهيوني، وفي النهاية العدو يطلب وقفًا لإطلاق النار بعد أن كانت مطالبه عالية وهي إنهاء المقاومة وتدميرها.

• هل كان هناك أفق لتحول هبة الشيخ جراح إلى انتفاضة شعبية جماهيرية في كامل فلسطين، مثل 87 و2000 ولماذا لم تتطور لتصبح كذلك؟

-أعتقد أنه لا زالت هناك إمكانية لتحويل هذه الهبة الشعبية إلى انتفاضة، وعلينا إدراك أن هذه الهبة ليست بمعزل عن الهبة الشعبية في القدس والضفة وانتفاضة القدس مسيرات العودة في قطاع غزة التي صاحبت إعلان ترامب القدس عاصمة لكيان العدو ونقل السفارة الصهيونية إلى القدس.. كل هذه المعارك الشعبية مترابطة وشعبنا الفلسطيني في الضفة والقدس والداخل المحتلة لن يعدم الوسيلة لمقاومة هذا العدو المجرم.. وبات مقتنعًا تمامًا بأن الطريق الوحيد والمجدي لاقتلاع هذا الكيان الغاصب لن يكون إلا بالمقاومة بكل أشكالها الشعبية والمسلحة.

• كيف ترون الانتقادات الموجهة إلى المقاومة كونها بعمليات القصف الصاروخي من غزة قطعت الطريق على تحويل هبة القدس إلى انتفاضة جماهيرية وعسكرتها؟

-هذه الانتقادات غير صحيحة فشعبنا في القدس والشيخ جراح نادى وطالب المقاومة في غزة بالدخول في المعركة، والمقاومة في غزة عبر غرفتها المشتركة لبت هذا النداء والذين يوجهون هذه الانتقادات لا يريدون أي مقاومة لا شعبية ولا عسكرية، يريدون فرض الاستسلام التام على شعبنا، وهذا لن يكون بفضل هذا الوعي الكبير لدى أبناء شعبنا الفلسطيني ودرعه الحصين المقاومة الفلسطينية.

لا زالت هناك إمكانية لتحويل هذه الهبة الشعبية إلى انتفاضة.. كل هذه المعارك الشعبية مترابطة وشعبنا الفلسطيني في الضفة والقدس والداخل لن يعدم الوسيلة لمقاومة هذا العدو المجرم

• هل لديكم استراتيجية لتحرير فلسطين، أم أن المقاومة أصبحت رد فعل على الجرائم الصهيونية؟

- الوظيفة الأساسية والدور الأساسي لفصائل المقاومة هي مقاومة هذه الكيان الصهيوني

الخبيث واقتلاعه من أرض فلسطين المباركة، يجب أن تكونوا مدركين لهذا الهدف في المقاومة تواصل إعدادها واستعدادها وجاهزيتها ومراكمة وتطوير أدواتها ومقاومتها من أجل تحقيق هذا الهدف المتمثل بتحرير الأرض والمقدسات.

• ما ملامح هذه الاستراتيجية، وما موقع التنسيق مع السلطة فيها؟

- استراتيجية المقاومة لتحرير فلسطين قائمة على كل أبناء شعبنا الفلسطيني وفصائله المقاومة، وكل أبناء الأمة ودولها وأحزابها المقاومة وفي مقدمتها كل الدول التي تدعم المقاومة الفلسطينية، وكل أحرار العالم الذين يرون أن هذا الكيان الغاصب هو أساس الشر وأم المصائب في العالم ومراكمة قوتها لكي تستطيع مجابهة هذا الكيان المجرم وحلفائه.. بالنسبة للسلطة الفلسطينية في هذا الوقت لا زالت تلتزم باتفاق أوسلو والتنسيق الأمني، وهذا أمر لطالما طالبنا بإلغائه والانخراط في معركة القدس ولو على مستوى المقاومة الشعبية بالحد الأدنى، ولكن لا يمكن إغفال أن هناك قطاعات واسعة من حركة فتح وكتائب شهداء الأقصى بمختلف مسمياتها ضمن هذا المحور المقاوم، وضمن غرفة العمليات المشتركة وسيكون لهم دور كبير كما عهدناهم دائمًا في مرحلة التحرير.

دول التطبيع حاولت قبل معركة سيف القدس شرعنة الكيان الغاصب وتبييض صفحة قادته الإرهابيين، وأسهمت في تشديد الحصار المالي على المقاومة ولاحقت كل من يفكر بدعم المقاومة داخل بلدانها ولو بكلمة

• هل أثّر غياب قيادة جامعة مثل ياسر عرفات، وانهيار البنى السياسية التحتية من منظمات قوية، وتغييب قيادات مثل مروان البرغوثي على الانتفاض الشعبي الواسع؟

- بالطبع غياب قادة عظام أمثال القائد الرمز ياسر عرفات الذي دعمنا ماليًا وعسكريًا في بداية انتفاضة الأقصى المباركة، وأمثال الأسير القائد مروان البرغوثي وعشرات القادة العسكريين والشعبيين الموجودين داخل الأسر في السجون الصهيونية.. ولو كان هناك غطاء سياسي من قبل السلطة لكان هناك تحرك جماهيري شعبي واسع ضد المحتلين الصهاينة.. لكننا في ذات الوقت على يقين أن السعي وراء المفاوضات لن يجلب حقنا.. وهو لهث وراء السراب ويجب على القيادة الفلسطينية أن تعي جيدًا طبيعة المرحلة، في ظل تزايد الاستيطان والاعتداءات على القدس والداخل المحتل والتنكر الدولي للحقوق الفلسطينية والعمل ضمن خطة استراتيجية لتعزيز المقاومة بكل أشكالها لاسترداد حقوقنا.

• كيف ترون المجتمع الإسرائيلي الآن، وهل تتابعون ما يجري بداخله.. بمعنى آخر هل تلاحظون تغييرات داخل هذا المجتمع مع الأجيال الجديدة، وهل هناك انقسامات بداخله تجاه الاحتلال والعنصرية، وهل هي انقسامات حقيقية ومعتبرة يمكن الرهان عليها، وعلى المجموعات التي تعبر عن ذلك في دعم تحرير فلسطين؟

- المجتمع الصهيوني يعيش حالة من الصدمة الكبيرة.. واستطاعت المقاومة الفلسطينية من خلال إدارته لمعركة سيف القدس هز الوعي الصهيوني وأوصلت لهم رسالة عنوانها أن قادتكم يكذبون عليكم وأن هذه الأرض لها أصحابها وأن وعود ترامب لكم ما هي إلا سراب وتزييف للتاريخ والواقع، وأن القدس والأقصى للمسلمين وأن القدس والأقصى بالنسبة للشعب الفلسطيني دونها المهج والأرواح والأنفس والأموال وكل شيء نملكه هو فداء للقدس والأقصى وأن عليهم التفكير الجدي بالرحيل والبدء بالهجرة العكسية والمراقب للإعلام الصهيوني يرى مدى التفكك والانقسام داخل هذا المجتمع الذي بني على الباطل والخداع والرواية الصهيونية التلمودية، أعتقد أننا سنشهد المزيد من الانقسامات والتفكك داخل كيان الاحتلال وكلها ستكون في صالح شعبنا الفلسطيني ومعركته المفتوحة مع هذا العدو المجرم.

• ما رأيكم في الانتقادات القائلة بأن المقاومة تعتبر غزة فائضًا بشريًا، وأن الانتصار يساوي استشهاد عدد كبير من أهالي غزة مقابل عدد أقل بكثير من الصهاينة، الأمر الذي لا يقدر

أهمية الضحايا من جانبكم؟

-أعتقد هؤلاء يسهمون بدعم الرواية الصهيونية، فالأولى مهاجمة من يقصف المدنيين وبيوتهم الآمنة والأطفال والنساء والشيوخ والمساجد والأبراج السكنية والمكاتب الإعلامية، وعلى هؤلاء أن يدركوا جيدًا أنه لا تحرير ولا حرية للأرض والإنسان الفلسطيني دون تضحيات ودون شهداء، والتاريخ الإسلامي والإنساني شاهد على ذلك، وبدلاً من أن يوجهوا النقد واللوم للمقاومة عليهم أن يشاركوا في الدفاع عن هؤلاء الأبرياء العزل، وأن يفكروا بحمايتهم لا التبرير لقاتلهم.

• كيف ترون الحركة العالمية الداعمة للقضية الفلسطينية مؤخرًا، وهل هناك تطور تلمسونه فيها وما أبرز ملامح هذا التطور، وهل يمكن الاعتماد على هذه الحركة في تحرير فلسطين وكيف؟

-نعتقد جازمين أن ما بعد معركة سيف القدس ليس كما قبلها، وأن معركة القدس قد أعادت للقضية الفلسطينية بريقها وأعادت حركة التضامن العالمي والعربي والإسلامي مع شعبنا وقضيته من جديد.. ورأينا التظاهرات والاحتجاجات في كل بلدان العالم ضد العدو الصهيوني وجرائمه بحق الآمنين والعزل من الأطفال والنساء والشيوخ حتى ذوي الإعاقة والحوامل والرضع لم يسلموا من فاشية وإجرام هذا الجيش.. ونعتقد أن هذه التضامن سيكون له الأثر الكبير في دعم القضية الفلسطينية ودعم المقاومة في معركتها من أجل التحرير.

• كيف أثرت المتغيرات الإقليمية على المقاومة، سوريا وحزب الله. والتغير النسبي في الأداء المصري مؤخرًا، كذلك تغير الإدارة الأمريكية؟

الوظيفة الأساسية والدور الأول لفصائل المقاومة، اقتلاع الكيان الصهيوني من أرض فلسطين، والمقاومة تواصل إعدادها واستعدادها وجاهزيتها ومراكمة وتطوير أدواتها من أجل تحقيق هذا الهدف المتمثل في تحرير الأرض والمقدسات

- لا شك أن سوريا وحزب الله من أشد وأكبر الداعمين والمساندين لقضيتنا ومقاومتنا، وأن دعمهم ومساندتهم بالمال والعتاد والسلاح من أكبر أسباب وصول المقاومة لما هي عليه اليوم من قوة كبيرة فرضت نفسها وبقوة ندًا لكيان العدو الصهيوني.. واستطاعت تهز كيانه ومجتمعه وتحرجه أمام العالم.. ونحن بالمناسبة نشكر الأخوة والأشقاء السوريين وفي حزب الله على وقوفهم الدائم والمتواصل بجانبنا، أما بالنسبة للموقف المصري فهذا تطور كبير جدًا، وكان له أثر كبير في صمود شعبنا ومقاومته وكل فصائل المقاومة قدمت الشكر والتقدير للأشقاء في مصر على هذه المواقف المقدرة والعظيمة.

• وبشكل خاص، كيف أثّر هرولة دول الخليج إلى التطبيع، سياسيًا ولوجستيًا؟

- بالطبع أسهمت فإن دول التطبيع قبل معركة سيف القدس في محاولة شرعنة هذا الكيان الغاصب, وتبييض صفحة قادته الإرهابيين.. وخلال الفترة الممتدة منذ بداية التطبيع تعبث هذه الدول بمقدرات الأمة وتدعم الكيان الصهيوني وأسهمت في تشديد الحصار المالي على المقاومة ولاحقت كل من يفكر بدعم المقاومة في فلسطين داخل بلدانها حتى لو بكلمة.. ورأينا الاعتقالات التي شنتها هذه الدول ضد شعوبهم وضد أبناء شعبنا الفلسطيني الموجودين في هذه الدول بتهمة دعم المقاومة في فلسطين، وأعتقد أن هناك فرصة أمام المطبعين إعادة النظر فيما اقترفوه من جرم بحق شعبنا وقضيتنا والرجوع إلى نبض الأمة الحقيقي المتمسك بحق شعبنا وقضيته ومقاومته.

• ليس للتحرير موعد حاسم بالتأكيد، ولكن ما المدى الزمني الذي ترونه؟

-ثقتنا بالله ثم بأنفسنا كبيرة، ونراه قريبًا بإذن الله عزل وجل، وسنواصل جهدنا ومعنا كل أحرار أمتنا من أجل الوصول إلى هذا الهدف الأسمى بتحرير فلسطين من بحرها إلى نهرها.

محامي الأسرى الفلسطينيين يامن زيدان:

إسرائيل باتت أضعف.. والمعـــركة تبدأ بإعادة بناء «منظمة التحرير»

حوار: أسماء زيدان

أجبرت انتفاضة القدس الأخيرة العالم على الالتفات مجددًا إلى القضية الفلسطينية بعد طول تجاهل، وإعادة موضعتها باعتبارها قضية شعبية استراتيجية، فمن ناحية خرجت الشعوب المختلفة لمساندة مطالب الانتفاضة ضمن حركة تضامن عالمية امتدت من إنجلتر حتى كندا، وعرفَتها المنظمات الإنسانية بـ«الأبارتهيد» الصريح، وبالتوازي نجحت تداعيات هذه الانتفاضة في إسقاط وهم صفقة القرن، وإزاحة المسهمين فيها من الحياة السياسية برمتها؛ نتنياهو أخيرا، وترامب بشكل مسبق. والواقع يقول إن الحدث ضخم، وللمرة الأولى يلتقي فلسطينيو ما قبل الخط، بما بعده بهذا الشكل، بعد أن ارتاح ضمير العالم لفكرة أن الداخل راض، وأن الاندماج وشيك، محطمين أسطورة أن الأرض بلا شعب، ولكن ما وراء الأحداث، ومستقبلها، يطرح تساؤلات عدة، فقد علمنا عن تضحيات الشعب الفلسطيني، وجرأته على المقاومة، ولكننا في الوقت نفسه خبرنا السياسة التي لم تكن قط على نفس القدر من المسؤولية.

في حوارنا حول الداخل الفلسطيني، والخط الفاصل بين أبناء 48، وإخوانهم خارج الخط، والفجوة بين شجاعة الشعب، وتردد السياسة، كان اللقاء مع محامي الأسرى الفلسطينيين يامن زيدان؛ ابن الداخل، وابن الطائفة الدرزية، ومؤسس حملة «ارفض.. شعبك يحييك»، الذي حاول على مدار سنوات مقاومة التجنيد الإجباري لأبناء المذهب الدرزي، وانخراطهم في جيش الاحتلال الإسرائيلي.

يامن، كما يقول عن نفسه، خاض طريق «العودة إلى الذات» التي ضل طريقه عنها بفضل «احتلال الفكرة» من تعليم «إسرائيلي» لتجنيد إجباري، ولكن وظيفة سجان بسجون الاحتلال،

وضعه أمام «ذاته» وجهًا لوجه عندما التقي الأسير سمير قنطار، والذي أعاده إلى قضيته الأصلية، فلسطين «قضية الشعوب»، ليتحول يامن من سجان قنطار، إلى محاميه، بعد أن درس الحقوق، وتفرغ للدفاع عن الأسرى، وتحرير أبناء طائفته من شرنقة الاحتلال مرة، والاتهامات بالتخوين مرات.

كرجل قانون كيف تصنف جرائم الاحتلال الإسرائيلي؟

طبعًا أي فعل يُمارس من قبل قوة محتلة من شأنه أن يغير الأمر الواقع للمدنيين القابعين تحت الحكم العسكري للاحتلال هو فعل باطل ومخالف للشرعية الدولية. وعليه فإن أي قانون أو فعل يهدف إلى تغيير المركز القانوني الذي كان قائمًا إبان فرض الحكم العسكري للاحتلال هو فعل أو قانون يفتقد لأي قيمة قانونية دولية وهو غير شرعي ومخالف لاتفاقية لاهاي ولاتفاقية جنيف المعنية بحقوق المدنيين المحميين، إضافة إلى هذا فإن أي تضارب ما بين القانون الوطني والقانون الدولي فإن الدولي غالبًا هو الذي يعتمد.. الاحتلال الإسرائيلي لطالما عمل بهدف فرض الأمر الواقع وهي سياسة ممنهجة من قبله لسلب الأراضي والتاريخ من خلال تكثيف إقامة مستوطنات والبناء بها، علمًا أن فعل الاستيطان يندرج ضمن جرائم الحرب وهو الفعل الممنوع بموجب القانون الدولي.

اختلفت وجهات النظر حول مناسبية المقاومة المسلحة البعض رآها عبئًا/ حجة لتكثيف عدوان الاحتلال ووصم المقاومة بالإرهاب، والبعض رأى فيها ضرورة لدعم المقاومة السلمية فكيف تنظر إلى الأمر؟

المقاومة المسلحة ضد الاحتلال مشروعة بموجب القانون الدولي وتشكل الركيزة الأساسية لحركات التحرر الوطني وأي انتفاضة ستقوم ولا ترتكز للمقاومة المسلحة هي انتفاضة معنوية لا تحررية..

المقاومة المسلحة، إلى جانب كونها مشروعة ضد الاحتلال بموجب القانون الدولي، (برأيي) هي تشكل الركيزة الأساسية لحركات التحرر الوطني وأن أي انتفاضة ستقوم ولا ترتكز للمقاومة المسلحة هي انتفاضة معنوية لا تحررية! وفي الحالة الفلسطينية هنالك تضارب بين مشاريع الفصائل ولا يوجد مشروع واحد يجسد طموحات الشعب الفلسطيني وعليه سنجد أطراف عدة تعبر عن رأيها في شكل الانتفاضة وفقًا لما يلائم المشروع الذي يؤمن به.

ولكن هل انتصرت المقاومة؟

الانتصار برأيي هو انتصار معنوي أولاً، وانتصار على التابوهات المألوفة والتي يحاولون ترسيخها في أذهاننا عن «الدولة القوية» و«الجيش الذي لا يقهر»، فجاءت هذه الحرب لتزعزع هذه المقولات وتضع الاحتلال تحت وابل صواريخ المقاومة وتكبيدها خسائر اقتصادية تصل إلى عشرات أضعاف الخسائر التي وقعت في غزة.

يصنف البعض المقاومة بالإسلامية خاصة في ظل ربطها بالأقصى فما مدى صحة ذلك؟

الكثير من المقاومين الفلسطينيين وجدوا أنفسهم ضمن صفوف المقاومة الإسلامية، لا لإسلاميتها بل لمقاومتها، إذ لا يمكن تجاهل حقيقة أن معظم حركات المقاومة القوية والفاعلة حاليًا هي حركات إسلامية لذلك فإن الصبغة الإسلامية تصبغ المقاومة، أما الخطاب، وهنا علينا أن نكون حذرين، فهو ما زال في كنهه وطنيًا وما ذكر القدس والأقصى في الخطاب إلا لرمزيته التي تراكمت على طول سنوات المواجهة في القدس.

لدى الشعب الفلسطيني قدر عظيم من التضحيات والوقوف بوجه العدو.. لماذا لا تحصد الانتفاضات اتفاقيات أو نتائج سياسية على نفس القدر من الكفاءة؟

يعود سوء استثمار هذه الهبات لعدة أسباب أهمها افتقادنا لمشروع واحد موحد، ويعود أيضًا للانقسام بين حماس وفتح ولتقسيم الشعب الفلسطيني جغرافيًا ومن ثَم سياسيًا. وأخطر ما يهدد القضية الفلسطينية هو انقسامها، وتناقض وجهة نظر أفرادها، وتجزئة المشروع الوطني، في ظل توهم البعض إمكانية التعايش مع كيان لا يقبل بذلك، أو أن هناك إمكانية لإيجاد حل عبر الغرب، وهكذا يغيب المشروع الموحد، يدعم ذلك التشتت الانقسام الحمساوي/ الفتحاوي.

باعتبارك الأقرب للوضع داخل الخط.. كيف تجد التغير بين أفراد مجتمع الاحتلال الإسرائيلي أنفسهم؟

التغير الملحوظ والذي حصل في السنوات الأخيرة تغير سلبي، إذا صح التعبير، بالنسبة لمجتمع الاحتلال الإسرائيلي إذ باتت فكرة حل الدولتين فكرة شبه غير قابلة للتنفيذ وتلقى معارضة واسعة في الشارع «الإسرائيلي»، وينتج عن ذلك كتحصيل حاصل دعم الاحتلال والاستيطان في المناطق المحتلة، كما أن منسوب العنصرية والتمييز العنصري، ضد الفلسطينيين حاملي جنسية الاحتلال، دائم الازدياد إذ نشهد تصاعد دائم في الخطاب العنصري الرسمي في دولة الاحتلال.

وبالتوازي كيف هو الحال بين فلسطيني الداخل خاصة في ظل الأحداث الأخيرة ومنهم الطائفة الدرزية؟

الفلسطينيون في الداخل كما الفلسطينيين جميعًا؛ لا يوحدهم مشروع واحد وواضح، يشمل ذلك الدروز، فهنالك منهم من يؤمن بمشروع المواطنة، وهنالك من يرى أن مشروع المواطنة قابل للتطبيق إلى جانب الاعتراف بالفلسطينيين كأقلية قومية، وهنالك من وجهته نحو تحرير كامل التراب الفلسطيني.. لكن ولكي نصور الواقع كما هو فإن غالبية الفلسطينيين في الداخل انخرطوا بالعمل الحزبي الممثل في الكنيست الإسرائيلي، سواء من خلال القوائم العربية أم من خلال أحزاب صهيونية (العمل-ميرتس-الليكود) ومن ثَم فهذا يعطي انطباعًا بأن هؤلاء تطلعاتهم مطلبية لا تحررية.. وفي ظل مشروع فلسطيني عام واحد وواضح سيكون من الصعب تخيل الفلسطينيين في الداخل خارج المشروع المطلبي.

الانتصار معنوي.. انتصار على التابوهات المألوفة والتي يحاولون ترسيخها في أذهاننا عن «الدولة القوية» و«الجيش الذي لا يقهر»، وهذه الحرب زعزعت تلك المقولات ووضعت الاحتلال تحت وابل صواريخ المقاومة

إذن.. ما العمل؟

مرة أخرى، أنا مُصر على أنه في ظل غياب مشروع واضح وواحد للفلسطينيين ومن ثَم هدف قومي ووطني واحد للجميع سيبقى المشهد يتعلق بين الفينة والأخرى بحالات نضالية فردانية.. والمطلوب ليس تضامنًا، بل عمل واحد موحد ضمن مشروع واحد، أما التنسيق، ففي حال أعيد ترتيب أوراق البيت الفلسطيني (منظمة التحرير) بحيث تشمل كل الشعب الفلسطيني بما فيهم الداخل والضفة وغزة والقدس والشتات، حينها التنسيق سيكون ضمن

آلية عمل واضحة تنبثق عن إعادة بناء وترتيب منظمة التحرير.

هل لا زال لسلاح المقاطعة العربية للاحتلال تأثير؟

= المقاطعة أحد أهم الأسلحة التي تستخدمها الدول، والشعوب بفعالية من أجل تحقيق أهدافها السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية، ولربما آليات المقاطعة بحاجة إلى تطوير، أما الخطاب فبرأيي لا بأس به. ويدرك الاحتلال الإسرائيلي أهمية حملات المقاطعة الشعبية التي يراها خطرًا على الكيان، خاصة مع ازدياد حركة التضامن الدولية والفعاليات والاحتجاجات، وقد أثبتت الشعوب ولاءها للقضية بشكل منفصل عن إرادة السياسة، والساسة. ولكن مع ذلك يجب أن نشدد هنا على أن المقاطعة الفعالة والمؤثرة لا تأتي من حراكات فقط، بل بالأساس من الأنظمة والدول، فلو تبنت الدول العربية سياسة مقاطعة الاحتلال الإسرائيلي ومقاطعة دول تدعم «إسرائيل» حينها فقط ستفي المقاطعة أهدافها.

وكيف تنظر إلى تأثير الهرولة العربية/ الخليجية الأخير على القضية؟

لا شك أن هناك تأثيرًا لهرولة الأنظمة الخليجية للتطبيع مع قوات الاحتلال، وهذا التأثير ينعكس سلبًا على القضية الفلسطينية، لكن المطلب الأول بالمقاطعة هم الفلسطينيين فإذا استطعنا ترسيخ المقاطعة فلسطينيًا سيقلل ذلك من تأثير الدول العربية المطبعة وسيكون تطبيعهم دون جدوى تذكر.

لاقت القضية صدى عالميًا محمودًا وغير مسبوق هذه المرة فكيف تفسر ذلك؟

كان للتضامن الشعبي العالمي دائمًا تأثير معنوي وفي العديد من الحالات كان يؤثر اقتصاديًا من خلال توسيع الوعي لمقاطعة الكيان الإسرائيلي، وأرجح أن اتساع حجم التضامن يعود إلى سهولة التواصل ونقل الاخبار من خلال منصات التواصل الاجتماعي، إضافة إلى تزايد الوعي الإنساني وضعف الموقف الإسرائيلي الذي يتسم باللاإنسانية. كما أن الأمر قد يكون جزءًا من حركة شعوبية عالمية بدأت بالربيع العربي، أولاً وثانيًا، ثم تخطى الأمر الإقليم إلى العالم، عبر حركات مثل «حياة السود مهمة»، فلا يمكن النظر إلى القضية على كل حال بمعزل عن السياق العالمي، وتضامن الشعوب مع بعضها بعضًا.

وهل للإدارة الأمريكية الجديدة بما فيها من تيارات اليساري التقدمي نصيب في تفسير الوضع بشكل أكثر دقة؟

تغيير الإدارة الأمريكية قد يسهم في بعض الشكليات لا في المضمون، وعلينا ألا ننسى أن العالم من خلال مجلس الأمن وصل خلال السنوات الماضية عشرات المرات لإصدار قرارات ضد الاحتلال وضد الاحتلال، وفرض عقوبات عليها وما منع اتخاذ هذه الخطوات العقابية كانت الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تتوان ولم تتردد في استعمالها لحق النقض (الفيتو) لحماية الكيان من العقوبات الدولية، إذن فإن حلحلة القضية لربما تحصل شكليًا لا جوهريًا. ولكن بالطبع كان لبعض مواقف اليسار الأمريكي تأثيره، ولكنه تأثير ظاهري أكثر منه فعلي، فلا تزال أمريكا داعمة للكيان الصهيوني، وصديقها المفضل كما ردد بايدن من وقت قريب، وعموما لا يجب التعويل على الخارج كثيرًا، فهناك دائمًا الحقيقة التي تقول إن هذا الكيان وليد هذا المجتمع الذي يطلق عليه «المجتمع الدولي» ومن الطبيعي أن يتخذ خطوات شأنها الحفاظ على وجود هذا الكيان الغريب في المنطقة.. كما أن التيار الصهيوني من الأصول الأوروبية في إسرائيل يرى حل الدولتين هو الحل الأنسب لبقاء المشروع الصهيوني؛ إذ يهدف للحفاظ على أسس الصهيونية المتمثلة بالأفضلية العددية والاقتصادية والعسكرية لليهود في إسرائيل، ويعتبروا حل الدولة الواحدة فعليًا حل يقضي على المشروع الصهيوني.

إسرائيل باتت أضعف مما كانت عليه، والشرط لاغتنام الفرصة بالشكل الصحيح الذي يتماهى مع تطلعات الشعب الفلسطيني هو القيام بالمصالحة وإعادة ترتيب وتنظيم وبناء منظمة التحرير الفلسطينية

كيف هي الأحوال في الداخل بعد إعلان الهدنة وتواري أخبار القضية نسبيًا؟

عدنا إلى أجواء الاعتقالات التي في معظمها عشوائية وبالجملة هدفها ترهيب الناس وردعهم

عن الاشتراك بالاحتجاجات وممارسة حقهم بالتعبير من خلال التظاهرات، وللأسف غالبًا ما تسهم هذه الاعتقالات بتأجيل أي هبة مقاومة سلمية أو غير سلمية، نتيجة غياب التيارات الموحدة للصف.. كما أن اقتصار الهبة على موضوع القدس والأقصى تحديدًا يقلل من إمكانية تحول هكذا هبات إلى انتفاضة واسعة من جهة، ومن الجهة الأخرى غياب هدف واضح واحد وموحد ذات أبعاد تحررية يقلل من إمكانية انتفاضة منظمة.

هل تتوقع أن تؤدي الإجراءات التعسفية إلى انتفاضة أكبر وذات أهداف أوضح؟

استبعد قيام مثل هذه الانتفاضة، ونعم يعود ذلك إلى فقر الدعم القيادي للتحرك من جهة، وللانقسام الموجود ولتعدد المشاريع الفلسطينية، فبالتأكيد أي عمل دون هدف واضح سيكون أقل فاعلية وتأثيرًا.. وفي ظل غياب المشروع الموحد تظل مثل هذه الانتفاضات عفوية، غير منظمة، وغير مؤقتة، تسهم بالطبع في التراكم الخبرات السياسية الشعبية، لكنها لن تكون حاسمة أبدًا دون تنظيم.

سوء استثمار هذه الهبات يعود إلى عدة أسباب، أهمها افتقادنا لمشروع واحد موحد، ويعود أيضًا إلى الانقسام بين حماس وفتح ولتقسيم الشعب الفلسطيني جغرافيًا، ومن ثَم سياسيًا..

كيف ترى الحل.. حل الدولتين أم الدولة، وكيف يكون ذلك؟

حل الدولة العلمانية الفلسطينية هو مطلب من كان مشروعه تحرريًا، ومن الممكن تحقيقه إذا ما تم الإجماع من جديد على أن الهدف والثابت الفلسطيني هو دحر الاحتلال، وعدم قبول وجوده.. وطبعًا أي مصالحة وطنية من شأنها أن تدفع مثل هذا المشروع قدمًا. إلى جانب تنظيم المقاومة وإعادتها إلى نظام المقاومة المنظمة لا الفردية يستطيع أن يسهم في توسيع رقعة الإنجازات.

ما رأيك في نتائج الانتخابات «الإسرائيلية» الأخيرة ودلالات استبعاد نتنياهو من سدة الحكم؟

من الصعب التعويل على خروج بنيامين نتنياهو من المشهد، كعامل تغيير في ملف حل القضية الفلسطينية بشكل تحرري لا مطلبي، أو تفاوضي. ولكن من المؤكد أن نتنياهو كان طوال سنوات حكمه عاملاً مؤثرًا في تواري القضية، والانفراد بها، كما بالغ في سياسة الاستيطان في الأراضي المحتلة للدرجة التي أفرغت حل الدولتين من مضمونه، إلا أن ذهاب نتنياهو بحد ذاته ليس عامل التغيير الحاسم الذي قد يغير المعادلة القائمة حاليًا، أو يفتح الباب المسدود في وجه الحل. كما أن خلفاءه أكثر يمينية، ولا ينتظر منهم سوى الاستمرار في السياسات الاستيطانية، لإرضاء جمهورهم، المتطرف بالأساس، وحتى مع وجود قائمة عربية، فلم يسهم ذلك في تمرير قانون واحد يخص العرب، بما أنهم الأقلية في الكنيست.

هل تمر «إسرائيل» بمرحلة الشيخوخة كما تنبأ لها البعض خلال الانتفاضة الأخيرة.. وكيف يمكن استغلال هذا الوضع؟

في ظل غياب مشروع واحد وواضح وموحد فإن المستقبل سيكون أسوأ مما هو عليه وسنلاحظ تنازلات فلسطينية إضافية وتوسيع هوة الانقسام الفلسطيني الفلسطيني، أما «إسرائيل» بلا شك فباتت أضعف مما كانت عليه، والشرط لاغتنام الفرصة بالشكل الصحيح الذي يتماهى مع تطلعات الشعب الفلسطيني هو القيام بالمصالحة الفلسطينية من جهة وإعادة ترتيب وتنظيم وبناء منظمة التحرير الفلسطينية من جهة أخرى وضم كل مركبات الشعب الفلسطيني تحت إطارها بحيث تشمل الضفة وغزة والقدس والداخل والشتات.. حينها نستطيع فرض الحق الفلسطيني واغتنام الفرص واستثمارها بما يحقق تطلعات شعبنا بدحر الاحتلال والاستقلال والعودة وبناء الدولة الفلسطينية على كامل التراب الفلسطيني.

الطريق إلى تحرر فلسطين.. المسار والتحديات

أحمد حسن

في عام 1917 أعطى بلفور وعده المشؤوم بخلق وطن لليهود في الأرض الفلسطينية. وذلك بينما كانت نضالات جنينية تبرز بين الفلاحين الفلسطينيين الذين كانت الجماعات اليهودية الوافدة تستولي على أراضيهم. وفي عام 1929 اندلعت انتفاضة فلسطينية ضخمة ضد كل من سلطة الانتداب الإنجليزي والتنظيمات الصهيونية التي صارت مسلحة. برزت أول مقاومة فلسطينية مسلحة في حركة الشيخ عز الدين القسام التي كانت سرية، وانتشرت بين الفلاحين الفلسطينيين بشكل واسع، وكانت المواجهات التي وقعت في عام 1936 سببًا ليكثف البريطانيون القمع ضد المقاومة الفلسطينية، وأيضًا بسبب التناقض في الأهداف بين الأعيان والأثرياء المشاركين في الحركة، والعمال والفلاحين الفقراء الذين سعوا لتطبيق إجراءات اجتماعية في مناطق نفوذ المقاومة سواء في الريف أو المدن. وإثر هزيمة انتفاضة 36 قامت القوات البريطانية بحملة قمع عسكرية مضادة وعنيفة أسفرت عن قتل 5032 مناضل فلسطيني، وما يربو على 14 ألف جريح، و50 ألف معتقل، وإعدام 146 فلسطيني، ونسف 5000 منزل فلسطيني.

تفككت حركة القسام ومنظماتها بسبب التناقض بين الأعيان المهيمنين على الحركة وفقراء الريف وعمال المدن، وفرار قرابة 40 ألف من أسر الأعيان إلى الدول العربية المجاورة، فضلاً عن نفي عدد كبير من قادة المقاومة. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تعاظمت الهجرة اليهودية إلى فلسطين ووجدت تعاطفًا كبيرًا في أوروبا معها بسبب تعرضها لعنف الفاشية الألمانية والنازية الإيطالية في هذا الوقت، وبذلك أفلتت المنظمات الصهيونية من سيطرة بريطانيا، التي كان يهمها في المقام الأول فرض السيطرة والاستقرار في الأراضي التي تقع تحت إدارتها، بل وضغطوا عليها بسلسلة من التفجيرات في إنجلترا نفسها، وتعاظم النفوذ اليهودي والصهيوني إلى درجة كبيرة داخل وخارج فلسطين فأصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم في 1947. ومع رفض القيادات الفلسطينية للقرار وتمسكها بالسيادة على أرضها فإن حركتهم كانت ضعيفة للغاية وممزقة والكثير من قادتهم كانوا منفيين آنذاك.

أعلنت المنظمات الصهيونية قيام دولتها المستقلة من تلقاء نفسها عقب قرار التقسيم وسعت لفرض أمر واقع على الأرض الفلسطينية، وترتب على ذلك تحرك قوات عربية من مصر والأردن والعراق وسوريا ولبنان إلى فلسطين لمواجهة التصرف الصهيوني والاستيلاء على الأراضي الفلسطينية. بهزيمة القوى العربية الرسمية فرض الصهاينة سيطرتهم على أغلب مساحة فلسطين متجاوزين قرار التقسيم، وهُجِّر ما بين

300000 إلى 500000 فلسطيني من قراهم وأراضيهم. وفي 1948 كان جل ما أمكن إنجازه بواسطة منظمة الأمم المتحدة هو إقرار حق عودة هؤلاء اللاجئين إلى بلادهم. وبدلاً من تنفيذ القرار حل محله وكالات الغوث التي أنشئتها تلك المنظمة لتتحول مشكلتهم إلى مجرد قضية إنسانية. وتلك كانت المعضلة الأولى التي واجهها النضال الفلسطيني، فلسطينيو المنفي الذين كان يزيد عددهم عن عدد فلسطيني الداخل في هذا الوقت. ووصفت نتائج الحرب بالنكبة.

المعضلة الثانية التي اعترضت طريق تحرير فلسطين هي الأنظمة العربية نفسها بعد حرب (أو هزيمة) 1948. يعتقد البعض أن عملية التطبيع مع الكيان الصهيوني، التي هرول إليها مؤخرًا العديد من الأنظمة العربية، وليدة الظروف التي نشأت عن هزيمة الثورات الشعبية التي استهلتها تونس في 2010. والواقع أن تلك العملية قديمة، وترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية وحكومات ما بعد الحرب، بل بالأحرى أنظمة ما بعد الاستعمار، سواء تلك تشكلت من السلطات التقليدية وحلفائها المحليين، أو الحكومات التي تشكل أغلبها من نظم انقلابية وعسكرية رفعت راية الاستقلال الوطني. وبوجه خاص التي تولدت عن ضباط في جيوش ذاقت مرارة الهزيمة في 48 وأصبحوا مسؤولين عن دولة وإدارة نظام اجتماعي واقتصادي ضعيف الإمكانات ولا يملك القدرة العسكرية والاقتصادية لخوض حرب. انشغل هؤلاء بمشروعات التنمية وبناء هياكل إدارية وخلق نظم قانونية وسياسية تقوم على أنقاض النظم البرلمانية والتشريعات شبه الليبرالية التي كانت قائمة وأيضا خلق مؤسسات أمنية تسمح لها بإحكام السيطرة على الجماهير. هكذا انصب تركيزهم على القيام بتغيرات داخلية متجاهلين إعطاء تحرير فلسطين أولوية. في معرض تلك الانشغالات قال عبد الناصر (إن الضباط الأحرار الذين قاموا بإسقاط النظام الملكي عام 52 إنما فعلوا ذلك ردًا على الأحداث في مصر لا في فلسطين، وأن مصر ستواجه نفس المصير ما لم تقاوم هيمنة القوى الخارجية وحلفائها المحليين)، حتى تلك الحكومات من طراز ناصر والضباط الأحرار ليس فقط هدئوا الأجواء المتوترة مع إسرائيل، بل خلقوا جسورًا وتفاهمات سرية معها في بداية حكمهم وحتى عام 1956 وذلك رغم الاستفزازات الصهيونية وشنها غارة على مصر في 1955، وانكسرت تلك الأجواء المهادنة والتفاهمية بالعدوان الثلاثي على مصر عقب إعلان تأميم قناة السويس. كما سعت بعض الحكومات العربية إلى توطين اللاجئين الفلسطينيين وتحويلهم إلى رعايا لها، خاصة الأردن، بعيدًا تمامًا عن فكرة العودة أو التحرير. وقد استخدمت مسألة فلسطين كورقة ضمن أوراق التنافس والصراع، وأحيانًا المزايدة وتبادل الاتهامات، بين الأنظمة العربية، وأحيانًا كورقة ضغط في فترة الهدنة مع العدو الصهيوني التي تلت حرب 1948، وتكفينا هنا الإشارة إلى ما تعرض له الفلسطينيون على يد بعض الأنظمة العربية، مثل أيلول الأسود في الأردن، وتل الزعتر في لبنان، وهو ما لا يقل بشاعة عن جرائم القوات الصهيونية نفسها.

التحدي الثالث أمام مسار التحرر الفلسطيني هو ما طرأ من تغيرات في الواقع السياسي الدولي.

للمقاومة الفلسطينية عدة محطات مرت بها منذ عشرينيات القرن الماضي، وكانت الأنظمة العربية السابقة على نظم التحرر الوطني تحتضن بدرجات مختلفة القضية الفلسطينية، وتسعى للسيطرة على حدود المقاومة الفلسطينية في ذات الوقت، وشكلت تلك النظم قوة عسكرية خاصة هي التي خاضت حرب 1948 ضد الكيان الصهيوني، ومع أن أثر هزيمة 48 كان سلبيًا على حركة المقاومة ومنظماتها الجنينية، بجانب أزمة القيادة التي أغلبها من الأعيان، والانقسامات التي شهدتها الحركة، والتهجير الذي حرم المقاومة من قوة بشرية كبيرة، غير أن أنظمة التحرر الوطني، رغم تفاديها استفزاز الكيان الصهيوني وسعيها لخلق تفاهمات سرية ومعلنة، فإن هذه التهدئة لم تكن تنطوي على ثقة متبادلة، وعلى العكس تمامًا كانت هناك مخاوف متبادلة من هجوم أحد الطرفين مجددًا على الآخر. كل ذلك مثل بيئة حاضنة للمقاومة الفلسطينية. على سبيل المثال كانت مصر الناصرية حاضنًا وحافزًا كبيرًا لعمليات المقاومة، بل إنها شكلت أول كتيبة من الفدائيين الفلسطينيين (كتيبة 141) ودربتهم وسلحتهم وخصصت لهم إدارة خاصة تدير عملياتهم وكانت تدفع رواتبهم. وقتذاك كان ينظر إلى الفدائيين الفلسطينيين باعتبارهم وحدة تديرها المخابرات المصرية.

> يعتقد البعض أن الهرولة إلى التطبيع مع الكيان الصهيوني، وليدة الظروف التي نشأت عن هزيمة الثورات الشعبية. والواقع أنها ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية وأنظمة ما بعد الاستعمار..

إيجازًا، انهارت تجربة ناصر وكل نظم التحرر الوطني، وفي غضون ذلك بدأت محاولات احكام السيطرة من قبل النظم العربية على المقاومة التي اتخذت طابعًا فلسطينيًا خالصًا، ووقعت مذابح كانت يد السفاح فيها هي أما أنظمة عربية حاكمة، أو تنظيمات رجعية تحت رعاية نظم عربية. لم توفر النظم الحاضنة القدر الملائم من الرعاية والحماية للفلسطينيين في الدول العربية خارج أرضها، سواء ضد الصهاينة وهجماتهم، أو ضد بطش الأنظمة الأشد رجعية. وتدريجيًا

تقلص وجود القوى الفلسطينية المسلحة والمنظمة وتقلصت مرتكزات النضال في دول المحيط العربي وبشكل خاص نتيجة لثلاثة أحداث كبرى: أيلول، وتل الزعتر التي شهدت تواطؤًا ضده من الجيش اللبناني، والكتائب المسيحية، والنظام السوري بقيادة الأسد الأب والجيش السوري، وكتائب فلسطينية تابعة للبعث السوري (تنظيم الصاعقة مثالاً) ودخول الجيش السوري بنفسه باتفاق مع إسرائيل والولايات المتحدة ليلعب دورًا مباشرًا في قصف تل الزعتر وغيره، ويمد القوات المسيحية الرجعية بالمؤن والسلاح، ويدير عمل الكتائب الفلسطينية التابعة له التي لعبت دورًا مخزيًا في سقوط المخيم، ثم أخيرًا الخروج من لبنان في 1982. وتدريجيًا أيضًا تحولت مواقف النظم العربية في الدول الحدودية إلى استضافة مشروطة وتفكيك أي وجود عسكري بل وحصار أي نشاط فلسطيني على أرضها أو عبر حدودها.

وقد حرم انهيار المعسكر الشرقي بالإضافة إلى انهيار وتحولات نظم التحرر الوطني المقاومة الفلسطينية من أهم مرتكزات قوتها ودعمها. ثم تلت ذلك التعقيدات الناشئة عن ظهور حركة حماس على الأرض ضمن قوى المقاومة الفلسطينية، والتي سعت لتحويل قضية التحرر إلى قضية دينية بين المسلمين واليهود، والتي - بهويتها الدينية المعلنة - خفضت من حجم التضامن الدولي الشعبي مع المقاومة الفلسطينية وارتبط وجودها بالمخاوف التي ولدها تيارات الإسلام السياسي المسلحة في دول الجوار، بل وأضعفت - على الأقل لنحو عقدين من الزمن - فرص العمل المشترك بين الفلسطينيين.

أوسلو: الحصار المنظم والتعاون

بعد خروج مصر من الصراع بسبب كامب ديفيد، وتلاشي الرطانة الرسمية العربية تدريجيًا، وصلنا إلى الاتفاقية التي أعلنت نهاية الصراع المسلح، بل والتنازل عن شعار تحرير كامل فلسطين من الاحتلال الصهيوني، وذلك بداية من إعلان المبادئ في سبتمبر 1993 الذي توج مراحل طويلة برعاية البيت الأبيض من المفاوضات السرية والعلنية. وانتهى بالاكتفاء بمنح الفلسطينيين مناطق تتمتع بحكم ذاتي مشروط تحت أعين الكيان الصهيوني، مع ضمان أمن ووجود إسرائيل نفسها، وإنهاء الصراع ليحل محله مراحل لا نهائية من المفاوضات. بموجب اتفاقيات أوسلو نشأت سلطة فلسطينية تحولت - إلى حد ما - لحرس حدود يحمي أمن الكيان الصهيوني ودولته. وقد حلت منظمات المقاومة محل ملاك الأرض القدامى والأعيان، وبوجه خاص منظمة فتح ثم منظمة حماس، شريحة جديدة من أثرياء الحرب الذين تبنوا أوسلو، وسعوا لتولي مناصب كبرى في دويلة الحكم الذاتي، وانفصلوا بالتدريج عن هموم الفلسطينيين الفقراء. بل وأقاموا علاقات ودية وأعمال مع قادة الدولة الصهيونية، وصارت لهم مصالح خاصة في إنهاء وتصفية الصراع. وهكذا وقع الفلسطينيون في فخ (أحبوا أعداءكم) وما يتطلبه من ولاءات وتنازلات القادة والأثرياء الرسميين الجدد إلى ما لا نهاية.

الداخل: جيل جديد غاضب

انتقل عبء المقاومة من المنظمات الفلسطينية الكبرى إلى جيوب صغيرة وقطاعات من الشباب الغاضب الغير منظم. هؤلاء الذين قادوا وشاركوا في انتفاضة الحجارة، وعمليات الطعن، وما شابه ذلك. غير أن التعنت الصهيوني، والغارات والاغتيالات من وقت إلى آخر لمدن وقادة فلسطينيون، جعل السلام محفوفًا بالخطر، والمخاوف تتزايد، ومن ثم كان

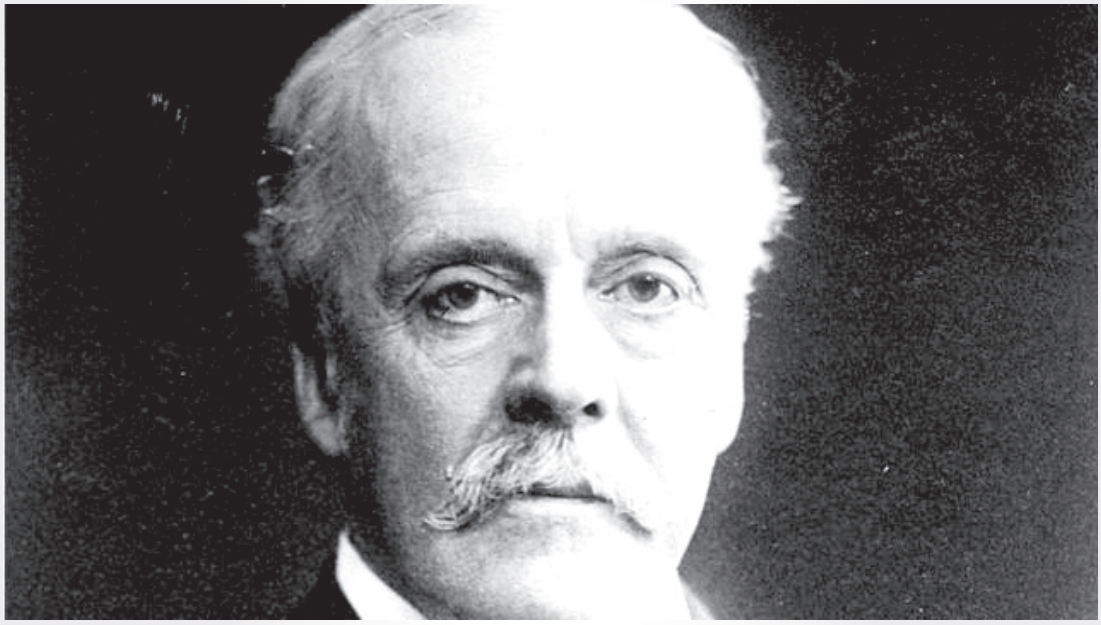

على القادة الفلسطينيين أن يوفروا قدرًا من الحماية لشعبهم، نتيجة لذلك بدأت عملية تصنيع صواريخ سرًا، واستخدام الأنفاق لأغراض متعددة، والدخول في اشتباك مسلح عند الضرورة كي لا يفلت الأمر من سيطرتهم. وكانت أعلى نقطة لهذا الواقع ما شهدناه في معارك حي الشيخ جراح، وما ترتب عليها من قصف. بطبيعة الحال كانت معركة محدودة للوصول إلى نقطة توازن، وليست بأي درجة معارك تحرير أو ضمن استراتيجية تحرر.

الى هنا نحاول التفكير بصوت مسموع في تعقيدات هذا الوضع، هل يمكن تحرير فلسطين ضمن هذه المعطيات؟

ومحاولة تقديم إجابة عن سؤال يتعلق بالمستقبل مهددة بالإخفاق دائمًا، أقرب لرسم سيناريوهات لمستقبل يصعب التكهن بمساره. لكنها مقاربة مرهونة بقدر الاقتراب من الواقع والالمام بمجرياته لا أكثر. وربما لذلك بالتحديد هي محاولة شديدة التعقيد وبالغة الصعوبة. يمكن أن نطرح فحسب بعض التصورات مصحوبة بتحفظنا ابتداءً على مدى صوابها، فالواقع دائمًا أكثر تعقيدًا من السيناريوهات المجردة. فقد تهز صواريخ القسام وعمليات الطعن وغيرها من العمليات إسرائيل من الداخل، وقد تزعزع استقرارها وأمانها، تسبب قدر من التصدعات والشروخ في حوائطها، بل وتساعد ربما في خلق هجرة عكسية بقدرما. لكنها لا يمكن أن تسقط دولة تملك قدرًا أكبر بما لا يقاس من التسلح، وقدرة على القمع ومصادر تمويل لا تزال هائلة حتى الآن، والأهم أنها تستند إلى شعب طبعت أغلبيته العظمى بأيدولوجيتها العنصرية وجعلته شريكًا كامل الشراكة في الاحتلال والقمع والتطابق مع نظامه في أطماعه وعنصريته. خاصة مع تعايش القيادات الفلسطينية البرجوازية مع الكيان الصهيوني وميلهم إلى تهدئة الصراعات بل ولعب دور الشرطي أحيانًا في وجه المقاومة. من ثم، في تصورنا، يتطلب الأمر بناء استراتيجية جديدة لتحرير فلسطين على ضوء المعطيات التي من بينها إمكانية كسب تعاطف وتضامن داخل بعض القطاعات من الإسرائيليين أنفسهم.

استخدمت مسألة فلسطين كورقة ضمن أوراق التنافس والصراع، وأحيانًا المزايدة وتبادل الاتهامات، بين الأنظمة العربية، وأحيانًا كورقة ضغط في فترة الهدنة مع العدو الصهيوني التي تلت حرب 1948

وإعادة بناء تنظيمات للمقاومة أكثر التصاقًا بشعبها ومتحررة من أهداف وحدود القيادات البرجوازية سواء الفتحوية أو الحماسوية، مع احتفاظها باستقلالها عن النظم التي قد تساعدها أحيانًا كورقة في لعبتها الدولية والإقليمية. ومع الوضع الدولي الراهن قد يكون من المهم جدًا لتحرير فلسطين انتصار ولو ثورة واحدة في دولة من دول المنطقة تمثل نقطة ارتكاز ومساندة وحليف في عملية التحرير. واعتماد سياسة دعائية تطمئن اليهود الذين ولدوا في فلسطين المحتلة أنهم لن يطردوا أو يضطهدوا، بل يمكن أن يصيروا مواطنين لهم كامل حقوق المواطنة في دولة التحرير. كما لا يجب التوقف عن سياسة الانتفاض أو الدفاع عن الأرض الراهنة، ويجب إدراك عدم كفايتها، ويجب تنظيم المشاركين فيها، واعتبارها معارك جزئية مهمة للتعبئة ولأضعاف العدو دون المراهنة عليها بأكثر من قدراتها. لقد أعطت المعارك الأخيرة زخمًا لقضية كادت أن تتحول إلى قضية منسية، يجب استثمار آثار ذلك في مخاطبة الشعوب العربية والأوروبية مجددًا وتطوير خطاب دعائي ملائم لهذا الغرض قبل أن تسقط مجددًا في النسيان لسنوات أخرى طويلة.

حرم انهيار المعسكر الشرقي وتحولات نظم التحرر الوطني، المقاومة الفلسطينية من أهم مرتكزات قوتها ودعمها، تلا ذلك ظهور "حماس" ضمن قوى المقاومة، والتي سعت لتحويل التحرير إلى قضية دينية بين المسلمين واليهود

مراجع:
1 - الكفاح المسلح والبحث عن الدولة. الحركة الوطنية الفلسطينية من 1948 إلى 1993. يزيد صايغ. إصدار "مؤسسة الدراسات الفلسطينية". بيروت 2002.
2 - تأملات في الغياب. الأرشيف الفلسطيني من حركة التحرر إلى دولة أوسلو. الجزئين الأول والثاني. هنا سليمان. رابط - https://www.jadaliyya.com/Details/38042
3 - تطور حركة المقاومة الفلسطينية بعد حرب 1967. ماهر الشريف - رابط: https://orientxxi.info/magazine/article1884
4 - علامات استفهام حول مستقبل فتح برئاسة محمود عباس، نيكولا دوت بوبار . كزافيي جينيار. ترجمة ندى يافي. رابط - https://orientxxi.info/magazine/article1647

الهبَّة الفلسطينية الأخيرة: استدعاء خطاب التحرير من جديد

محمد جميل

شهد الخطاب والأداء السياسي والتنظيمي للنشطاء والفاعلين الفلسطينيين في المجال العام خلال الأسابيع التي تلت الهبة الوطنية الأخيرة تراجعًا ملحوظًا، وتعثرًا في فخاخ تقليدية وأخرى جديدة استدرجتهم إسرائيل إلى بعضها. أهم أوجه هذا التراجع كان في التخلي جزئيًا عن شعار وحدة العنوان والفعل السياسي التي ربطت التجمعات الفلسطينية في غزة والداخل والضفة والشتات ببعضها بعضًا، والتي أضفت على الانتفاضة الأخيرة خصوصيتها، والتجزئة السياسية للعناوين الكبيرة ذات الصلة بشعار «التحرير» والانسحاب من جديد إلى العناوين الفرعية.

ففي الأسبوع الأول بعد أن هدأت حدة الهبة الشعبية في فلسطين بالتزامن مع إعلان وقف إطلاق النار في غزة، بدأ تسجيل التدني في مقدار الفعل السياسي اللازم لتأكيد استمرارية مفاعيل الانتفاضة وانحسار للمشاركة الجماهيرية فيها، وتركيز الاهتمام العام على حوادث التوقيف المتكررة والاعتداءات المنضبطة من قبل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية في حي الشيخ جراح في القدس، والتي كان ينفذها جنود الاحتلال عن قصد أمام عدسات المصورين الصحفيين والبث المباشر للقنوات الإخبارية، بغرض شد وضغط التفاعل الشعبي والعاطفي العام إلى أقصاه وإعادة تسريحه من جديد على نحو متكرر خلال مدى زمني قصير للغاية، إلى حين تحقق الإسرائيليين من استحكام مشاعر الفتور والملل تجاه ما يحدث، ليعودوا بعدها لاستكمال مخططات التطهير العرقي في القدس والشروع بعملية الانتقام الحقيقي مما حدث في الهبة المجيدة.

استطاعت إسرائيل أيضًا عبر الانتهاكات المدروسة والمنضبطة لجنودها أمام وسائل الإعلام الدولية وكاميرات الناشطين أن تصنع وتتحكم بالمحتوى الإخباري، وما تضمّنه من مقاطع فيديو وصور لحوادث الاشتباك بالأيدي بين المتظاهرين وعناصر الشرطة الإسرائيلية والمطاردات بينهم، وبالأساس حملات الاعتقال ومن ثم أخبار الافراجات بفاصل زمني لا يتجاوز بضع ساعات، والخطاب الشاعري المرافق لذلك والذي جعل هذه الحوادث تستأثر بموضوعه الذي كان يؤكد في الظهيرة أن الاعتقال لن يكسر إرادة التحدي، ليعود بعد ساعتين ويؤكد انتصار تلك الإرادة في سيناريو يتكرر خمس مرات خلال 48 ساعة. وبذلك، عبر خلق وبث هذا المحتوى الهائل والكثيف القادم من الشيخ جراح

للاعتداءات وعمليات الاعتقال التي تحدث بحق الصحفيين وأيقونات الهبة، عملت وتعمل إسرائيل على توظيفه في غسل صور الأسابيع الماضية التي علقت في الضمير العالمي لسلوكها في غزة على وجه الخصوص، من خلال زرع صورة زائفة ومصممة بعناية في المخيال العالمي لمستوى وشكل إجرامها الحقيقي في فلسطين؛ إسرائيل بموجبها، ليست تلك الدولة التي وفي أثناء عملية إنتاج ذلك المحتوى البصري والاخباري في الشيخ جراح، كانت قد انتهت من إحراق مئات الفلسطينيين في غزة وهدمت قسمًا معتبرًا من مبانيها بطائرات الإف 16 فوق رؤوسهم، وارتكبت مجزرتين في كل من رام الله وجنين في الضفة الغربية. ولكن تدوين هذه الملاحظة ينبغي إلا ينسينا توجيه التحية لعائلات الشيخ جراح وصمودها في وجه سياسات التطهير العرقي التي تنفذها إسرائيل بحقهم، وبحق الوجود العربي في القدس والشيخ جراح، وللبراعة التي أظهرها أبنائها في توظيف مآسيهم الخاصة لخدمة عنوان التحرر الوطني الفلسطيني، الذي لا يزال هناك متسع من الوقت لتدارك أوجه التراجع التي حدثت وحرفت اتجاه الفعل والخطاب عنه، الذي جاءت الهبة الوطنية الأخيرة لتؤكده كناظم واحد ووحيد لأي مشروع سياسي وأي أفق لفعل جماعي مهما كان طابعه للفلسطينيين، والتي وإن نجحت إسرائيل فرضًا في تفكيك كل تداعياتها، فإن ما لن تستطيع محوه من أذهان الفلسطينيين والعرب هو إنجازها الأهم المتمثل بإعادة الدفع بسؤال «التحرير»، تحرير فلسطين كاملة، إلى واجهة الخطوط الأولى للاشتباك بكل أشكاله ومواقعه مع إسرائيل.

تصويب المسار، أو بمعنى أدق، شق المسار البديل الذي يستلزمه شعار «التحرير» انطلاقًا من هذه اللحظة المجيدة التي عاشها الفلسطينيون لأسابيع في الفترة الأخيرة، يتستوجب آنيا مهمتين عاجلتين: الأولى، تثبيت برنامج عمل وطني جامع وقادر على استقطاب وتفعيل جهود التجمعات الفلسطينية. والثانية، حشد طاقات الشباب الوطني الفلسطيني وتعاونها في إعادة فتح المجال السياسي الفلسطيني وانتشاله من برَك الركود والضحالة التي غمرته بها اتفاقيات أوَسلو وأطر وديناميكيات العمل المرتبطة بها.

على صعيد البرنامج، فالأصل أن يتم العمل على تثبيت الحالة التي خلقتها الهبّة سياسيًا وإعلاميا، وحتى سيكولوجيًا بالمعنى الجمعي للفلسطينيين، بشد أواصر الالتصاق الشعبي بها وربطها بالقضايا الوطنية الرئيسية الأكثر تداخلاً بعنوان التحرير، والتي تمس وجدانيًا ومعيشيًا شرائح اجتماعية فلسطينية كبيرة. ولكن ما حدث أنه وبعد وضع المواجهة الأخيرة أوزارها، ونتيجة ربما لاستحكام منطق وعقلية «الإن جي أوز NGOS» في صفوف النخب الفلسطينية وأسباب أخرى، وفي إطار الآفاق الا بداعية المحدودة لهذا المنطق، فإن محاولات إدامة مفاعيل الهبة عبر وصلها بعناوين فعل أخرى لم تنجح في تجاوز مقترحات المبادرات الاجتماعية التقليدية، التي برتابة شكلها ومضمونها تثبط من عزيمة المواكبة الجماهيرية لها، وهبطت بسقف الفعل الشعبي الممكن إلى مستويات جعلت الانخراط به مقتصرًا على فئات من خلفيات اجتماعية وجغرافية محددة.

حيث إن مستوى الحشد الجماهيري والمضمون السياسي والعاطفي الكثيف للهبة، كان بحاجة لعنوان سياسي كبير للحفاظ على اتقاد شعلته والبناء عليه، فقد كانت الفرصة سانحة لوضع قضية كقضية تحرير الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال على رأس برنامج عمل استكمال الهبة، والدعوة لحشد وطني وعربي ودولي كبير يُحدث إنجازا نوعيًا في هذا الملف، الذي هو مأساة شخصية لأفراد آلاف الأسر وبخاصة في الضفة الغربية، وهي قضية تمس وجدان كل أسير محرر وأسرته والفلسطينيين في عمومهم، والذين بدورهم كانوا سيشكلون حاملاً جماهيريًا هائلاً لهذا الفعل، خصوصًا وأن الحديث يتزايد الآن عن قرب التوصل إلى صفقة تبادل للأسرى بين المقاومة الفلسطينية وإسرائيل. كذلك فإن عنوان فك الحصار عن غزة الذي لا أفق ممكن لأي اختراق فيه إلا بحراك يبادر إليه فلسطينيو الضفة والداخل بالدرجة الأولى، كان يصلح ترشيحه كعنوان لاستنهاض طاقات وطنية هائلة، خصوصًا في ظل التعاضد والالتحام الوطني العام الذي كان قائما في الأسابيع الماضية. خصوصًا وأن قطاع غزة اليوم هو حلقة الفعل السياسية والتنظيمية المركزية الأولى لدى الفلسطينيين وخزان مقدراتهم الأساس، الذي وعلى الرغم من الحصار المفروض عليه فإنه الأكثر اتصالاً سياسيًا وتنظيميًا مع الوجود الفلسطيني في الشتات

كانت الفرصة سانحة لوضع قضية كقضية تحرير الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال على رأس برنامج عمل استكمال الهبة، والدعوة لحشد وطني وعربي ودولي كبير يُحدث إنجازًا نوعيًا في هذا الملف..

والعمق العربي والإسلامي للفلسطينيين بالمعاني التي تتصل بالمضامين التحررية للفلسطينيين. ومن ثَم، فإن فك الحصار عن غزة أو النجاح في تخفيف بعض قيوده، من شأنه أن يحرر طاقات وطنية هائلة ويعزز إسهامها في مسار التحرير وتحقيق الربط التنظيمي الحقيقي بين مسارات العمل التحرري للفلسطينيين في كافة بقاع تواجدهم.

في ملف القدس، فإن الهبة كانت تُلزم الفلسطينيين بمقاربة أشمل له وأكثر تسييسًا وربطًا بسؤال التحرير الكلي من الصيغة التي كانت متداولة لدى إطلاق شرارة الهبة، تثبّت القدس من دون تقسيماتها الاستعمارية، ولو على مستوى الخطاب، عاصمة سياسية وتاريخية للفلسطينيين، وتضع على طاولة بحث استراتيجيات المجابهة، المحددات القانونية الاحتلالية التي تكبل بها إسرائيل حياة الفلسطينيين من حملة هوية القدس وتكدر عيشهم بهدف دفعهم للخروج منها، وإجراءات التهويد والتدمير التي تتعرض لها الأماكن المقدسة، وسياسات التطهير العرقي التي تتبعها بحق الوجود العربي المسلم والمسيحي في المدينة.

وفي الداخل المحتل، رسَّخت انتفاضة الفلسطينيين الانفصال السياسي والنفسي الذي بات ماثلاً ماديًا على الأرض خلال الهبة الأخيرة بين الطبقة السياسية المنخرطة في لعبة التمثيل العربي في الكنيست ومؤسسات المجال السياسي الصهيوني من جهة، والحس الوطني الفلسطيني الذي لا لبس فيه والذي أظهرته الجماهير الفلسطينية في مدن اللد وحيفا وعكا والمثلث وغيرها من جهة أخرى. هذا النفير الوطني العام والغير مسبوق لفلسطينيي الداخل، والذي نقل أبعاد وحقائق المأزق الديموغرافي بين العرب واليهود بالنسبة لإسرائيل إلى مستويات إرباك شديدة فاجأت أجهزة أمنها الداخلي وأضاءت كل المصابيح الحمراء لديها، فتح فصلاً جديدًا في المواجهة بين العرب والصهاينة على أرض فلسطين التاريخية، الحق ألا أحد في الجانبين توقعه وتخيل أشكال تعبيره عن نفسه، ولكنه وهو أمر جلل وفارق في مسار التحرير، يلقي بشكل عاجل على عاتق القيادات الفلسطينية المحلية هناك مهمة تنظيمه وإدارته، ليس فقط لرفد مسار التحرر العام به، بل لتوظيفه كذلك في إسناد أجندات النضال الفرعية المتعلقة بتحسين ظروف فلسطينيي الداخل المعيشية، ومواجهة سياسات التدمير الاجتماعي المنهجية كالتجهيل ونشر سلاح الجريمة والمخدرات والتمييز في القطاعات الحيوية كالتعليم والصحة ضدهم، والرعاية الإسرائيلية الخفيّة لمختلف الآفات المجتمعية وبخاصة تلك المتعلقة بالتعدي على المرأة بغرض تفتيت نسيج مجتمع الداخل وإضعافه ليظل خاضعًا ومستكينًا لهيكل علاقات القوة الاستعمارية المفروض على العرب داخل الكيان الإسرائيلي.

والمهمة الثانية التي تطرح نفسها بإلحاح على

جدول أعمال كل الفلسطينيين محورها: ضرورة إعادة «تسييس» Politicizing المجال العام. وذلك بتثبيت ركائز خطاب سياسي وطني بديل تخطّ إطاره العام وترسم حدود مجاله الذي ينبغي أن يتسع لكل المفردات الوطنية، برامج كانت أو أفرادًا، على طريق التهيئة لعملية تاريخية ترث فيها هذه المفردات القيادة ومسؤولية حمل الخطاب وتنفيذه عن المنظومة الحالية المتكلسة التي جففتها مفاعيل التصحر والتجريف السياسي والتنظيمي التي اجتاحتها في كل مواقعها. وفي أثناء الاستعداد لإتمام هذه المهمة التي يتحقق إنجاز الجزء الأكبر منها فقط عبر الالتحام المباشر بالناس وتقدم صفوف كل أشكال المواجهة مع إسرائيل، ينبغي مكافحة الآفات التي تكبّل أي حراك جدّي في المجال السياسي الفلسطيني، وأبرزها عملية «أنجزة»NGOization المجال العام عبر المؤسسات الغير حكومية الممولة غربيًا وأنشطة «اللاتسييس» Depoliticizatio التي تغرقه بها، والتي في مآلها النهائي تسعى لتحويل النضال الوطني الفلسطيني إلى «مبادرات اجتماعية» صبيانية منزوعة المضمون السياسي والتحرري الجاد، واستبدال المناضل السياسي بالموظف البيروقراطي المسمى «ناشطا اجتماعيًا». وينبغي تنظيف خطاب الفلسطينيين من الهوس بمخاطبة الرجل الأبيض الذي بات الصوت الفلسطيني في الإعلام يبدو كما لو كان مصممًا خصيصًا لمسامع رجل أبيض يفترض المخيال السياسي لقطاع من النخبة الفلسطينية أنه موجود ومتفرغ فقط لاستقبال رسائلهم له، وهو أمر بالغ الضرر كونه يشطب تلقائيًا الشعب الفلسطيني من الخارطة العقلية لهذه الخطاب بدلاً من أن يكونوا موضوعه الأساسي والمعني الرئيسي باستقباله. أخيرًا، وكما هو الحال في كل انتفاضة شعبية في فلسطين وخارجها فإن سؤال «التنظيم» باعتباره الأداة الرئيسية لتسييس المجال العام ومن ثم تفعيل وإدارة العمل السياسي فيه، يظل الاختبار الفعلي لأي انتفاضة شعبية وكل جهد وطني يتصدى لمهامها، وفي الحالة الفلسطينية فإن مقاربة هذا السؤال تكتسب خصوصية مدعاها أن الشعب الفلسطيني في عمومه مؤطر ومحزَّب سياسيًا، وأن الأجسام السياسية لهذا التأطير ممثلة بقواه السياسية والاجتماعية حية وعاملة ونشطة، ما يعني بأن أي عملية إعادة تأسيس أو حتى إصلاح للمجال السياسي لن تتم بالانقلاب على مكوناته والتنكر لها، و إنما بتهيئة عملية انتقال ووراثة لمركز القرار ونواظمه وأدواته إلى شخوص وبرامج وحتى مواقع جغرافية جديدة، الذين ومهما بدا الطريق إلى «التحرير» بعيدًا عنهم، فإن ظلاله في الشهر الماضي كانت حاضرة في خلفية المشهد الذي صنعوه، كما لم تحضر منذ زمن بعد.

الوحدة والكرامة والأمل
التطلع إلى الأمام لا العودة

ندا إيليا
أكاديمية وقيادية بمنظمة دياسبورا

ترجمة: أميمة صبحي

تكرار ما حدث في عام 1948 في فلسطين، وفي مايو 2021، حاول المستوطنون الإسرائيليون بعنف إخراج الفلسطينيين من منازلهم في حي الشيخ جراح بالقدس، كي يحلوا محلهم. في هذه الجولة الأخيرة من محاولات الطرد، شُردت 28 عائلة فلسطينية، وذلك في إطار الجهود الإسرائيلية المستمرة لتهويد المدينة التي طالما كانت تاريخيًا ملاذًا للتنوع. في حوار صوِّر بهاتف محمول، أخبرت منى الكرد البالغة من العمر 22 عامًا يعقوب فوسي؛ المستوطن القادم من لونج آيلاند في نيويورك، أنه يسرق منزلها، فأجاب "إذا لم أسرقه، سيسرقه غيري". ويتساءل فوسي لماذا هي مستاءة منه شخصيًا. فقد استقر في ذهن المستعمر أن مصير الفلسطينيين الحتمي أن يُسلبوا ممتلكاتهم، فلماذا لا يكون هو الشخص الذي يسرق منزل عائلة الكرد، الذي يقطنونه منذ عشر سنوات؟ لكن عائلة الكرد كانت مصممة على عدم الخروج.

وكانت "رفقة" جدة منى الكرد، التي توفيت فقط في يونيو 2020 عن عمر يناهز 103 أعوام، رمزًا للمقاومة الفلسطينية والإصرار على حق العودة. وكما كتب شقيق منى الكرد التوأم؛ محمد، فإن رفقة كانت "أكبر من إسرائيل نفسها. لهذا فقد أشاد المقدسيون بها كـ"أيقونة المقاومة الفلسطينية". ويُذكر أنها خلال نكبة عام 1948، غادرت رفقة "منزلها المرتب النظيف، ولم تكن تعلم أنها ستجهزه للمستعمرين". يذكرها محمد الكرد، الذي نشر كتابًا شعريًا يحمل اسم جدته بأنها "مناضلة من أجل الحرية، مسعفة للجميع، تساعد المتظاهرين المصابين بالغاز المسيل للدموع بالزبادي والبصل". وقد اشتهرت رفقة الكرد بقولها إنها لن تترك منزلها في الشيخ جراح إلا لتعود إلى المنزل الذي فرت منه عام 1948 في حيفا.

لكن في عام 2021، وفي حيفا نفسها، وكذلك في الرملة واللد، كان الإسرائيليون يتجولون مرة أخرى في الشوارع بحثًا عن منازل بأسماء عربية، ويهددون بمهاجمتها في الليل. وتمتعت الحشود المشاركة في عمليات "لينش" والتي كانت تهتف "الموت للعرب" بحماية ضباط الشرطة الإسرائيلية، الذين قاموا لاحقًا باعتقال المتظاهرين الفلسطينيين، بدلاً من مثيري الشغب اليهود الإسرائيليين. أما قطاع غزة، الذي عُزل عن بقية العالم لما يقرب من أربعة عشر عامًا، فقد تعرض مرة أخرى لهجوم عسكري إسرائيلي، بضربات جوية وتهديدات بالاجتياح البري. كما نزل الفلسطينيون إلى الشوارع في الضفة الغربية، احتجاجًا على تصرفات إسرائيل داخل حدود عام 1948، وكذلك ضد ما يحدث في قطاع غزة؛ في عرض للوحدة الوطنية ضد الاستعمار الذي لم نشهده منذ ثورة 1936 ضد بريطانيا العظمى القوة الاستعمارية الكبرى

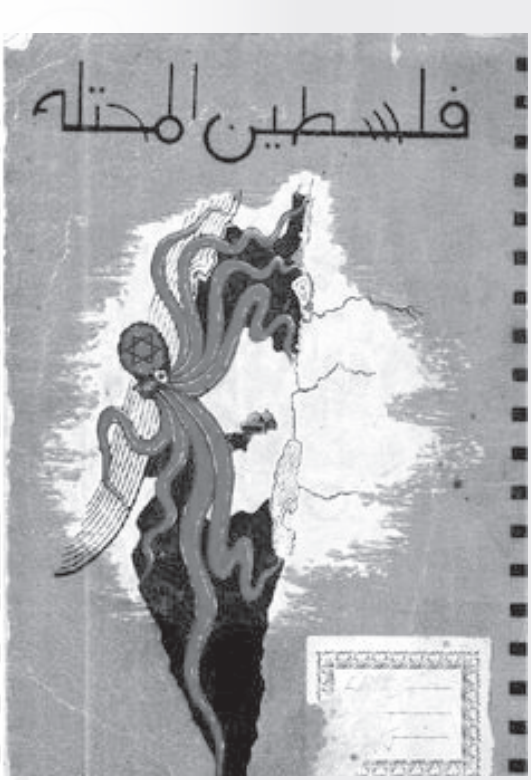

آنذاك. الرعب الذي يعيشه الفلسطينيون في جميع أنحاء الوطن يعادل رعب السنوات الكارثية من 1948-1947؛ أي في بداية النكبة.

التحرير في متناول أيدينا

لكن هذه المرة كان هناك أيضًا شعور جديد بالتحدي، والتفاؤل الحذر، وقناعة بأن التحرير كان في متناول اليد أخيرًا، وذلك بسبب القيادة الشعبية الجديدة للشباب، مع وجود قوي للنساء وأعضاء من مجتمع الكوير، سواء في الوطن أو في الشتات، وقد كانوا يرتفعون فوق الانقسامات التعسفية التي فرضها الظالمون. حتى مع كل ما يذكر بالماضي المروع، والمخاوف الهائلة، والخسائر، كان الفلسطينيون في اللحظة الحالية يتطلعون إلى الأمام، وليس إلى الوراء، ويؤكدون أن "التحرير في متناول أيدينا". لقد أوجد المزاج السائد في الشوارع طاقة جديدة. وكانت هذه انتفاضة الوحدة والكرامة والأمل، ليس فقط من النهر إلى البحر، بل أيضًا من النهر إلى قلب أرض العدو، مع الأخذ بعين الاعتبار عوامل الداعم الأول لجرائم إسرائيل؛ الولايات المتحدة، الدولة التي كانت تموِّل أمثال يعقوب فوسي للسيطرة على القدس.

على الرغم من بشاعة اللحظة الحالية، فقد ساد شعور مماثل بالتفاؤل في الولايات المتحدة أيضًا. لم يكن هذا بالتأكيد بسبب حقيقة أننا تخلصنا أخيرًا من دونالد ترامب. فلم يتوهم أي ناشط حقوقي فلسطيني أن الرئيس الجديد، جو بايدن، سيكون أقل صهيونية من سلفه. ويتذكر الكثير منا أنه في وقت مبكر من عام 1986، صرَّح بايدن "إذا لم تكن هناك إسرائيل، فسيتعين علينا ابتكارها"، مضيفًا أن "دعم أمريكا لأمن إسرائيل لا يتزعزع". وقد أثبت بايدن وفائه بكلمته، إذ فشل في توبيخ وإدانة إسرائيل بشكل مناسب على هجماتها على الشعب الفلسطيني في عام 2021.

وهكذا فإن التفاؤل في أمريكا الشمالية لم يأت من تغيير القيادة في هذه القوة الإمبريالية، التيَ أثبتت مرارًا وتكرارًا أنها ستقف دائمًا إلى جانب المستعمر، الظالم. إن "القيم المشتركة" التي يتم الترويج لها كثيرًا بين إسرائيل والولايات المتحدة متجذرة بالفعل في كونها دولا استعمارية تجرد السكان الأصليين وتدمر ثقافات السكان الأصليين من أجل خلق ثقافة جديدة بالعنف.

> أخبرت منى الكرد يعقوب فوسي؛ المستوطن من لونج آيلاند في نيويورك، أنه يسرق منزلها، فأجاب "إذا لم أسرقه، سيسرقه غيري". ويتساءل لماذا هي مستاءة منه شخصيًا. ففي ذهن المستعمر فوسي، فإن مصير الفلسطينيين الحتمي أن يُسلبوا ممتلكاتهم، فلماذا لا يكون هو!

لقد كُتب على اللافتات التي رُفعت في الاحتجاجات التي طالت جميع أنحاء العالم "كل مدينة إسرائيلية كانت ذات يوم الشيخ جراح"، لكن الفلسطينيين، وكذلك حلفائنا يتذكرون أيضًا أن كل قرية وبلدة ومدينة أمريكية كانت ذات يوم ملكًا للأمريكيين الأصليين. لقد بدأت النكبة الفلسطينية عام 1948، وبدأت نكبة الأمريكيين الأصليين قبل ذلك بقرون، مع وصول الأوروبيين الأوائل إلى هذه الشواطئ في أواخر القرن الخامس عشر. وكان هذا الاعتراف بالتأكيد في طليعة المسيرات في مايو 2021، حين خرجت مختلف المجتمعات المحرومة تضامنًا مع الشعب الفلسطيني، ولكن أيضًا مع ملايين الأشخاص المضطهدين هنا؛ في الولايات المتحدة الأمريكية.

حل الشعور بالتفاؤل في الولايات المتحدة من موجة التأييد الشعبية والتضامن الشعبي، كما شوهد في مسيرات إحياء ذكرى النكبة في جميع أنحاء البلاد. فيما وُصف بحق بأنه

"لحظة تاريخية"، كانت بعض أكبر الاحتجاجات والتجمعات على الإطلاق لدعم حقوق الفلسطينيين تحدث في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وأظهرت هذه الاحتجاجات أيضًا وحدة لم نشهدها على هذا النطاق من قبل. رفعت عشرات الآلاف من الأعلام الفلسطينية في جميع أنحاء البلاد، لكن هذه لم تكن الأعلام الوحيدة التي رفعتها الحشود المتنوعة عاليًا؛ ففي شيكاغو ونيويورك وسان فرانسيسكو وسياتل ومدن أخرى كبيرة وصغيرة، وكان إحياء ذكرى النكبة أيضًا احتجاجًا ضد جميع أشكال الإمبريالية والعنصرية والعسكرة والتفوق العرقي. تضمنت جميع مسيرات حقوق فلسطين تقريبًا، وحملة "حياة السود مهمة"، وسيادة السكان الأصليين، وحقوق اللاجئين، ومنظمين وناشطين مناهضين للإمبريالية في الفلبين. وفي بعض المدن الكبرى مثل شيكاجو ونيويورك، وانضمت أعلام أيرلندا، وبورتوريكو، وكولومبيا، والأرجنتين، وهايتي، والعديد من البلدان الأخرى إلى الأسود والأحمر والأخضر والأبيض؛ لنصرة فلسطين. من ناحية أخرى، كانت المسيرات المؤيدة لإسرائيل عبارة عن بحر من الأزرق والأبيض، وعلم إسرائيل مع نجمة داود في الوسط، مع بعض النجوم الأمريكية والأعلام المخططة، وكما هو متوقع الآن بعض من أعلام ترامب، وبعض أعلام الكونفدرالية.

> تمتعت الحشود المشاركة في عمليات لينش والتي كانت تهتف "الموت للعرب" بحماية ضباط الشرطة الإسرائيلية، الذين قاموا فيما بعد باعتقال المتظاهرين الفلسطينيين، بدلاً من الغوغاء اليهود الإسرائيليين

وبعيدًا عن المسيرات، أصدرت مئات المراكز والمجلات الأكاديمية في جميع أنحاء البلاد بيانات دعم لفلسطين. وهذا أمر مهم بشكل خاص بالنظر إلى حقيقة أن أعضاء هيئة التدريس والطلاب طالما تعرضوا للرقابة والتخويف والمضايقة والتهديد منذ فترة طويلة في الجامعات الأمريكية، بسبب دعمهم لفلسطين. وبالمثل، فإن وسائل الإعلام الرئيسية، من نيويورك تايمز إلى سي إن إن CNN، والتي كانت دائمًا لسان حال الدعاية الصهيونية، نشرت وأجرت مقابلات مع فلسطينيين. يبدو إذن أن

مثابرتنا قد أحدثت فرقًا، حيث وصلنا أخيرًا إلى الكتلة الحرجة، مع تحول كبير في الخطاب النقدي. بالإضافة إلى نخبة الأوساط الأكاديمية وقراء نيويورك تايمز، كانت مجموعات مسرحية مستقلة تنظم ندوات لمناقشة المقاطعة الثقافية، استجابة للدعوة الفلسطينية لحركة BDS؛ وهي حركة مقاطعة البضائع، التي انتشرت للمرة الأولى في عام 2005. وقد حاول اللوبي الإسرائيلي جاهدًا تجريم حملات المقاطعة في الولايات المتحدة، لكن المنظمات الشعبية وجماعات الحقوق المدنية مثل منظمة فلسطين القانونية، عملت بجد لضمان عدم حدوث ذلك. وبنفس القدر من الأهمية، إن لم يكن الأهم، كانت النقابات العمالية أيضًا تقف إلى جانب فلسطين، ورأت نفسها في صراع مشترك ضد طبقة مضطهدة. وهكذا دعا المركز العربي للموارد والتنظيم في كاليفورنيا إلى تحرك "إيقاف السفن"، ورفض عمال الرصيف تفريغ سفينة شحن، الأمر الذي كلف شركة "زيم" الإسرائيلية ملايين الدولارات.

ومع انتشار تسجيل الهاتف المحمول ليعقوب فوسي وهو يصرخ في منى الكرد على وسائل التواصل الاجتماعي، أدرك العديد من الأمريكيين أخيرًا ما فهمه الفلسطينيون وحلفاؤهم منذ فترة طويلة: الصهاينة هم المعتدون. وهذا ما يثبت أن عقودًا من العمل التي قام به الفلسطينيون وحلفاؤهم، والتي غالبًا ما كانت مكلفة للغاية، لم تذهب سدى.

القيم المشتركة للقوى الاستعمارية

في الولايات المتحدة، كان السكان الأصليون، والمستَعمرون، والمضطهدون المحرومون من حق التصويت، قد فهوا الأمر، وصاروا في صف الفلسطينيين. وقد عبّرت The Red Nation عن هذا بشكل أفضل، في بيانها الذي يؤيد مقاطعة البضائع الإسرائيلية، إذ أكدت أن "فلسطين هي المقياس الأخلاقي الأساسي لأمريكا الشمالية". ويتضح أيضًا في التضامن الأسود الفلسطيني الذي يظهر الآن في كل احتجاج ضمن حملة "حياة السود مهمة" في البلاد. وهذا التضامن ليس بأي حال من الأحوال ظاهرة جديدة، فقد بدأ في الستينيات، مع حركة العالم الثالث لمناهضة للاستعمار، وحركة الفهود السود وأنجيلا واي دايفيز، ولكن تم إحياؤه مجددًا في شوارع المدن الأمريكية الكبرى، حيث كانت أعمال الشغب التي اندلعت ضد وحشية الشرطة الأمريكية. واعترف الفلسطينيون على الفور بالشرطة الأمريكية كشكل من أشكال الاحتلال، وقدموا نصائح للمحتجين السود، بينما أوضحوا أيضًا أن العسكرة المفرطة لقوات الشرطة الأمريكية مرتبطة بتدريبهم مع القوات الإسرائيلية.

على الرغم من بشاعة اللحظة الحالية، ساد شعور مماثل بالتفاؤل في الولايات المتحدة. ولم يكن هذا بسبب حقيقة أننا تخلصنا أخيرًا من دونالد ترامب، فلم يتوهم أي ناشط حقوقي فلسطيني أن الرئيس الجديد، جو بايدن، سيكون أقل صهيونية من سلفه..

ومن ناحية أخرى، أصبح واضحًا أيضًا أن أسوأ العنصريين في الجانب الأمريكي مع إسرائيل. وينجذب هؤلاء إلى الإحساس المطلق بالاستحقاق، والتقدير المبالغ فيه للنفس الذي يشعر به الصهاينة.

وفقًا لملفه الشخصي على وسائل التواصل الاجتماعي، فإن يعقوب فوسي، المستوطن الذي كان يجلس في منزل عائلة الكرد، من المعجبين بالرئيس السابق دونالد ترامب. قبل بضع سنوات، في عام 2017، أوضح ريتشارد سبنسر، المؤمن بسيادة العرق الأبيض، والزعيم الفعلي لليمين البديل في الولايات المتحدة، لمذيع إخباري إسرائيلي أن "مواطنًا إسرائيليًا، شخصًا يفهم هويتك، لديه إحساس القومية والشعبية، وتاريخ وخبرة الشعب اليهودي، يجب أن تحترم شخصًا مثلي، لديه مشاعر مماثلة تجاه البيض. يمكنك القول إنني صهيوني أبيض - بمعنى أنني أهتم بشعبي، أريد أن يكون لنا وطن آمن لنا ولأنفسنا. مثلما تريد وطنًا آمنًا في إسرائيل".

ومن أقوال بايدن في عام 1986 أنه "إذا لم تكن هناك إسرائيل، فسنضطر إلى اختراعها"، إلى زعيم العرق الأبيض ريتشارد سبنسر الذي قال إن الصهاينة يجب أن يتواصلوا معه، لأن الصهاينة مثلهم مثل المتعصبين للبيض، حتى وصلنا إلى يعقوب فوسي؛ الذي أخبر منى الكرد أن بيتها سوف يُسرق، إن لم يكن من قبله، فمن قبل مستوطن آخر. وهذا ما يؤكد أنه خيط واحد يمر عبر تاريخ الولايات المتحدة وإسرائيل: الاستعمار، وخلقه العنيف لدولة متعصبة. هذا، أيضًا، لم يمر دون أن يلاحظه أحد من قبل التقدميين، الذين كانوا يؤمنون تمامًا بالدعاية الإسرائيلية، وادعائها بأنها "ديموقراطية".

الإلغاء لا الإصلاح

الاستعمار في الأساس نظام عنصري وعنيف. وهو على هذا النحو، مثل غيره من الأنظمة القمعية العنيفة بشكل فاضح، لا يمكن إصلاحها، بل ينبغي إلغاؤها. على سبيل المثال، لم يكن مؤيدو إلغاء العبودية يسعون إلى عبودية "ألطف وأطيب". لقد عرفوا جيدًا أنه لا توجد فائدة من الاعتقاد بأنك قادر على إصلاح نظام يجرد الآخرين من إنسانيتهم. وبالمثل؛ لا يمكنك "إصلاح" الاستعمار الاستيطاني، الذي يقوم على "القضاء على السكان الأصليين"، كما كتب باتريك وولف، الباحث الراحل في دراسات السكان الأصليين، أو كما كتب أراد كيرتس كتابته في كتاب "الإبادة الوحشية"، وهو كذلك الشخصية المحورية في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد، القصة اللعينة للاستعمار البلجيكي في الكونغو.

بالطبع لا يمكنك إصلاح الفصل العنصري؛ ولا التكييف القانوني لعدم المساواة. إذ كيف سيكون شكل "الفصل العنصري اللطيف الطيب" بالضبط؟ ينبغي إلغاء الأنظمة التي تقوم على الظلم. وحتى في أثناء عملنا على إلغائها، يجب أن نبني بنشاط البديل. وفي مايو 2021، بينما يحيي الفلسطينيون وحلفاؤنا ذكرى النكبة، لم نكن فقط ندين الاستعمار الاستيطاني، بل إننا من خلال تحليلنا متعدد الجوانب، وفهمنا العضوي للنضال المشترك ضد العنصرية البنيوية، وتشريعنا للتضامن، كنا نبني البديل.

يهود من أجل السلام: مأساة فلسطين أزمة أخلاقية

أليس روتشيلد
قيادية بحركة يهود من أجل السلام

ترجمة: أسماء يس

في الولايات المتحدة خلال عقد التسعينيات، تضافرت جهود عدد متزايد من الجماعات التقدمية الشعبية اليهودية المناهضة للاحتلال، بما في ذلك منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام JVP، والتي بدأت بثلاث نساء في عام 1996 في بيركلي، كاليفورنيا. وقد انطلقت المنظمة في عام 2001 ونمت تدريجيًا لتصبح منظمة وطنية بحلول عام 2005، وضمت العديد من المجموعات الأصغر في جميع أنحاء البلاد.

ومنظمة الصوت اليهودي من أجل السلام لديها الآن نحو 70 كتابًا، و15 فصلاً طلابيًا، ونحو 20.000 عضو دافع للاشتراكات. بالإضافة إلى 150.000 متابع على تويتر Twitter و330.000 متابع على إنستجرام Instagram، و650.000 من المتابعين عبر الإنترنت. وفي الولايات المتحدة تمتلك منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام أكبر عدد لمتابعين على فيسبوك Facebook من أي منظمة يهودية أخرى.

وقد وصلت مشاركات منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام إلى 17.5 مليون شخص على فيسبوك، وخمسة ملايين على إنستجرام، و8.75 مليونا على تويتر. وتضم المنظمة أيضًا مجلسًا حاخاميًا، ومجلسًا للفنانين، ومجلسًا استشاريًا أكاديميًا، ومجلسًا استشاريًا للصحة، ومجلسًا استشاريًا مكونًا من كبار المثقفين والفنانين الأمريكيين. وفي خلال السنوات القليلة الماضية، تراوحت ميزانية منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام السنوية من 3 إلى 3.5 مليون دولار سنويًا، وذلك بمتوسط 75 دولارًا لكل متبرع.

معتمدة على التقاليد اليهودية، ركزت منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام في البداية على إنهاء احتلال الضفة الغربية والقدس الشرقية وغزة، والتمسك بالقانون الدولي، وحقوق الإسرائيليين والفلسطينيين في الأمن وتقرير المصير. وتضمن عملها تثقيف الرأي العام الأمريكي، وتغيير السياسات الخارجية للولايات المتحدة، والدعوة إلى وقف جميع المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل حتى ينتهي الاحتلال، والعمل من أجل حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بما يتوافق مع القانون الدولي العادل، وإنهاء العنف ضد جميع المدنيين.

ومع نمو المنظمة ونضجها، بدأت قضايا أخرى في طليعة أنشطتها. قدمت منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام دورات تثقيف مكثف عن النكبة بين أعضائها، وخرجت لدعم مقاطعة المنتجات الاستيطانية الإسرائيلية، وبحلول عام 2015، دعت لدعم حركة المقاطعة الكاملة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، بما في ذلك المقاطعات الثقافية والأكاديمية. وقد نظمت حركة "يهود ملونون" فاعليات حول مناهضة العنصرية وتفوق البيض داخل وخارج المنظمة. وتطورت سياسة منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام لتبني موقف معاداة الصهيونية بحلول عام 2019، وعملت على بناء اليهودية والممارسة الدينية اليهودية خارج الصهيونية

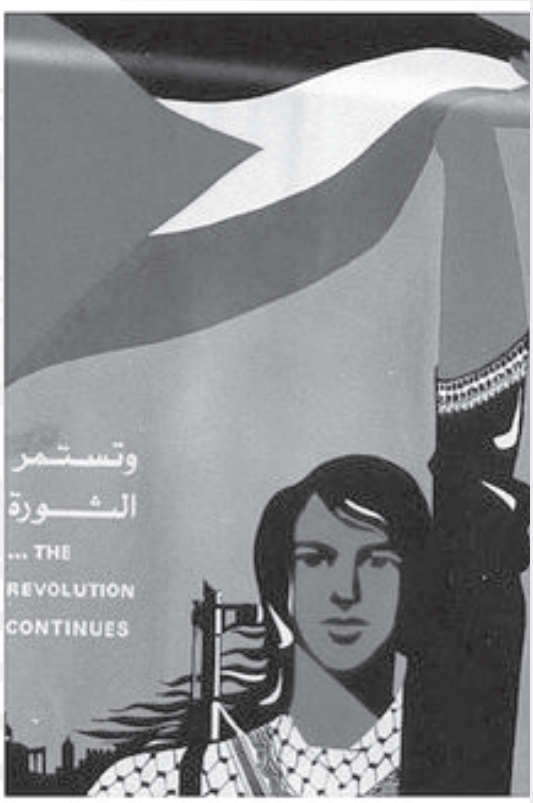

من خلال شبكة هافوراه Havurah، والفعاليات الثقافية والمجلس الحاخامي.

وفي عام 2019، ولدت منظمة أفعال الصوت اليهودي من أجل السلام Action JVP، وهي حركة وطنية متعددة الأجيال ومتعددة الأعراق تعمل من أجل تحقيق العدالة لجميع الفلسطينيين والإسرائيليين من خلال تغيير السياسة الخارجية للولايات المتحدة والضغط على الكونجرس الأمريكي. وتدعم منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام نشطاء السلام في فلسطين وإسرائيل، وهي في سبيل ذلك تعمل ضمن ائتلاف واسع مع شركاء آخرين من اليهود والعرب الأمريكيين والقائمين على مبادئ الدين والسلام والعدالة الاجتماعية، فيما يخص القضايا الشائكة. كما ترى أن المسؤولية المشتركة مع الشركاء الفلسطينيين هي جوهر عمل منظمة.

توجد العديد من الأمثلة المهمة على عمل منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام، والتي تعكس تغييرات أوسع داخل المجتمع اليهودي، وظهور الاستعداد - وبخاصة بين الشباب اليهود - للتشكيك في ولاء آبائهم غير الناقد لإسرائيل، والرغبة في نزع الاستثناء عن إسرائيل سياسيًا وشخصيًا ومحاسبة الدولة على ما أفعالها. وتساعد حملة منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام Deadly Exchange Campaign في الكشف عن برامج التدريب المكثفة في وكالات إنفاذ القانون الأمريكية والشرطة الإسرائيلية والجيش والشين بيت، كما عملت في تحالف مع مجموعات أخرى، وركزت بشكل خاص على إنهاء وحشية الشرطة ودعم تحرير السود، وتوفير الموارد والأبحاث والهيئات على الأرض لمعارضة السياسات والممارسات العنصرية.

وقد نجحت حملة إسقاط شركة إني فيجن #Drop Any Vision، التي أطلقتها منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام، وحملة MPower Change وSum Of Us، في الضغط على شركة ميكروسوفت Microsoft للتخلي عن شركة إني فيجن؛ وهي شركة إسرائيلية تستخدم تقنيات متطورة من أجل التعرف على الوجوه، ويستخدمها الجيش الإسرائيلي لمراقبة الفلسطينيين في الضفة الغربية.

في الأسابيع المقبلة، يمكننا أن نتوقع طفرة غير مسبوقة في أعداد المصابين بكوفيد 19 في غزة، خصوصًا في ظل نظام رعاية صحية متضرر، وعمال رعاية صحية منهكين غير قادرين على التعامل بشكل مناسب..

وأقرت منظمة أفعال الصوت اليهودي من أجل السلام، التشريع التاريخي للنائبة بيتي ماكولم لتقييد التمويل العسكري الأمريكي الذي يدعم سجن أو تعذيب الأطفال الفلسطينيين، ومصادرة أو تدمير منازل الفلسطينيين وممتلكاتهم، وضم المزيد من الأراضي الفلسطينية. ويحتوي مشروع القانون الآن على أكثر من 70 منظمة معتمدة، وعدد متزايد (وإن كان لا يزال محدودًا) من أعضاء الكونجرس الذين يتحدثون علنًا حول هذه القضية ويناصرونها.

لقد لفت المجلس الاستشاري للصحة، الذي أنا عضو فيه، الانتباه مؤخرًا إلى أزمة الصحة وحقوق الإنسان التي انفجرت بعد الهجوم الإسرائيلي المدمر على غزة مؤخرًا. إذ على المدى القصير تحتاج غزة إلى 18 مستشفى وعيادة، فقد تضررت وزارة الصحة، والمختبر الوحيد القادر على إجراء اختبارات كوفيد 19 من جراء القصف الإسرائيلي، وكل هذه المؤسسات يحتاج إلى الإصلاح وإعادة البناء. كما أن نحو 80 ألف شخص فقدوا منازلهم،

وتكدسوا معًا في ملاجئ ومنازل أعمامهم وأبناء عمومتهم، وبالطبع كلهم بحاجة إلى سكن. وتحتاج البنية التحتية للكهرباء والصرف الصحي وتنقية المياه الموجودة التي تحولت حاليًا إلى أكوام من الأنقاض، إلى الخرسانة وحديد التسليح من أجل إعادة بناء. كذلك فالشوارع التي تركت مدمرة وغير ممهدة؛ بما في ذلك الشارع الرئيسي المؤدي إلى مستشفى الشفاء، ينبغي إعادة بنائها ورصفها. ويبدو أن الصفقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل هي: نرسل ملايين الدولارات وأحدث المعدات العسكرية المدمرة لإسرائيل، هم يستخدمونها، ونحن نصلح ما دمروه. وقد أشرنا إلى أنه بالتأكيد سيكون أرخص وأكثر إنسانية أن تكسَر تلك الحلقة المدمرة المجنونة.

وهنا ينبغي أن ننتبه جيدًا إلى أن كل ما سبق قد حدث في أثناء الجائحة. وقد أدت سياسة الفصل العنصري في اللقاحات، وإيقاف تطوير هيئات الرعاية الصحية في إسرائيل إلى تدمير نظام الرعاية الصحية في غزة، بالإضافة إلى نقص حاد في أسرَّة المستشفيات، والموظفين المدربين، وأجهزة التنفس الصناعي، والأكسجين، والأدوية الأساسية. كانت الرعاية الصحية نفسها على أجهزة الإنعاش، وذلك في أعقاب الإصابات الناجمة عن مسيرة العودة الكبرى، ثم الاعتداء الأخير. ومما زاد الطين بلة، أن منظمة الصحة العالمية قدرت أن 39٪ من المرضى في غزة فقط الذين يحتاجون إلى رعاية صحية عالية المستوى. كما لو أن مرضى السرطان الذين يتلقون علاجًا إشعاعيًا كانوا قادرين على الوصول إلى مواعيد تلقيهم العلاج في مستشفيات القدس الشرقية والضفة الغربية قبل هجوم 2021.

أضف إلى ذلك مقتل الدكتور أيمن أبو عوف، رئيس قسم الطب الباطني والاستجابة لفيروس كورونا في مستشفى الشفاء؛ أكبر مستشفيات غزة، بالإضافة إلى العديد من الأطباء والعاملين الصحيين. لذلك لدينا دمار هائل للمستشفيات والعيادات، بالإضافة إلى مشكلة القيود الشديدة على الغذاء، والنظافة، والكهرباء، والمياه، ومئات الجرحى، وآلاف النازحين المتكدسين معًا دون تلبية احتياجاتهم الإنسانية الأساسية. وقد أكدنا أن هذا آثار هذا الاعتداء المدمر كانت بوضوح، فائقة الانتشار.

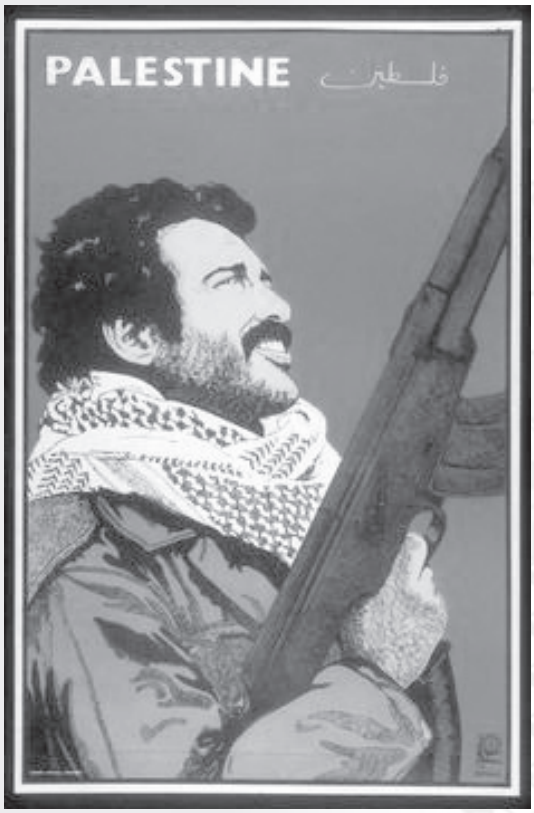

أشرنا إلى أنه بالتأكيد سيكون أرخص وأكثر إنسانية أن تُكسَر تلك الحلقة المفرغة المدمرة المجنونة، إذ يبدو أن الصفقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل هي: نرسل ملايين الدولارات وأحدث المعدات العسكرية المدمرة لإسرائيل، هم يستخدمونها، ونحن نصلح ما دمروه!

وقد قام المجلس الاستشاري للصحة بإجراء مراجعة شهرية لقضايا الصحة وحقوق الإنسان في فلسطين/ إسرائيل، بالإضافة إلى تحديث أسبوعي عن وضع فيروس كوفيد 19 في المنطقة. وخلص إلى أنه قبل القصف، كانت نسبة 99 ٪ من فيروس كوفيد 19 المنتشر في فلسطين من السلالة البريطانية B.1.1.7 شديدة العدوى. ويُقدر أن 5٪ من الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة قد تلقوا اللقاح، وأنه كان هناك تساهل كبير في استخدام الأقنعة الواقية خلال شهر رمضان. قبل الهجوم كانت نسبة إيجابية فيروس كورونا في غزة تقدر بنحو 30٪. ولا نعرف ما هو عليه الوضع الآن، إذ لم تُجمع البيانات بدقة بعد. الاختبار الوحيد الذي أجري حاليًا في غزة هو على المرضى المقيمين في المستشفى الذين

يعانون من أعـراض فيروس كورونـا؛ ولا يوجد اختبار لبقية فئات المجتمع. وبسبب الاعتداء الإسرائيلي أيضًا، عُلق برنامج التطعيم، وذلك عندما أغلقت الحواجز، ولحقت أضرار كبرى بمعمل الفحص الوحيد، وتعرضت وزارة الصحة للقصف الـذي طـال مبنى سكنيًا كبيرًا. يقوم المجلس الاستشاري للصحة التابع لمنظمة الصوت اليهودي من أجل السلام حاليًا بتوزيع التماسين يتناولان مخاوفه بشأن أحوال الصحة وحقوق الإنسان والوباء في غزة.

في الأسابيع المقبلة، يمكننا أن نتوقع طفرة غير مسبوقة في أعـداد المصابين بكوفيد 19 في غـزة، خصوصًا في ظل نظام رعاية صحية متضرر بشدة، وعمال رعاية صحية منهكين غير قادرين على التعامل بشكل مناسب. وقد أكدنا أنه من المهم للغاية أن تلبي القوى الدولية هذه الاحتياجات الأساسية على الفور. إن مبلغ 735 مليون دولار مقابل الصواريخ "الموجهة بدقة" التي قال الرئيس بايدن إنه سيعطيها لإسرائيل، سيكون من الأفضل إنفاقه على تطعيم سكان غزة، وتمكين السكان من غسل أياديهم بالمياه النظيفة، واستخدام الكهرباء للطهي، وتبريد طعامهم، والحصول على سكن لائـق، وإجـراء الاختـبارات حين تقتضي الحاجة، والحصول على رعـاية صحية لائـقة. ويمكن لإسرائيل أن تـشارك الملايين من جـرعات اللقاح التي تخزنها، وأن تعترف بمسؤولياتها كقوة محتلة.

كما يمكن للولايات المتحدة أن تشارك اللقاح أيضًا، وقـد تغيرت سياسة الـولايـات المتحدة مـؤخـرًا للسماح بمشاركة اللـقاح مـع البلدان الفقيرة، بما فـي ذلـك إرسـال جـزء صغير إلى غزة والضفة الغربية. وفوق كل ذلك فإن علاج مـا بعد الصدمات النفسية ومشكلات الصحة العقلية أمـر يستدعي الاهـتـمـام. إذ يستحق الفلسطينيون بـالـضبـط مـا نـتـمـنـاه لأي من إخواننا في البشر، فهذه القضية ليست قطعًا طبية وقانونية وسياسية فقط، بـل هـي أزمـة أخلاقية.

ما ينبغي أن نتذكره أن هذه ليست معركة بين حزبين متساويين. بـل هـو صـراع بين واحـدة من أكبر القوى العسكرية في العالم؛ تدعمها من الولايات المتحدة، قوة غاشمة عازمة على إذلال شعب محروم مـن جميع حقوقه. وهـذا مـثـال مخيف عـلـى الاسـتـعـمـار الاستيطاني العنيف المـسـتـمـر، بينما يـعـجـز الـعـالـم عن رؤيـة الفلسطينيين بـاعـتـبـارهـم بـشـرًا مـصـابـيـن بـصـدمـة عـنـيـفـة مـن جـراء العنف، ويستحقون أن يـكـونـوا مـثـل جيرانهم ومحتليهم اليهود الإسرائيليين الأقـويـاء. وإذا لم يـجـبـر المـجـتـمـع الـدولـي إسـرائـيـل عـلـى الـتـعـامـل مع الأسـبـاب الجـذريـة لـهـذه الـكـارثـة، فسوف تكرر المأساة نـفـسـهـا مـــرة بـعـد مـرة. لقد أفسدت سردية التحرر والاستحقاق اليهودي بسبب عقود من السياسات العنصرية الظـالـمـة الـتـي أطـلـق عليها الـكـثـيـرون إبـادة جماعية بطيئة لفلسطين. وفـي النهاية لا أحد يفوز. ويبقى الأمر متروكًا لوسائل الإعلام الدولية، والحكومات ومنظمات حقوق الإنسان، والمنظمات الشعبية والمجتمعات في جميع أنحاء العالم، سعيًا لجعل هذه القصة مختلفة هذه المرة.

ركزت منظمة الصوت اليـهـودي مـن أجـل الـسـلام في الـبـدايـة عـلـى إنـهـاء احـتـلال الـضـفـة الـغـربـيـة والـقـدس الشرقية وغـــزة، والـتـمـسـك بـالـقـانـون الـدولـي، وحقوق الإسرائيليين والـفـلـسـطـيـنـيـيـن فـي الأمـــن وتـقـريـر المصير..

اليسار الجذري في إسرائيـــــل.. بذور في أرض صخرية

محمد حسني

إثـر تهجير السلطات الإسـرائيـليـة مواطنين فلسطينيين من حي الشيخ جراح، واحتلالها من قبل مستوطنين، اندلعت التظاهرات في أنحاء فَلسطين بأكملها، وانطلقت من غزة المحاصرة قذائف نحو المستوطنات المتاخمة للقطاع. شنت إسرائيل حربًا على القطاع باسم "حارس الأسوار"، بالتزامن مع عمليات مداهمة واعتقال للفلسطينيين في الـداخـل، والـذيـن نظموا التظاهرات ضد التهجير والحرب، ثم صعَّدوا الاحتجاج للإضراب العام. وقد شارك نشطاء ومواطنون إسرائيليون في تظاهرات الاحتجاج، رافعين شعارات ضد الحرب ودعمًا للتعايش،[1] تعرضت التظاهرات للتفريق من قبل قوات الشرطة، ومن جماعات مستوطنَين مسلحة هاجمت التظاهرات في ظل صمت رسمي.[2] وتثير حالة الاستقطاب السابقة، الانتباه وتطرح التساؤلات حول موقف اليسار في إسرائيل، ومدى قدرته على خلق تغيير.

تراكمات فانفجار

قبل أسابيع من الأحداث الأخيرة، اندلعت احتجاجات في القدس بسبب قيام الشرطة الإسرائيلية بإغلاق باب العمود، وبعد مواجهات استمرت أيام، تراجعت الشرطة الإسرائيلية. تكشف قوة وانتشار الاحتجاجات في أنحاء فلسطين عن حالة الضغط الشديد التي يعيشها المواطنون. ففي يافا على سبيل المثال، جاءت المصادمات كانفجار لتراكمات طويلة لعملية استبعاد منهجي تجاه سكانها، وخصوصًا العرب من أجل إحلال يهود أثرياء محلهم. وإلى جانب ارتفاع كلفة المعيشة لم تعد العائلات العربية بمأمن من تنكيل الشرطة.[3] لقد خلقت المؤسسة الإسرائيلية وضعًا يخشى فيه سكان الداخل الوقوع في وضع سكان الضفة، الذين يخشون بدورهم السقوط في وضع سكان غزة. [4]

اليسار.. خطوط رئيسية

على الرغم من عدم وجود حدود واضحة وحاسمة بين أطياف اليسار في إسرائيل فإن المتعارف هو التمييز بين اتجاهين أساسيين؛ اليسار الصهيوني، المتمثل في حزب عمل بصيَغه المختلفة، وهو التيار المهيمن في الحركة الصهيونية من الاستيطان وحتى بعد تكوين الدولة، ومنذ انتخابات 1977 المسماة بالانقلاب، أصبح ينازعه المكانة حزب الليكود وأحلافه اليمينية، التي باتت مسيطرة منذ أكثر من عقدين.

والفارق الأساسي بين اليسار واليمين الصهيونيين في مجال الاقتصاد، إذ يؤيد اليسار سيطرة الدولة على الاقتصاد ودعم الفئات الأضعف. أما عن الموقف تجاه القضية الفلسطينية، فلا يمكن أن نجد فارقًا مبدئيًا على الأرض. فعلى سبيل المثال قامت الحروب الكبرى تحت حكم اليسار الصهيوني، بينما كان مناحم بيجن هو من وقع اتفاقية السلام في أول دورة لحكم اليمين على الإطلاق. ثم أعقبها باجتياح لبنان. أما الاتجاه الثاني والموصوف بـ"الراديكالي" فيضم تنويعة شديدة التباين، بين القرب والتماهي مع المؤسسة الصهيونية، مرورًا بتبني حلول لإنهاء الصراع، وانتهاءً بمعارضة الصهيونية وحتى التعاون مع العرب ضدها. [5] وبعض التنظيمات والحركات لا تعرِّف نفسها كمنظمات يسار راديكالي أو يسار عمومًا، لكنها تصنف وفق أنشطتها ومواقفها السياسية، علاوة على مرجعيات مؤسسيها.

تعود جذور هذا التيار تاريخيًا إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني (PCP).[6] وقد اعتبر الحزب "الصهيونية" حركة رجعية، وتبنى مؤتمره في 1923 مشروعًا لإدانة الصهيونية باعتبارها "حركة انتهازية يهودية تخدم الإمبريالية البريطانية". وفي الوقت نفسه أعرب عن تأييده للحركة الوطنية العربية التي تناضل

ضدها. وبناءً على ذلك قُبل في الكومنترن، ولكن في الوقت نفسه عُزل من "الهستدروت"- اتحاد العمال الصهيوني. وخلال المواجهات التالية، هبة البراق 1929، وثورة 1936 حدثت انشقاقات في الحزب، أدت إلى ميل جناح منه نحو الصهيونية وقبوله في مؤسسات الاستيطان، كما وقع مندوبه على إعلان الدولة. أما الجناح التقدمي "عصبة التحرر الوطني" والذي ضم العضوية العربية، فقد تبنى موقف دولة فلسطينية ديموقراطية.

عقب إعلان الدولة، أصبح الحزب الشيوعي الإسرائيلي (CPI) هو ممثل الـ"يسار الراديكالي" في إسرائيل. وقد شارك في سبع دورات متتالية للكنيست، دون التمكن من المشاركة في الحكومة. عارض الحزب الحكم العسكري، ودعا لحق العودة. واتهم بعض أعضائه بالتعاون مع الجمهورية العربية المتحدة. لم يعارض الحزب حرب 67، كما لم يطالب بالانسحاب من الأراضي المحتلة. وقد عانى الحزب من التشرذم، أما الفصيل الثاني من الحزب، القائمة الشيوعية الجديدة (رَكَح)، فقد اعتبر الصهيونية حركة قومية انتهازية تخدم الإمبريالية، واعتبر حرب يونيو اعتداءً إسرائيليًا. انضم الحزب إلى كتلة "حداش - الجبهة الديموقراطية للسلام والمساواة".

> اليسار الصهيوني، المتمثل في حزب عمل بصيَغه المختلفة، مهيمن في الحركة الصهيونية من الاستيطان وحتى بعد تكوين الدولة.. وبعض التنظيمات والحركات لا تعرِّف نفسها كمنظمات يسار راديكالي أو يسار عمومًا

ظهرت منظمة "متسپين - البوصلة"، المنظمة الاشتراكية الثورية في إسرائيل عام 1962. استنكرت منتسبي التبعية للاتحاد السوفيتي، وعارضت الصهيونية في جوهرها، كما أعلنت أن النظام القائم ليس اشتراكيًا، وأن الهستدروت لا تُمثل العمال لأنها تمتلك في الوقت نفسه جزءًا كبيرًا من المؤسسات الاقتصادية. رغم مواقفها شديدة الجذرية، نُكبت متسبين بآفة الانقسامات، حتى انتهت كتنظيم.

وقد ازدهر اليسار الجديد بعد حرب 67 وكرد فعل على التأييد الواسع للاحتلال. تأثر بحركة اليسار الأوروبي في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، التي قطعت مع التراث الستاليني، وطورت أفكار وتكتيكات حركية مختلفة عن الأحزاب الشيوعية التقليدية. لم يقتصر برنامج الحركة على الصراع الطبقي بل شمل أيضًا الاستبعاد الاجتماعي.[7] وكانت فترة السبعينيات هي ذروة نشاط اليسار الراديكالي وتأثيره في الأوساط المختلفة، هيمن "الجبهة" على الوسط العربي، إذ ظهرت وجوه تولت الزعامة فيما بعد- محمد بركة، كمال زحالقة، عزمي بشارة، عصام مخول، دوف حنين- والفهود السود بين اليهود الشرقيين، إلى جانب متسپين، الذي اتهم عدد من أعضائه بالتخابر مع سوريا. عارض اليسار الراديكالي اتفاقية السلام بين بيجن والسادات لكونها تهضم حقوق الفلسطينيين. ويمثل "الجبهة" تحالفًا بين عدد من الكيانات اليسارية منها الحزب الشيوعي الإسرائيلي واتحاد الشبيبة الشيوعي. ينادي بإقامة دولة فلسطينية على حدود 4 يونيو وأن تصبح إسرائيل دولة ديموقراطية لجميع سكانها. يُنظر إلى "الجبهة" باعتباره حزبًا عربيًا مناهضًا للصهيونية، وقد شارك حزب الجبهة في الانتخابات للكنيست، في القائمة العربية الموحدة التي تضم كذلك حزب التجمع

> ازدهر اليسار الجديد بعد حرب 67 وكرد فعل على التأييد الواسع للاحتلال. تأثر بحركة اليسار الأوروبي في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، التي قطعت مع التراث الستاليني، وطورت أفكار وتكتيكات حركية مختلفة

وحركات أخرى.

ارتبطت حركة أبناء البلد بيوم الأرض 1976، يرجع تاريخها إلى 1969، تضم بين صفوفها نشطاء يهود، وتعلن أن هدفها إنهاء الاحتلال وحق العودة وتكوين دولة ديموقراطية علمانية في فلسطين التاريخية، تؤيد المشاركة في انتخابات البلديات. وقد تراجع تأثيرها بين عرب الداخل منذ 1989 وركزت نشاطها على طلاب الجامعات. وفيما بعد دخلت في تحالف تأسيس "التجمع الوطني الديموقراطي".

خلال حرب لبنان الأولى، انتعشت حركة

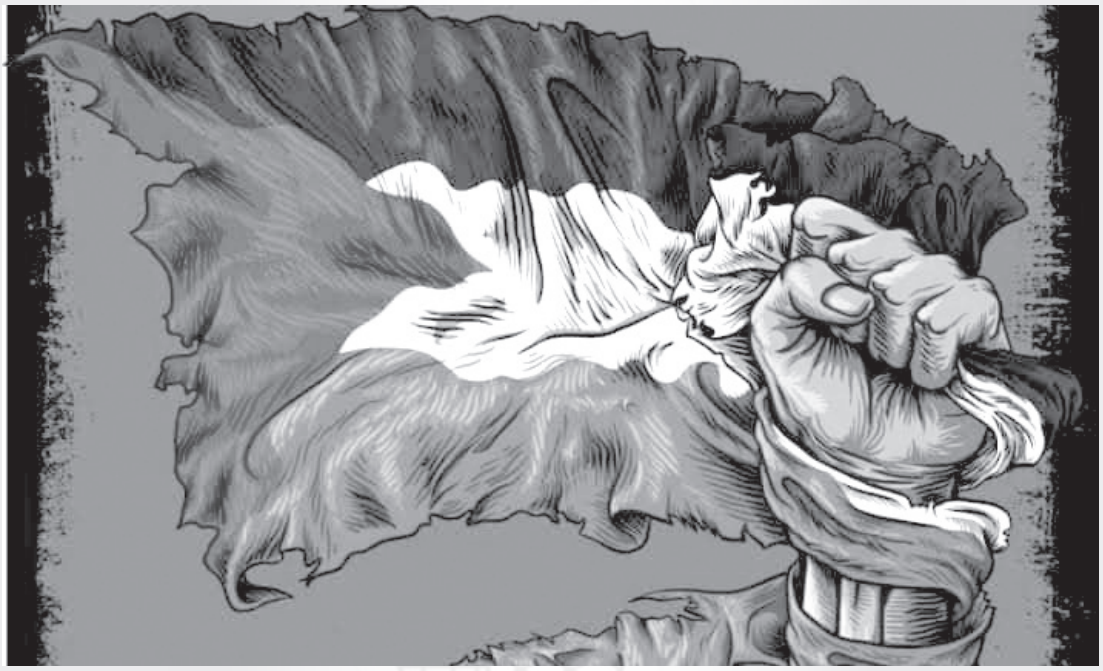

المعارضة اليسارية، ومن بينها حركة السلام الآن التي أعلنت عقب مبادرة السادات في 1977، وهي صاحبة شعار الأرض مقابل السلام. التقى أوري أفنيري بياسر عرفات المحاصر في لبنان. اعتبر اليسار الراديكالي عرفات زعيم التحرر الفلسطيني وشريكًا من أجل السلام، كما اعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي للشعب الفلسطيني.

الانتفاضة الأولى، 1987
شاهد الجمهور الإسرائيلي الواسع مقاومة شعبية للاحتلال. وإلى جانب حركات قائمة مثل "اللجنة الإسرائيلية للتضامن مع بير زيت"، ظهرت حركات مثل "داي لاكيبوش - كفى احتلالا"، "السنة الـ21"، "هلئاه كيبوش - فليسقط الاحتلال"، و"ناشيم بشاحور - نساء متشحات بالسواد". كما ظهرت "المنظمة الأناركية الإسرائيلية".

شهدت السنوات التالية عدة متغيرات
-انهيار الاتحاد السوفييتي
-تدشين مفاوضات أوسلو تحت حكومات اليسار الصهيوني (العمل)، والتي أيدها حزب الجبهة.
[8] وصولا للانسحاب من لبنان 2000.
-الازدهار الاقتصادي في التسعينيات.
أدى كل ذلك بدرجات متفاوتة إلى تحولات سلبية في اليسار الراديكالي، إذ اتجهت جزء منه لتأييد حكومات العمل المتتالية، واتجاه الكثير من النشطاء نحو العمل الحقوقي والبيئي.

الانتفاضة الثانية 2000
من أسبابها الأساسية: المماطلة في تطبيق مراحل الحكم الذاتي، والأزمة الاقتصادية نتيجة سياسات الحصار الإسرائيلية، علاوة على الفساد في السلطة الفلسطينية، وهو ما وصفه اليسار الراديكالي بـ"الاحتلال غير المباشر". وبعد شهر واحد من اندلاع الانتفاضة تشكلت حركة "تعايُش"، وكان نشاطها في البداية يقتصر على إرسال المعونات الغذائية والدوائية للمناطق المحتلة.
استمرت معارضة اليسار الراديكالي للحروب الإسرائيلية: لبنان الثانية 2006، الرصاص المصبوب 2009-2008 قاد اليسار الراديكالي، متمثلا في حزب الجبهة، ومنظمات حقوقية وحركات معارضة، حملة دولية ضد الممارسات الإسرائيلية، وبرروا عمليات حماس كرد فعل مقاوم لها.[9] استعانت لجنة التحقيق الدولية برئاسة ريتشارد جولدستون بالمنظمات الراديكالية التي نسقت جمع الشهادات وتوثيقها.

الشيخ جراح 2009-
بدأ توطين اليهود في الشيخ جراح في 2009، تزعمت حركة "تضامن" النشاط المعارض لطرد الفلسطينيين وتوطين اليهود، واستطاعت حشد تظاهرات بالآلاف.

الجدار العازل
شن اليسار الراديكالي حملات ضد جدار الفصل العنصري الذي حوّل البلدات الفلسطينية إلى (كانتونات) معازل. كما عارض خطة فك

الارتباط -التي كانت من برنامج حزب العمل في الانتخابات- لكونها تكرس الوضع القائم. كانت أبرز الحركات "أناركيين ضد الجدار". حركة لا سلطوية يقدر عدد نشطائها بالمئات وتتعاون مع فلسطينيين وحركات مثل "التضامن الدولية". تكررت المواجهات العنيفة بين النشطاء وبين الجيش وبلغت استخدام الرصاص الحي ضدهم. [10]

المنظمات الحقوقية

أولاً: الجمعيات والمنظمات الناشطة ميدانيًا

أطباء لحقوق الإنسان

تأسست 1988 باسم رابطة الأطباء الإسرائيليين-الفلسطينيين لحقوق الإنسان بلغت عضويتها 1500 أكثر من نصفها يعملون في الحقل الطبي. إلى جانب الجهود الطبية اتسعت لتشمل قضايا سياسية، مثل حقوق المعتقلين والتعذيب، والظروف الصحية في الأراضي المحتلة، والحق في الصحة.

حراس العدالة

حاخامات من أجل حقوق الإنسان يضم 100 حاخام من تيارات إصلاحية، علاوة على 30 من العلمانيين والمسيحيين والمسلمين. يشارك في الأنشطة الميدانية من تظاهرات ومسيرات إلى جانب قوافل دعم الفلسطينيين في الداخل وفي الضفة وغزة.

> السبعينيات كانت ذروة نشاط اليسار الراديكالي وتأثيره في الأوساط المختلفة، هيمن "الجبهة" على الوسط العربي، إذ ظهرت وجوه تولت الزعامة، مثل محمد بركة، وكمال زحالقة، وعزمي بشارة، وعصام مخول، ودوث حنين

تعايش

منظمة يهودية عربية تهدف إلى دعم التعاون بين اليهود والعرب وبين الإسرائيليين والفلسطينيين والسعي للمساواة والسلام. تتنوع أنشطتها بين تقديم المساعدات وبين التظاهرات والاحتجاجات ضد ممارسات الاحتلال. في 2016 اتهم أحد نشطائها بتسريب أسماء فلسطينيين ينوون بيع أراضي اليهود إلى السلطة الفلسطينية.[11] على غرار تعايش "مركز مساواة"، ومركز "سيكوي -أمل"

أنتيفا - مناهضة الفاشية

تكونت في 2014، تدعم اللاجئين والعرب والمثليين وغيرها من الفئات التي تتعرض للكراهية في المجتمع الإسرائيلي.

ثانيًا: منظمات الدعم القانوني والإعلامي

منظمة الحقوق المدنية في إسرائيل

أقدم منظمة حقوقية في إسرائيل، تأسست في 1972، وتعمل من أجل حقوق الإنسان في إسرائيل والمناطق المحتلة، وهي المنظمة الوحيدة التي يتسع نشاطها ليشمل كل ملفات حقوق الإنسان وتتجاوز ميزانيتها 8 مليون شيكل.

> ارتبطت حركة أبناء البلد بيوم الأرض 1976، يرجع تاريخها إلى 1969، تضم بين صفوفها نشطاء يهود، وتعلن أن هدفها إنهاء الاحتلال، وحق العودة، وتكوين دولة ديموقراطية علمانية في فلسطين التاريخية

عقب الانتفاضة الأولى 1987 اتجهت لرصد الانتهاكات في الضفة وغزة، على الصعيدين الإعلامي والقضائي. استمر نشاط المنظمة، وزاد حضورها خلال الحروب الإسرائيلية المتوالية، حتى أطلق عليها المسؤولون الإسرائيليون منظمة الحقوق الفلسطينية. وهناك منظمات أخرى مثل "يش دين/ هناك قضاء". إلى جانب منظمات تهتم بالملف الاقتصادي-الاجتماعي مثل: مركز إدفا، خط العامل. علاوة على منظمات أخرى معنية بالإعلام البديل مثل إنميديا-إسرائيل، صالون مازال، مركز المعلومات البديل، تذكرن، بتسيلم.

زوخروت/ تذكرن

جمعية يسار راديكالي تأسست في 2002 بهدف نشر الوعي بين الإسرائيليين بالنكبة الفلسطينية ودعم حق العودة. تقوم الجمعية بإحياء ذكرى القرى الفلسطينية المدمرة.

تعتبر حق العودة ليس مجرد السماح للفلسطينيين بالدخول بل بدعمهم بشكل

متواصل على الانخراط والاندماج وإقامة مجتمع قائم على المساواة.
نشرت في 2007 خريطة لمدينة تل أبيب-يافا مع مواضع القرى العربية التي تمّ محوها.
وقد طرحت في 2014 تطبيقًا جديدًا باسم النكبة، يحدد عبر GPS مواضع القرى الفلسطينية التي محتها إسرائيل، ونبذة تاريخية عن كل مكان.[12]

من المنظمات النسوية: "محسوم ووتش"حركة نسوية ضد الاحتلال، "اختي"، و"بات شالوم". وجمعية "الغسيل الأسود Black Laundry " وهي تربط في خطابها بين قمع الفلسطينيين وقمع الفئات الأضعف كالمثليين. وهو ما يميزها عن سائر الحركات التي تتناول قضايا الميول الجنسية دون خلاف مع المؤسسة الصهيونية العسكرية.[13]

يأتي التمويل في معظمه من الصندوق الإسرائيلي الجديد، والاتحاد الأوروبي وحكومات أوروبية.[14] وهو ما تسبب في تعرضها للانتقاد، فتم سن قوانين للرقابة، وفرض ضرائب عالية، بينما طالبها البعض بالحظر التام للتمويلات الخارجية.[15]

حركة المقاطعة BDS
(Boycott, Divestment and Sanctions)
اختصار لـ(مقاطعة، سحب استثمارات، عقوبات)

منذ 2005 عملت منظمات يسارية إسرائيلية، وأكاديميون، ضمن الحملة الدولية BDS الداعية لـ:
وقف الاحتلال، فك الجدار العازل، والاعتراف بحق العودة للفلسطينيين.[16]
ضيَّقت إسرائيل على المنظمات التي تدعم الحملة، كما أعلن صندوق إسرائيل الجديد، الذي يموِّل معظم المنظمات الحقوقية عن وقف تمويل أية منظمة تتعامل مع BDS.[17] ومن بينها "جوش شالوم- كتلة السلام"،[18] صوت يهودي للسلام Jewish Voice for Peace، ائتلاف نساء من أجل السلام، اللجنة الإسرائيلية ضد هدم البيوت: ICAHD، وحركة التضامن الدولي[19]؛ وهي لا تنكر حق إسرائيل في الوجود، ولكنها تعترف بحق المقاومة في النضال المسلح.[20] لقت ريتشيل كوري ناشطة الحركة حتفها تحت جرافة إسرائيلية.

* * *

رفض الخدمة
والمقصود بها رفض تنفيذ أوامر عسكرية أو رفض الخدمة جزئيًا اوكليًا، لأسباب سياسية أو عقائدية لأسباب مختلفة:
-النزعة السلامية: الرافضة للحرب عمومًا، مثل حركة "تقييم جديد".
-رفض الاحتلال: رفض الخدمة في الضفة وغزة "شجاعة الرفض".
-رفض تنفيذ عمليات بعينها لمخالفتها القانون الدولي.
ينتقد النوع الأول "عسكرة" المجتمع ويدعو بعضها بالفعل لأنظمة بديلة. ومن بين عوامل ظهور حركة الرفض هو تنحي النزعة القومية الجمعية أمام نزعة الفردية في المجتمع.[21]
في حين واجهت حركات الرفض "اليسارية" تهمة الخيانة، ظهرت حركات رفض يمينية للامتناع عن تفكيك المستوطنات أو إخلاء مناطق حسب اتفاقيات السلام، وقد حظيت تلك بتأييد معلن من اليمين الصهيوني، وتواطؤ رسمي.
ولم يظهر كيان سياسي يضم حركات الرفض لعدة أسباب:
-تعدد التوجهات والدوافع وراء رفض الخدمة
-يعلن الرافضون في الغالب أن دوافعهم ضميرية وليست سياسية، وذلك إزاء الضغوط الموجهة ضدهم من جانب المؤسسة والمجتمع.
-تعرف منظمات وحركات نفسها بأنها تدعم "حق الرفض"، وليست كداعية له.
عرفت حركات مناهضة للحرب منذ بريت شالوم 1925، التي أسس أحد أعضائها في 1947 حركة مناهضة للحرب، كما تكررت حالات رفض فردية.
وفي 1971، عندما أرسل أعضاء متسيين خطابًا لوزير الدفاع يعلنون رفض الخدمة في جيش

الاحتلال. خلال حرب لبنان الأولى اكتسبت حركة رفض الخدمة نطاقًا أوسع وأصداء اجتماعية. مثلت حركة الرفض داعمًا للمقاومة في الاستمرار، وكان إعلان ذلك على لسان ناشط حماس ذريعة لليمين لوصم الحركة بالخيانة.[22]

خطاب الصف الثامن 1970
خطاب الصف الثامن shminist وقع عليه 27 من طلاب الصفوف ال11، 12 المقبلين على التجنيد -وهي الصفوف 7، 8 في نظام التعليم القديم. أعلن 56 طالب ثانوي رفضهم الخدمة احتجاجًا على الاحتلال.[23] جاء ذلك في ذروة حرب الاستنزاف عقب دعوة عبد الناصر لرئيس الكونجرس الصهيوني لزيارة القاهرة، والتي رفضتها مئير.[24]
تكرر إعلان خطابات بالاسم نفسه في سنوات لاحقة: 1979، ثم في 2001، 2002، 2005.
أما خطاب 2008 فقد تبرع عدد من الموقعين براتب التجنيد لصالح إعمار غزة من جراء عملية الرصاص ا لمصبو ب . [5 2]
وفي خطاب الدفعة التالية 2010-2009 هاجم 90 موقعًا الحكومة الإسرائيلية وقالوا إن الجيش لا يجب أن يسمى جيش الدفاع بل جيش الاحتلال والاعتداء. [26] وكان آخر خطاب لهم في 2014.

خلال حرب لبنان انتعشت حركة المعارضة اليسارية، مثل حركة السلام الآن التي أعلنت عقب مبادرة السادات في 1977، وهي صاحبة شعار الأرض مقابل السلام، واعتبر اليسار الراديكالي عرفات زعيم التحرر الفلسطيني

بيش جفول-هناك حدود
أقدم حركة رفض، ظهرت خلال حرب لبنان الأولى 1982، وقد وقع 3000 جندي احتياط على رفض الخدمة في جنوب لبنان، تعرض منهم 150 للمحاكمات العسكرية. [27]
تراجع نشاط الحركة عقب اتفاقية أوسلو، لكنها ظلت حاضرة في دعم الرافضين وأسرهم، ثم صعدت من نشاطها خلال الانتفاضة الثانية وأقامت دعاوى قضائية دولية ضد قيادات في الجيش الإسرائيلي بتهمة "جرائم حرب"، كما صدر أمر اعتقال ضد أحدهم في بريطانيا.[28]
في 2014 أسهمت في تأسيس حركة "رافضات" الخدمة العسكرية.

پروفايل حاداش- تقييم جديد
تأسست في 1998 وتقدم المساعدة القانونية لرافضي الخدمة دون التقيد بمرجعيتهم السياسية.
ترى الحركة أن المجتمع الإسرائيلي يعاني بسبب العسكرة ومن ثم تسعى لتقليصها.
-تطرح بدائل للخدمة العامة خلاف الخدمة العسكرية.
-ترى أن طبيعة الجيش الحالية تسبب أضرارًا للمجندين، وتطرح بديلاً تكوين جيش عامل.
-ترى أن حالة الحرب الدائمة سببها حكومات إسرائيل، وتدعو أيضًا للعودة لحدود الخط الأخضر.
-تسعى لإزالة وصمة استمارة التقييم 21 (غير لائق نهائيًا).

أومتس لساريف- شجاعة للرفض
بدأت عام 2002 بخطاب المقاتلين وقع عليه 51 مجندًا، رفضًا للخدمة في المناطق الفلسطينية وتكريس الحكم العسكري، بلغ بمرور الوقت 650 توقيعًا. ومن هنا تكونت حركة "شجاعة للرفض" والتي تميزت أنها خرجت من بين مجندي وحدات نخبوية.[29] في حرب لبنان الثانية 2006 حوكم سبعة مجندين بتهمة رفض الخدمة.[30] في 2014 أقصي 43 من احتياط الوحدة 8200 التابعة لشعبة الاستخبارات.

لجنة المبادرة الدرزية
منظمة درزية تأسست في 1972 ضد التجنيد الإجباري للدروز وضد مصادرة الأراضي، وتدخل الدولة في الشئون الدينية والوطنية ومن أجل الديموقراطية والمساواة. وقد مثل التجنيد الإجباري إحدى وسائل إسرائيل للتفرقة بين الدروز والعرب. ينتمي قيادات الحركة إلى حزب الجبهة وهي تنسق فعالياتها مع حركات رفض أخرى.[31]

حركة الرفض في اللحظة الحالية
لم تعد حركة الرفض في صدارة المشهد، لقد عانى رافضو الخدمة من عزلة اجتماعية بسبب طبيعة المجتمع، في الوقت نفسه تراجعت رغبة الشبان في الالتحاق بالجيش. في موجة الاحتجاجات الأخيرة ضد نتنياهو، وفيما عدا نشطاء اليسار الراديكالي، لم يتطرق أحد للاحتلال.
لقد بلغ عدد الرافضين الفعليين المئات وخلال الانتفاضة كسر حاجز الألف. لكن نسبة الرافضين عمومًا بالنسبة للمجندين ضئيلة

للغاية، دون تجاهل أصداء "الرفض" محليًا وعالميًا.[32]

القضايا الإشكالية

-1حل الدولة/ الدولتين

يتبنى اليسار الراديكالي توجهات توصف بأنها مناهضة للصهيونية أو ما بعد-صهيونية. إلى جانب بعض الحركات التي لا تعتبر نفسها مناهضة للصهيونية لكنها تعتبر كذلك في وصف خصومها مثل حركات رفض الخدمة العسكرية.

يعرف اليسار الراديكالي الصهيونية كحركة رجعية، قامت بمساعدة الدول العظمى في حل "المسألة اليهودية" بالشكل الملائم للمصالح الأوروبية على حساب الشعب الفلسطيني وسبب نكبته. وهناك خلاف حول اعتبار اليهود شعب أم جماعة استيطانية ليس لها حق جماعي بل كأفراد. يميل أصحاب التعريف الأول لحل الدولتين أو الدولة ثنائية القومية، بينما أقلية من بين اليسار الجذري تنادي بإقامة دولة ديموقراطية علمانية على كل أراضي فلسطين، ويرى اليسار الراديكالي أن اليسار الصهيوني (حزب العمل وميرتس) يتبنى حل الدولتين بسبب رغبة أوساط من البرجوازية الإسرائيلية في الاستقرار والسيطرة على الأسواق والأيادي العاملة الرخيصة.

-2الموقف من المقاومة

إحدى الإشكاليات هو الموقف من المقاومة الفلسطينية وبشكل خاص التفجيرات الموجهة ضد المدنيين. إذ تتبنى بعض حركات اليسار شعار "لا يمكن أن نملي على شعب كيف يقاتل من أجل حريته" ولا يزال الخلاف قائمًا في مشروعية أشكال المقاومة المختلفة وعلى أهدافها.[33] كما أن هناك من برروا التفجيرات ضد المدنيين وأعربوا عن تفهمهم للعمليات الاستشهادية.[34] كما عارضوا استهداف الفلسطينيين بزعم انتمائهم لمنظمات مسلحة، لم يقتصر الإعلام والقضاء بل تعداه إلى التدخل لمنع عمليات الاعتقال وما يصاحبها من إجراءات (مثل هدم المنازل او اعتقال الأقارب).

وفي خلال حرب لبنان، التقى نشطاء راديكاليون بعرفات الذي اعتبروه زعيم حركة التحرر الفلسطينية حتى بعد رحيله عن لبنان. وخلال انتفاضة الأقصى، شكّل أعضاء كتلة السلام درعًا بشريًا لحماية عرفات في المقاطعة من هجمات الجيش الإسرائيلي.[35] كما زاره وقتها عدد من النشطاء الراديكاليين مثل أوري أفنيري.

العقد الأخير

شهد العقدان الأخيران تآكل اليسار الصهيوني.[36] ويقارن د. نتنئيل فولخ، بين وضع اليسار الصهيوني في -1992 وقت اغتيال رابين: حزب العمل 44 مقعدًا وميرتس 12، حاليًا لديهما 13 مقعدًا مجتمعين، وما يفعلونه الآن-حسب تقديره- هو انتحار سياسي، إذ أن ما يصنفون كوسط هم في الحقيقة يمين، سيؤيد "ميرتس" و"بنيت" اليميني المتطرف الذي يتبنى عكس ما يدعو إليه.[37]

احتجاجات صيف 2011

كانت موجة احتجاجات غير مسبوقة، واكبت الربيع العربي، واستخدمت بعض شعارات الثورة المصرية، لكنها في أساسها حول مشكلة الإسكان، وأغفلت تمامًا أي ذكر للاحتلال. [38] وفي أعقاب احتجاجات 2011 برز الشأن الاقتصادي-الاجتماعي لكنه لم يترجم في ارتفاع في صفوف اليسار بشقيه، وفي الانتخابات التالية، حصل اليسار الصهيوني على 17.5% والراديكالي على 9%.[39] وحصد اليمين أصوات المدن الميسورة التي كانت معقلاً لليسار. أما الطبقة الوسطى افقد قاد شبابها احتجاجات 2011 تنادي بتسوية سياسية وحماية لقيم الديموقراطية لكن الظروف الاقتصادية-الاجتماعية لها الأولوية لديها، لهذا حصد من بينهم اليمين أصواتًا كثيرة.[40] بالإضافة إلى أن تركيبة كل أحزاب الوسط مفككة ومؤقتة لا تصمد أمام أي اختبار على الأرض.

"نفتالي بينت" وهو يميني متطرف على كل الأصعدة الاقتصادية- تأييد النيوليبرالية-

والسياسية يؤيد ضم 60 % من الضفة وغزة مع ترك ما يتبقى للسلطة الفلسطينية محدودة السيادة.[41]

انتخابات مارس 2021

الدورة الـ24 للكنيست. حصلت الأحزاب العربية 10 مقاعد(القائمة العربية الموحدة 4 مقاعد والقائمة المشتركة 6 مقاعد)، ميرتس 6 والعمل 7. بقية المقاعد 97 لكتل وأحزاب انتخابية متنوعة (يمين قومي - يمين ديني- يمين وسط). في هذه الانتخابات نجح 19 من المهاجرين الجدد و8 من سكان المستوطنات. وفي الوسط العربي تراجعت القائمة المشتركة، بسبب تبديد الطاقات في خلافات هامشية. فقد الناخبون الثقة في ممثليهم، فضل بعضهم الامتناع عن المشاركة، في حين حصد حزب ميرتس على 30 ألف صوت، ضمنت له مقعدًا في الكنيست، كما أن هناك من توجهوا لأحزاب يمينية مثل الليكود.[42]

* * *

بذور في أرض صخرية

وفقًا لاستطلاع رأي 2020، يعرف 6% من الإسرائيليين أنفسهم كيساريين عمومًا.[43] وعلى الرغم من وجود أصوات يسارية، ومن بينها أصوات شديدة الراديكالية، فإنها في النهاية عاجزة عن إحداث تغيير ملموس.

مراجع

[1] - "نقف معًا". https://www.standing-together.org/

[2] - https://www.ynet.co.il/news/article/Bk0EIz00dO 11.05.21

https://www.ynet.co.il/news/article/r1ML6Yp00u 15.05.21

[3] - תמי ריקליס ויונית נעמן : הבעיה ביפו היא המדיניות, לא התושבים
www.haokets.org/2021/04/19

[4] - דניאל דה מלאך: ההתנתקות מעזה היא אשליה: לקחים ממבצע "שומר החומות"
www.haokets.org/2021/06/09

[5] - אורי יזהר: עתיד השמאל בישראל: דעיכה או התחדשות? 2014. עמ'9.

[6] - محمد حسني: ماذا عن «اليسار الراديكالي» في إسرائيل؟، مجلة أوراق اشتراكية، أبريل 2008.
https://revsoc.me/-3773

[7] - טל אלמליח, שמאל חדש, תרבות ישנה nrg, 17/9/2009

[8] - مفكرون يساريون فلسطينيون، مثل إدوارد سعيد وغيره، أدانوا الاتفاقية واعتبروها خيانة من جانب الزعامة الانتهازية لمنظمة التحرير مقابل الحصول على رضا الإمبريالية. هذا التوجه لقي تأييدًا وسط قطاعات من اليسار الراديكالي

[9] - גדעון לוי, The IDF has no mercy for the children in Gaza nursery schools, הארץ, 15 בינואר 2009.

[10] - איתן רבין, החיילים שירו בנעמתי לא יישפטו, "nrg מעריב"

[11] - שבתי בנדט, בעקבות התחקיר:המשטרה ממליצה להעמיד לדין שני פעילי שמאל, וואלה!,27/3/2016

[12] - עופר עין גל, אייפד? איינַכּבַה!,ynet 29/4/2004.

[13] - אייל גרוס, הפוליטיקה של זכויות להט"ב: כרך ה

Amalia Ziv, Performative Politics in Israeli Queer Anti-Occupation Activism, GLQ: Vo:162010

[14] - שמעון כהן, 'עשרות מיליונים מממשלות זרות לארגוני שמאל', ערוץ 7, 10/2/2015

[15] - איתמר לוין, שקד מקדמת את "חוק השקיפות",News1 מחלקה 1/11/2015.

יוסי ניסן, 45% מס על תרומות זרות,גלובס, 8/11/2011

[16] - רוחמה מרטון, הבוגדים של היום הם הגיבורים של המחר,העוקץ, 17/9/2017

[17] - https://nif.org.il/

[18] - געלד גרוסמן, גוש שלום עתרה לבג"ץ: "חוק החרם - כתם שחור", באתרוואלה!, 12 ביולי 2011

[19] - http://palsolidarity.org/about

[20] - תמר דרסלר, "אנחנו רוצים שלום לישראלים ולפלסטינים כאחד", ynet 30/11

[21] - ירון אונגר, גבולות הציות והסרבנות לפקודה הצבאית, הכנסת: מרכז המחקר והמידע, ינואר 2010

[22] - Hamas: Left-Wing Encouraged Us to Attack., ערוץ שבע, 9/12/2008

[23] - יעל גרינפטר, מכתב השמיניסטים, באתר הארץ, 30 באפריל 2015

[24] - אודי מנור, יגאל אלון - ביוגרפיה פוליטית, עמ' 238-237.

[25] - דניאל אדלסון, יוזמה: סרבנים מעבירים משכורת צבאית לעזה, ynet 26/3/2009

[26] - מכתב השמיניסטים 2009-2010 באתר "פרופיל חדש"

[27] - פרץ קדרון, תנועת הסרבנות בישראל,

בתוך:עד כאן! עדויות של סרבנים, ת"א, חרגול,2004, עמ'13-23
[28] - לונדון: "יש גבול" הגישה תלונה נגד חלוץ ויעלון, ynet13/9/2005
[29] - ירון אונגר, גבולות הציות והסרבנות לפקודה הצבאית, אתר הכנסת: ינואר2010
[30] - סרבן ראשון במלחמה בלבנון נשלח ל-28 יום בכלא,הארץ, 1/8/2006
[31] - אנדריאס ספק, הסרבנים הדרוזים: אפליה, השתקה ובורות באתר פרופיל חדש
[32] - אורלי נוי: "הסירוב לשרת הוא ההיסטוריה שלא קרתה"، 19.10.2020 .https://www mekomit.co.il
[33] --עמירה הס, התחביר הפנימי של יידוי אבנים, באתר הארץ, 3 באפריל 2013.
-ישי פרידמן, פעילי שמאל חגגו שחרור אסיר שהורשע בניסיון לרצח חיילים, News1 29/11/2011.
[34] - דלית הלוי, עמירה הס: הפיגועים באיו"ש "לגיטימיים", באתר ערוץ 7, 19 ביולי 2015.
[35] - יואב יצחק, הטיפול בערפאת מתעכב בגלל 'חומת מגן אנושית'; News1 4/10/2003
[36] - ערן חרמוני :לאיפה נעלם השמאל הציוני? israelhayom.co.il 21/5/2021
[37] - ד"ר נתנאל וולוך :ממשלת "שינוי" היא סופו של השמאל ynet 30.05.21
[38] - محمد حسني أي شعب.. وماذا يريد التاريخ، جريدة الاشتراكي، 15 أغسطس 2011
https://revsoc.me/-6142
[39] - אורי יזהר: עתיד השמאל בישראל : דעיכה או התחדשות? 2014. עמ'10.
[40] - ((עמ'12.
[41] - ((עמ'14.
[42] - ياسر أبو عريشة: المشتركة..تمثيل للجماهير أم تمثيل على الجماهير؟
https://www.haokets.org/ar/2021/01/30
[43] - יהודית ודמוגרפית: המספרים המפתיעים של ישראל www.maariv.co.i,2020

المرأة الفلسطينية..
نضالات من أجل التحرير والمساواة

مارجوت فالير، وسارة يوكي، وإميليا لويز
كاتبات بموقع «ثورة دائمة» Révolution permanente

ترجمة: عمرو جمال

في أبريل 2020، تضررت فلسطين بشدة، مثل بقية العالم، من جراء الأزمة الصحية. وبسبب الفقر المدقع والبطالة، أدى الوباء إلى تفاقم الظروف البائسة التي يعيش فيها الفلسطينيون في قطاع غزة والضفة الغربية ومختلف الأراضي المحتلة في إسرائيل. قبل الوباء، كان ربع سكان هذه المناطق يعيشون تحت خط الفقر ووصلت البطالة إلى 27 ٪ في 2018. وبعد أكثر من خمسين عامًا على حرب 67، تغلغل الاحتلال الفلسطيني في كل جوانب الحياة اليومية لـ 4.8 مليون فلسطيني. واليوم، يعيش ما يقرب من مليوني شخص عالقين في غزة، محرومين من الحق في التنقل والخدمات الأساسية، ويعيش الفلسطينيون في ظروف شديدة الاختلاط سهلت بشكل كبير انتشار الفيروس. وفي غضون بضعة أشهر، فقد ما يقرب من 121000 فلسطيني وظائفهم ونحو 40٪ من الأسر الفلسطينية فقدت أكثر من نصف دخلها. وكما هو الحال في أي مكان آخر، فإن النساء أول من تأثر بعواقب الأزمة الصحية وبخاصة في أثناء الولادة، مما زاد من عبء مهام الرعاية التي يتعين عليهن القيام بها داخل منازلهن. وكما هو الحال في أي مكان آخر، فإن الحبس مع أزواجهم في بعض الأحيان يجعلهم أكثر عرضة للعنف المنزلي. كما أن العاملات الفلسطينيات اللاتي اضطررن إلى العمل خلال فترات الإغلاق وطوال الأزمة الصحية كن في الخطوط الأمامية في مكافحة وباء كورونا في قطاع الصحة وفي الخدمات الأساسية لاستمرار الحياة في المناطق ذات الظروف المعيشية المعقدة.

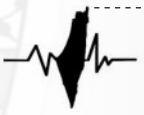

40 ٪ من الأسر الفلسطينية فقدت نصف دخلها. والنساء أول من تأثر بعواقب الأزمة الصحية وبخاصة في أثناء الولادة، مما زاد من عبء مهام الرعاية التي يتعين عليهن القيام بها داخل منازلهن

علاوة على ذلك، نفذت إسرائيل نظام الفصل العنصري للقاح في فلسطين على الرغم من تنفيذ حملة تطعيم واسعة النطاق في الأراضي الإسرائيلية. وقد أوضحت هذه السياسة مرة أخرى الوجه الحقيقي لإسرائيل: فهي دولة استعمارية، رافضة، بالإضافة إلى احتلالها للأراضي الفلسطينية، ومعيشة الفلسطينيين مثل الماشية في الضفة الغربية وقطاع غزة، لاستجابة لحالة الطوارئ الصحية في الأراضي التي احتلتها منذ عام 1967. وبالإضافة إلى الوباء والأزمة الصحية التي لا يزال الشعب الفلسطيني يعاني منها، فالنساء أول ضحايا الاحتلال ككل؛ إذ يخضعن للاستعمار والنظام الأبوي، وهو ما يعبر عنه في فلسطين كشكل من أشكال المحافظة التي تفاقمت منذ عام 1987، عندما بدأت حماس تكتسب شعبية واسعة. حدث ذلك خلال الانتفاضة الأولى بانتشار الملابس الإسلامية للنساء، وهي علامة على مقاومة الاحتلال من جهة،

وأيضًا علامة احترام لشهداء المقاومة. نتيجة لذلك، نرى أن الاستعمار الإسرائيلي كان، تاريخيًا ولا يزال، أرضًا خصبة لتعزيز النزعات الدينية المحافظة الرجعية التي تجسدها حماس في فلسطين. وكما قالت أم شاركت في احتجاجات 2015 لصحيفة ليبراسيون "يجب أن نحارب العقلية الفلسطينية المحافظة بنفس القوة التي نحارب بها الاحتلال".

المرأة الفلسطينية، قائدة الكفاح ضد الاحتلال الإسرائيلي

إذا كانت المرأة الفلسطينية من بين أكثر المتضررين من البطالة بسبب الحصار الإسرائيلي وعليها أن تهتم بمعظم المهام المنزلية والتعليمية وبالعمل، فإن المرأة الفلسطينية تقاتل الاحتلال الإسرائيلي الاستعماري مثل الرجل، فمنذ الانتفاضة الأولى عام 1987 وحتى الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة، هناك حضور حقيقي لنضالها. ومنذ قيام دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية عام 1948 وفي سياق الاحتلال، حشدت النساء من جميع مناحي الحياة جنبًا إلى جنب مع الرجال في النضال من أجل حقهن في تقرير المصير. ومنذ النكبة التي أدت إلى طرد ما يقرب من 800 ألف فلسطيني وفلسطينية من قبل القوات الإسرائيلية، قامت حركة التحرير الوطني الفلسطيني بتمجيد شخصية الرجل الشهيد وبتصوير المرأة باعتبارها تجسيدًا للشرف الفلسطيني. لكن على مر السنين ومن خلال التزامهن السياسي بالتحرير الوطني وكذلك بتحرير المرأة، تحدت النساء الفلسطينيات قوانين النوع الاجتماعي، وأثبتن أنفسهن كعناصر فاعلة مركزية في النضالات، مع وجود اختلافات كبيرة، وذلك حسب الفترة الزمنية. وخصوصًا في أثناء تشكيل الحركة الوطنية الفلسطينية في الستينيات، لم تتشكك فتح والأحزاب اليسارية الأخرى في القيم العائلية التي يعتنقها معظم كوادرها. بالإضافة إلى أن الحركات التي تشكلت من قبل النساء ومن أجلهن مثل الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية كانت نادرة. وأعضاؤها يشاركون بشكل رئيسي في الأنشطة الخيرية. وعلى الرغم من أيديولوجية

المساواة الرسمية لهذه الأحـزاب، غالبًا ما تسند إلى النساء المهام المتعلقة بالرعاية والاعتناء، ويجدن صعوبة في الحصول على الاعـتراف بهن كناشطات سياسيات كاملات الحقوق.

حتى نهاية سبعينيات القرن الماضي، لم يكن هناك جيل جديد من النساء الجامعيات قد رسخن أنفسهن في الأحزاب السياسية وطورن أفكـارًا حـول النظام الأبـوي وحـالـة المـرأة. فخلال العقد 1970/1980، أنشئت العديد من اللجان النسائية التابعة لهذه الأحـزاب وقد وظفت المزيد من النساء في هذه التنظيمات، يقاتلن معًا ضد الاحـتـلال الإسرائيلي ومن أجـل المـسـاواة بـيـن الـرجـال والـنـسـاء في النـضـال وفـي الحـيـاة الـيـومـيـة. وقـد شكلت الانتفاضة الأولى (1987-1993)، نقطة تحول في نشاط المـرأة وفـي المعايير الجنسانية الـتـي روجـت لـهـا الأحـــزاب الـقـومـيـة. ومنذ الأيـام الأولـى للانتفاضة، نزل آلاف الشباب، وخاصة الشابات، إلى شوارع الأراضي المحتلة للتعبير عن غضبهن بعد مقتل أربعة شبان فلسطينيين على يد جنود إسرائيليين عند نقطة تفتيش في مخيم جباليا للاجئين عند قطاع غزة. بالنسبة لهذا الجيل الشاب الذي لم يعرف سوى الاحتلال، كان هذا الاغتيال بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير بعد قرابة أربعين عامًا من الاستعمار. وسرعان مـا شـكّـل هـؤلاء الآلاف مـن الـشـبـاب كتائب واشتبكوا مع جنود مسلحين في شـوارع غزة برشق الحجارة والزجاجات الحارقة. وبرزت النساء بشكل خـاص خـلال هـذه الانتفاضة من خلال لعب دور حاسم في صفوف الطليعة والـوقـوف أمـام الـدبـابـات الإسرائيلية. كما نظمت الفلسطينيات أنفسهن، وشكلن لجان إغـاثـة للمقاتلين، وتـحـديـن حظر التجول لجلب الطعام والدواء إلى الأحياء المحاصرة من قبل الجيش. خـلال هـذه الفترة، انتهى المطاف بنحو 3000 امرأة في سجون النظام بسبب نشاطهن.

وعـلـى عـكـس الانـتـفـاضـة الأولـــى، شـهـدت الانتفاضة الثانية، التي اندلعت في سبتمبر 2000، تـراجـع إمـكـانـات تـدخـل الـمـرأة في المقاومة. أيضًا، أدى تصاعد القمع العسكري الإسرائيلي، إلى وضع أصعب للنضال. وعلاوة على ذلـك، أدت عسكرة الـصـراع إلـى إقصاء النساء من الجبهات، اللواتي يُحجزن مرة أخـرى فـي الـمـؤخـرة. عـادت صـورة الشهيد (أي الشهيد الـرجـل) مـرة أخـرى فـي دائـرة الضوء، ولا يتم الاعتراف بالنساء كناشطات ومناضلات. ومع ذلك، وبينما عارضتها حماس فـي الـبـدايـة، نفذت بعض النساء تفجيرات انتحارية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وبعد الانتفاضة الثانية، وعلى غـرار الأراضـي الفلسطينية، وجـدت الحركة

النسائية نفسها مجزأة، لا سيما بسبب "تحول النضال إلى نضال تنظيمات غير حكومية". وبسبب تجزئة المناطق الفلسطينية المختلفة وبسبب الخلافات السياسية، ضعفت المبادرات السلمية التي تجمع بين النساء الإسرائيليات والفلسطينيات خلال هذه الفترة. في الوقت نفسه، شهدت الحركة النسوية الفلسطينية بعض التجديد مع دمج قضايا مجتمع الميم في أجندتهم السياسية. فمثلاً، تتعامل مجموعة "أصوات" مع النساء الفلسطينيات المتحولات والمثليات وتدين عمليات الغسيل الوردي (pinkwashing؛ وهو مصطلح مركب مرتبط بقضية حقوق المثليين، يستخدم لوصف مجموعة متنوعة من الاستراتيجيات التسويقية والسياسية التي تهدف إلى ترويج المنتجات أو سياسات البلدان أو الأشخاص أو الكيانات من خلال إظهار مساندة مثلي الجنس، بهدف تسويق صورة تقدمية وحداثية متسامحة تعترف بحقوق الأقليات المضطهدة) التي تقوم بها الحكومة الإسرائيلية اليمينية المتطرفة. فمن بين العديد من السياسات المعادية للمرأة وكراهية المثليين التي تنتهجها الدولة الإسرائيلية، يمكننا أن نذكر الابتزاز والتهديدات بنشر هوية فلسطينيين مثليين أو عابري هوية يرفضون العمل كمخبرين للجيش الإسرائيلي. ويوضح لنا هذا التاريخ السريع لمشاركة النساء في الحركات الاحتجاجية ضد استعمار إسرائيل أن لهن مصلحة في المشاركة بشكل فعال في هذه النضالات، بما في ذلك وضع حد للاضطهاد الأبوي الذي يتعرضن له بشكل مباشر، كثمرة نظام استعماري ورأسمالي نسقته دولة إسرائيل في هذه الحالة، وذلك على الرغم من الواجهة النسوية والصديقة للمثليين التي تحاول الأخيرة أن تعطيها لنفسها.

وتتذكر مريم عفيفي في مقابلتها مع مجلة "ثورة دائمة" أنه على الرغم من عملية الغسل الوردي لدولة إسرائيل، التي تدعي أنها صديقة للمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية، فإن النساء الفلسطينيات والمثليات والمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية يعانون من الاضطهاد المزدوج المرتبط بحياتهم الجنسية أو جنسهم واضطهاد الصهيونية لهم بشكل يومي "أعتقد أن استخدام ذريعة نحن ندعم مجتمع المثليين، نحن ندعم النسوية خاطئ تمامًا.. لأن إسرائيل ليست دولة نسوية.. إنها دعاية تستخدمها إسرائيل لجذب الانتباه. وهذا غسيل وردي يغسل عقول الناس". في الأراضي المستعمرة مثل فلسطين، تؤدي الظروف المادية الناتجة عن هذا الاستعمار حتمًا إلى تفاقم آليات

اضطهاد النساء والأقليات الجندرية. وبالفعل تصيب البطالة الجماعية والهشاشة والعنف بشكل خاص النساء، اللائي يجدن أنفسهن في كثير من الأحيان في أسفل السلم الاجتماعي، ويعملن في وظائف منخفضة الأجر، ويتعرضن للاحتقار ويعانين من العنف الذكوري في أماكن عملهن. وتضعهم هذه الظروف المادية في وضع اعتمادي أكبر على الرجال. وكرد فعل على استعمار دولة إسرائيل وعنف هذا النظام، ظهرت منظمات سياسية مثل حماس في معارضة فتح التي تكيفت في النهاية مع وجود إسرائيل. حماس، التي تروج لأجندة دينية لحل الأزمة، هي منظمة شديدة الرجعية تدعو إلى أجندة معادية للمرأة وكراهية للمثليين، وقد أدى ظهورها إلى تعزيز المعايير الذكورية داخل المجتمع الفلسطيني. فنرى هنا كيف يسهل الاستعمار ظهور الأفكار المتطرفة والرجعية.

"إذا لم نقاوم نحن النساء هذا الاحتلال، فمن سيفعل؟"..

من دوافع حركة التمرد والاحتجاج هذه لدى الشباب الفلسطيني ضد سياسة الاستعمار والتطهير العرقي لفلسطين، والقدس على وجه الخصوص، محاولات طرد عدة عائلات من حي الشيخ جراح، وهي منطقة تاريخية في القدس الشرقية، لصالح المستوطنين الإسرائيليين. وانتشرت بعد ذلك حركة احتجاجية للشباب الفلسطيني وفي مقدمتها النساء إلى قطاع غزة. وتُظهر شهادات عديدة أهمية المرأة في مقاومة سياسة الطرد والقمع الإسرائيلية في القدس الشرقية، وكذلك في الدفاع عن الأماكن المقدسة. والنساء الفلسطينيات حاضرات أيضًا بشكل خاص في مختلف التظاهرات في القدس ضد الاعتداءات الإسرائيلية. وفي مقابلة مع صحيفة "ميدل إيست آي"، قالت منى، فتاة فلسطينية تبلغ من العمر 23 عامًا وتعيش في الشيخ جراح "مع تطور الأحداث في الشيخ جراح، تتولى النساء الفلسطينيات أدوارًا حاسمة وقيادية، ويحضرن الاجتماعات ويشاركن في عملية صنع القرار. كما أنهن يتخذن مبادرات فردية كناشطين متضامنات، ويحضرن جلسات المحكمة في المحاكم الإسرائيلية ويتابعن عن كثب المعركة القانونية. أما بالنسبة لمريم عفيفي "إذا لم نقاوم نحن النساء هذا الاحتلال، إذا لم نطالب بحقوقنا، إذا لم نناضل من أجل البقاء على هذه الأرض، من سيفعل؟ ". وأوضحت مريم أنها تعرضت للضرب على أيدي الشرطة الإسرائيلية في أثناء احتجازها. إن النساء الفلسطينيات يتعرضن بالفعل للقمع الشديد، إذ وصلت نسبة الضحايا الذين قتلوا منذ بدء العدوان الإسرائيلي، من النساء والأطفال، إلى 40%.

> في السبعينيات أنشئت العديد من اللجان النسائية التابعة للأحزاب وقد وظفت المزيد من النساء في هذه التنظيمات، يقاتلن معًا ضد الاحتلال الإسرائيلي ومن أجل المساواة في النضال وفي الحياة اليومية..

> تحدت النساء قوانين النوع الاجتماعي وأثبتن أنفسهن كعناصر مركزية في النضال، وأثناء تشكيل الحركة الوطنية الفلسطينية في الستينيات، لم تتشكك فتح والأحزاب اليسارية. في القيم العائلية التي يتقاسمها معظم كوادرها..

وتلعب النساء أيضًا دورًا مقاومًا مهمًا كأعضاء في المجتمع الديني، على الرغم من الدور المحافظ الذي يلعبه في المجتمع الفلسطيني. وقالت عبير زياد ومديرة مركز سلوان الثوري لصحيفة المونيتور التي تعيش في القدس إن المرأة الفلسطينية "لعبت دورًا رائدًا في التطورات الأخيرة، وهذا أمر طبيعي ويأتي في إطار استمرار مساعيها لإعطاء الأولوية لحماية المسجد الأقصى وأحياء القدس الشرقية". هناك قمع لنساء اللواتي يلعبن دورًا دينيًا مهمًا بشكل خاص من قبل الشرطة الإسرائيلية، وأحيانًا تصل إلى الاعتقالات العشوائية، وهذا هو الحال بشكل خاص مع المرابطات اللاتي يدافعن عن الأماكن المقدسة. ويستضيف المسجد الأقصى، الذي هاجمته القوات الإسرائيلية مؤخرًا، مجموعة من المرابطات، مكونة من ناشطات يحمين المسجد من اعتداءات المستوطنين

والشرطة. وقد صار نشاطهن رمزًا لمقاومة الاضطهاد الإسرائيلي.

عنصر مهم آخر في التعبئة الأخيرة للنساء لمقاومة إسرائيل، وهو الدور الذي تلعبه شبكات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، إذ يستخدم الجيل الجديد هذه المنصات للهرب من الرقابة ومشاركة نضالهم. وفي عام 2009، أتاحت الشبكات الاجتماعية تجاوز التعتيم الإعلامي على عمليات الإخلاء التي حدثت بالفعل في الشيخ جراح. وتشرح مريم عفيفي "إن كثيرًا من الناس بدأوا يرون الاضطهاد من خلال أعيننا، من خلال المنتجين ومصوري الفيديو لدينا.. نحن نشارك قصصنا.. وإذا لم ينتشر مقطع الفيديو الخاص بي لتوقيفي على وسائل التواصل الاجتماعي، لكنت ما زلت في السجن حتى اليوم.. إذا لم تكن وسائل التواصل الاجتماعي قوية جدًا، فلن يحذف إنستجرام وفيسبوك وتويتر منشوراتنا والهاشتجات الخاصة بنا".

إن تصميم وشجاعة النساء الفلسطينيات اللواتي هن في طليعة المقاومة لدولة إسرائيل الاستعمارية يذكرنا بأن تحرير المرأة يجب أن يسير جنبًا إلى جنب مع تحرير جميع الشعوب المضطهدة وفي هذه الحالة، الشعب الفلسطيني. فالرأسمالية، التي تجسدها دولة إسرائيل الاستعمارية، فالبرجوازية في فلسطين تتغذى على النظام الذكوري وتستخدمه لتقسيم المستعمَرين واستغلالهم بشكل أفضل، ومن ثَم لن يتمكن الفلسطينيون من إسقاط هذا النظام الذكوري دون إسقاط الدولة الإسرائيلية وبشكل أعم النظام الرأسمالي الذي تخدمه. ولهذا السبب فإن الحركة النسوية حول العالم والمنظمات المناهضة للعنصرية والحركة العمالية يجب أن يدعموا حركة المقاومة للشعب الفلسطيني.

وبالمثل، يجب على حركة التحرير الفلسطينية أن تأخذ بعين الاعتبار كل قضايا الشعب الفلسطيني المظلوم من أجل محاربة كما أنه الظلم والاضطهاد الذي يعاني منه الشعب. لا يمكن ترك قضايا النوع على الهامش، لكن هذا النضال يجب أن يحدث في استقلال تام عن دولة إسرائيل التي تستغلهم وتضطهدهم، وكذلك عن كل المنظمات التي تناصر الصهيونية، كما أيضًا مستقلة تمامًا عن المنظمات السياسية الدينية الرجعية مثل حماس. يجب أن يكون هذا النضال جزءًا من النضال الجماعي من أجل بناء دولة فلسطينية عمالية واشتراكية، حيث يمكن لليهود والفلسطينيين العيش معًا بسلام.

بين «حراسة الجدران» و«سيف القدس»: إسرائيل ترى هزيمتها!

هشام جعفر

«حـراسـة الـجـدران» الاسـم الـذي أطلقه الكيان الصهيوني على عملياته العسكرية على غزة في مايو 2021، في حين أطلقت المقاومة الفلسطينية على حملتها اسم «سيف القدس»، والتسميتان تحملان دلالات عـديـدة لنا ولـهـم، الـمـقـاومـة فـي وضعية المبادرة في حين الكيان الصهيوني في موقف الدفاع والحماية. المقاومة تدرك رمزية القدس وأهميتها المعرفية/القيمية للصراع؛ في مقابل الجدران التي لا معنى لها؛ فهي أبنية صماء بلا تاريخ والمهم حمايتها وحـراسـتـهـا لأنـهـا مـوطـن الإقـامـة فـقـط! العقيدة القتالية في «حراسة الجدران» تقوم على الـردع أي «الدفاع عن إسرائيل»، في حين أن «سيف القدس» تقوم على المبادرة. في الأولـى مطلوب أن تحافظ على النفس من القتل، تحفظ البنيان المادي لأنه المقصد والفلسفة التي قام عليها الكيان، لذا فإن «عملية حراسة الـجـدران «نصر تكتيكي، وهزيمة استراتيجية»، كما قـالـت الصحف الإسرائيلية، أو«عملية انتهت ولـم تـتـم». وفـي «سيف القدس» معيار النصر أن تحافظ على عرضك ومالك وبيتك ومقدساتك وإن فني جسدك، وفي «حراسة الجدران» أنـت هالك وفـي الثانية أنـت شهيد، والشهيد حي بشهادته الدائمة على أصحاب القضية.

أتابع هنا ما كتبه مركز بيجن السادات BESA، ومعهد دراسـات الأمـن القومي INSS - وهما من أهم مراكز التفكير الإسرائيلية- على مدار الفترة من 10 مايو الماضي حتى 26 مايو، من خـلال أكثر من عشرين مقالاً وتقدير موقف وتقييم استراتيجي وتدوينه لخبراء الـمـركـزيـن، وأتـنـاولـهـا مـن خـلال العناصر الخمسة التالية:

أولاً: معركة السرد

الملاحظة الجوهرية في هـذه النقطة أنـه برغم إدراك العقل الاستراتيجي الإسرائيلي اتساع الجبهات في الجولة الأخيرة من الصراع لتشمل الضفة، وغزة، وعرب 48، بالإضافة إلى فلسطينيي الشتات، والرأي العام العربي والإسلامي وبعض قطاعات الرأي العام الغربي فإن هناك محاولة دائبة لاختزال الأمر إلى صراع مع حماس، والأسباب مفهومة؛ منها التغطية على هـذا الاتـسـاع، وتغيير طبيعة القضية مـن أن تكون شعبًا يبحث عن حقوقه لتكون أمـر«الإرهـاب الإسـلامـي» الـذي تجمع كثير مـن الـبـلـدان على محاربته سواء لدي جل النظم العربية أو بلدان العالم المختلفة وجماهيرها أيضًا؛ فالمقصود شيطنة حماس». هل يعرف مؤيدو حماس في الغرب حقيقة ما تمثله هذه المنظمة؟ الحقيقة أن حماس ليست حركة تحرير تبحث عـن أمـة فلسطينية. وبـدلاً من ذلـك، تسعى إلـى تدمير إسرائيل وإقـامـة دولة إسلامية على أنقاضها». ومع ذلك فإن «للصراع الحالي بين إسرائيل وحماس العديد من السمات القديمة والجديدة».

ومن اقتراب الجديد والقديم تناقش أهداف طرفي الصراع؛ حماس وإسرائيل، وكأن بقية الفلسطينيين الذين تحركوا على كل صعيد غير موجودين «كانت عملية Guardian of the Walls جولة أخرى في الصراع غير المتكافئ بينهما، وينطبق هذا التباين أيضًا على أهـداف العملية؛ فبينما كانت أهـداف حماس سياسية ومعرفية، كانت أهداف إسرائيل عسكرية». أما النتائج، فقد «حققت حماس أهدافها مع بداية الحملة، هكذا نصب التنظيم نفسه في الساحة الفلسطينية كمدافع عن الأقصى والقدس بإطلاق قذائف صاروخية في عمق الأراضي الإسرائيلية، مما أدى إلى تعطيل الحياة المدنية الروتينية، وتسبب في مقتل 12 شخصًا وكـثـيـرًا مـن الـدمـار، وحـرض على الاضـطـرابـات بين الـعـرب والإسرائيليين في المجتمعات المختلطة، وأثـار تظاهرات عنيفة في الضفة الغربية وعلى الحدود الإسرائيلية اللبنانية. وأثبت أنه كان اللاعب الوحيد (على عكس حزب الله وإيران) المستعد لمواجهة أقوى جيش في المنطقة». في حين كان هدف إسرائيل عسكريًا بالدرجة الأولى «تحقيق هـدوء أمني طويل الأمـد، وتأجيل الجولة التالية من الصراع.

عند هذه النقطة ينتقل النقاش لتقويم العقيدة القتالية للجيش الإسرائيلي- التي شهدت تغيرًا مع

بداية الألفية الجديدة، والانتقال بها من النصر الحاسم الواضح للخصم إلى الردع من خلال «التأكيد على الثمن الباهظ لعدوانها [يقصد حماس] وإضعاف قوتها العسكرية والإضرار بقدرتها على إعادة بنائها، ومهاجمة قادتها، وتحييد العمود الفقري للتنظيم تحت الأرض، وتقليل الأضرار والمفاجآت للجبهة الداخلية الإسرائيلية».

وإذا صيغت الأهداف الاستراتيجية لكل طرف على هذا النحو يصبح من الضروري تقييمها، فبينما حققت حماس الأهداف التي حددتها لنفسها في بداية الحملة - تقديم نفسها كمدافع عن الأقصى والقدس وقيادة الفلسطينيين في الكفاح ضد إسرائيل - لم تحرر إسرائيل نفسها من المنطق الذي وجه أعمالها في جولات الصراع السابقة مع حماس، التي تركز على الردع القوي.

الهدف الاستراتيجي الذي كان على الحكومة الإسرائيلية أن تصوغه- كما تقترحه إحدى الدراسات- هو السيطرة على ساحة الصراع ومنع توسعها إلى ساحات إضافية، مع التركيز على إضعاف حماس ومنعها من السيطرة على الساحة الفلسطينية، وتقليل قدراتها العسكرية إلى مستواها الأدنى، وإعادة السلطة الفلسطينية إلى مكانة الممثل الحصري للفلسطينيين، مع التطلع إلى اليوم التالي لعباس.

وجزء من الجردة الاستراتيجية لهذه الجولة من الصراع هي بالنسبة لإسرائيل أولاً وقبل كل شيء؛ استعادة الهدوء في القدس وفي المدن والبلدات ذات السكان العرب واليهود المختلطين، وإضعاف الارتباط بين الساحتين. بالإضافة إلى ذلك، مُنع المزيد من التصعيد في ساحات الصراع الأخرى في الشمال والضفة الغربية. بينما تحظى إسرائيل بدعم الولايات المتحدة واعتراف المجتمع الدولي بأنها «ليست المعتدي، وقد اضطرت للدفاع عن مواطنيها بالوسائل المتاحة لها».

أما حماس فقد حققت الأهداف التي حددتها لنفسها في بداية الحملة، نصّب التنظيم نفسه على أنه المدافع عن الأقصى والقدس. إطلاق قذائف صاروخية في عمق الأراضي الإسرائيلية، ما أسفر عن سقوط 12 قتيلاً ومئات الجرحى. تصاعد الاضطرابات المدنية في المدن المختلطة بين اليهود والعرب في إسرائيل من خلال تشجيع الشباب العرب على المشاركة في الاضطرابات ومهاجمة اليهود، أثارت أعمال شغب في الضفة الغربية؛ وفوق كل شيء أكد [التنظيم] أنه زعيم المعسكر الفلسطيني، مع إظهار ضعف السلطة الفلسطينية».

وفي دراسات عدة تمت مناقشة ما يمكن أن نطلق عليه «فجوة إدراك الأهداف» بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي من جهة، وبين القيادة الإسرائيلية وجمهورها من جهة ثانية؛ فقد كان الهدف الاستراتيجي المعلن للحكومة الإسرائيلية، كما قدمه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، أن «حماس ستفكر مرتين في المرة القادمة قبل إطلاق النار

علينا». ومع ذلك، فهذا الهدف لا يتصدى لهدف حماس في الوصول إلى موقع الريادة في الساحة الفلسطينية ككل واستعدادها لدفع أثمان باهظة من أجل إملاء شروط وقف إطلاق النار على إسرائيل من موقع قوة.

والهدف الاستراتيجي الذي كان على الحكومة الإسرائيلية أن تصوغه وتقدمه هو التعامل مع الأهداف التي ابتغت حماس تحقيقها؛ والخلاصة، في حين أظهر تفكير إسرائيل في أثناء القتال منطقًا كميًا تكتيكيًا، كان تفكير حماس إستراتيجيًا نوعيًا. كان هذا واضحًا في الخطاب الإسرائيلي الداخلي، الذي ركز على الإنجازات الكمية للحملة مثل عدد الأهداف التي استهدفت، وعدد قتلى إرهابيي حماس، وكمية الصواريخ التي أطلقت، وعدد الأنفاق التي دمرت، وعدد المباني متعددة الطوابق التي دمرت، وهكذا.

لم يمنع منطقها التكتيكي الكمي إسرائيل من الوصول إلى نتيجة عسكرية واضحة لا جدال فيها فحسب، بل استخدمت حماس منطقًا مختلفًا تمامًا ركز على الأهداف الاستراتيجية المنهجية. وهذا ما انتهت إليه إحدى الدراسات الإسرائيلية «للمرة الأولى، نجحت حماس في إغراء الجسم السياسي الفلسطيني بأسره (في غزة والضفة الغربية وداخل إسرائيل) إلى تفجر الإرهاب والعنف. ومن ثَم، فقد قوَّض نهجًا إسرائيليًا رئيسيًا، وهو نهج نجح لفترة ملحوظة؛ دق إسفين بين السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة».

كما شنت حماس حملتها من منظور إقليمي ودولي واسع. على عكس الجولات السابقة، حيث كان «الحصار» على غزة مركزًا للقتال وأهدافه من قبل، حولت حماس في هذه الجولة القدس إلى بؤرة رمزية. وهكذا تولت حماس قيادة معسكر الإرهاب و«المقاومة» الإقليمي، حتى على حساب حزب الله، الذي كان عليه الرضوخ لإطلاق الصواريخ على إسرائيل من الأراضي اللبنانية من قبل الفصائل الفلسطينية «المتمردة» (والتي يمكن أن تصبح ظاهرة مستمرة).

ثانيًا: التداعيات والآثار

غيَّر الصراع في غزة -كما ترى إحدى الدراسات- هذا الواقع وعزز مناصري سياسات الهوية داخل غزة، وبين عرب إسرائيل وفلسطينيي الضفة الغربية. وبدلاً من أن تكون مجرد جولة تكتيكية أخرى بين الجانبين، كانت المواجهة الأخيرة في غزة بمثابة صدام استراتيجي بين مدارس ومقاربات ووجهات نظر عالمية ومخيمات مختلفة، ف «القلوب الآن لها اليد العليا في مقابل البراجماتية الاقتصادية»، وتمكنت حماس من جعل نفسها لاعبًا استراتيجيًا مهما خارج الساحة الفلسطينية. لقد نجحت في تقويض النموذج الاقتصادي البراجماتي لصفقة القرن، وإثارة الصراع بين اليهود والعرب في إسرائيل، ومنح الجماعات الإرهابية في المنطقة سببًا وجيهًا لمواصلة مواجهة إسرائيل.

يتطلب أي جهد لمواجهة هذا الاتجاه الناشئ، أولاً وقبل كل شيء، استيعابًا معرفيًا للأهمية الحقيقية للحرب الأخيرة، ولا سيما نتائجها الحقيقية، عاجلاً كان ذلك أفضل.

هكا تدرك عديد من الدراسات البعد المعرفي/القيمي لهذه الجولة من الصراع فهذه الإنجازات تهدف إلى «تشكيل الإدراك فيما يتعلق بالوحدة العربية العربية وثقب مكانة إسرائيل الإقليمية القوية».

وحاولت حماس أن توسع معادلة الردع مع إسرائيل من خلال ربط القدس وقطاع غزة، وتجرأت على توجيه إنذار لإسرائيل والوفاء بتهديداتها.

لذا يصبح من الضروري «تقليص إنجازات حماس في السنوات الأخيرة في إعادة الإعمار وتحسين الحياة المدنية في غزة [بما يؤدي] إلى تآكل شرعيتها المحلية والشرعية الدولية التي سعت إلى ترسيخها. وبدلاً من ذلك، تقوية صورتها (على الأقل أمام العديد من الجماهير، خاصة في الغرب) كمنظمة إرهابية تحتجز المدنيين رهائن لسياساتها الجامحة».

ويستمر تقييم نتائج الجولة على حماس «يجب أن يكون واضحًا أن حماس تعرضت لضربة قاسية لقدراتها العسكرية ومن ثَم لموقفها السياسي، وأن التحدي الذي تمثله لهيمنة السلطة الفلسطينية على الأراضي والقدس تم إضعافه في أعقاب الحملة الأخيرة»، وعلى الصعيد الدولي، نقلت إسرائيل أن حماس هي المعتدي الذي خطط لهذه الحملة وشنها، وأنها تعمل كمنظمة إرهابية بكل الطرق وتوجه أسلحتها بشكل أعمى نحو السكان المدنيين.

وبالنسبة لعرب 48 وفلسطينيي الضفة الذين ربما علق بعضهم آمالهم على حماس كقائدة للنضال الوطني الفلسطيني، فقد نقل إليهم رسالة مفادها «قد يؤدي فشل حماس في الحملة العسكرية إلى تقويض آمال تلك الأقلية المتطرفة التي أغراها التنظيم».

ثالثًا: عرب ٤٨.. الجهاد داخل إسرائيل

يلاحظ على النقاش في هذه النقطة مجموعة من الملاحظات الأساسية، الأولى النظر إلي عرب 48 بأنهم باتوا تهديدًا وجوديًا للكيان الصهيوني «ما جعل هذا الحريق الأخير صادمًا بشكل خاص لليهود الإسرائيليين».

والثانية فشل صيغة دمجهم كأقلية عرقية من منظور الدولة القومية (أو بالأحرى تحويلهم لمواطنين إسرائيليين)؛ وكأن إسرائيل دولة قومية طبيعية، وثالثًا: فإن النقاش استحضر الأسباب والدوافع التي

أدت لانتفاضتهم فالمحرك الرئيسي لهم لم يكن مشكلة التمييز بل كانت دوافع معنوية لا مادية، بل هي «صعود قومي (وإسلامي) لا ينبع من الافتقار إلى الحقوق أو الفرص ولكن من رفض وضع الأقلية» واعتبار هيمنة اليهود في فلسطين هيمنة غير مشروعة من قبل غاز أجنبي يجب أن يحل محله، لذا فإن الثوران قادم لا محالة، ويصبح حتمًيا «ونأمل أن يكون في المستقبل البعيد.. ومن المحتمل أن نرى المدن المذكورة أعلاه إيقصد اللد وأم الفحم وعسقلان.. إلخ، وكذلك طرق النقل الرئيسية (ولا سيما وادي عارة) والمناطق المجاورة للبلدات والقرى العربية تصبح مرة أخرى ساحات قتال رئيسية إذا لم يصادر السلاح».

وتشير إحدى الدراسات إلى أنه لم يتضاءل رفضهم لوضعهم كأقلية، بل اشتد مع ارتفاع ثرواتهم الاقتصادية والسياسية، وكذلك معارضتهم للدولة اليهودية في حد ذاتها، ففي منتصف السبعينيات، تخلى واحد من كل اثنين من العرب الإسرائيليين عن حق إسرائيل في الوجود، وبحلول عام 1999، كان أربعة من كل خمسة يفعلون ذلك.

مدت دراسة أخرى هذا الفهم على استقامته فقالت «انفجار العنف الجماعي من قبل العرب الإسرائيليين ضد مواطنيهم اليهود لا يقل عن كونه حربًا دينية ويجب التعامل معه على هذا النحو»، وهناك بالطبع جحافل من المعلقين الذين سينسبون الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بشكل عام، والانفجار المستمر للعنف من قبل المواطنين العرب في إسرائيل بشكل خاص، لأسباب إقليمية أو وطنية أو اقتصادية أو مدنية أو قانونية. ومع ذلك فهم يتغاضون عن السبب الأعمق والأكثر استعصاءً على الحل وهو رفض الإسلام المطلق لحق اليهود في إقامة دولة».

والملاحظة الأخيرة، هي استحضار للذاكرة التاريخية في علاقة العرب باليهود على أرض فلسطين منذ مطلع القرن العشرين وفي النصف الأول منه «هذا ما حدث في ثورة 1939-1936 العنيفة في جميع أنحاء فلسطين، عندما انضمت العصابات الإجرامية العربية إلى الإسلاميين المتشددين، الأسلاف الأيديولوجيين لحركة حماس والحركة الإسلامية الإسرائيلية، لقتل نحو 450 يهوديًا، إلى جانب 180 جنديًا ورجل شرطة بريطانيًا وآلاف من العرب الفلسطينيين.

وتتبع بعض الدراسات الأسباب التي أدت بعرب 48 للانتفاض وتعزوها إلى تراكم عديد الأسباب «في الواقع، ما أدى إلى تزايد التحدي للدولة وسياساتها وقيمها لم يكن الحرمان. بالأحرى، كان التطرف المستمر للمجتمع العربي الإسرائيلي على مدى العقود الماضية. سهلت هذه العملية من خلال زيادة الثراء والتعليم، كما أنها اتبعت منطقًا سياسيًا خاصًا بها».

وتضيف دراسة أخرى «خوفًا من التخلف عن الركب، صعد عرب إسرائيل بثبات مطالبهم القومية. الآن طرحت مثل هذه الأفكار التي لا يمكن قولها حتى الآن مثل أنه يجب حل إسرائيل وتحويلها إلى دولة ثنائية القومية - أي دولة عربية لا يحل فيها العرب ولكن اليهود مكانهم كأقلية».

كما أسهمت عوامل أخرى في تدهور الوضع، أحدها هو القوة والنفوذ الصاعدان للحركة الإسلامية، التي ضخت في الصراع عنصرًا دينيًا ظل خامدًا إلى حد كبير منذ عام 1948. والآخر هو احتضان إسرائيل الوهمي لأوسلو، على الرغم من استهزاء منظمة التحرير الفلسطينية الوقح والمتواصل بالتزاماتها بموجب اتفاقية عام 1993. والثالث هو الاتجاه المتنامي «لما بعد الصهيونية» بين المتعلمين الإسرائيليين، الذي من خلاله خلق انطباع عن مجتمع منهك ومستعد لدفع أي ثمن مقابل الراحة، وأخيرًا شجع العناصر الأكثر راديكالية في الجانب العربي على الحلم بتوجيه ضربة نهائية».

رابعًا: حاخامات حماس

في هذه النقطة يتم تناول التغير المستجد في موقف الشباب اليهودي خاصة في الولايات المتحدة من إسرائيل، ويرتبط بذلك الصراع الدائر في الحزب الديموقراطي الأمريكي بين الجناح التقدمي منه وبين التيار السائد داخله، والذي تمثله الإدارة الجديدة في البيت الأبيض.

هناك إدراك أن هذا من مستجدات المشهد «للصراع الحالي بين إسرائيل وحماس العديد من السمات القديمة والجديدة. من بين أكثرها رواية المعارضة

الصريحة للتقدميين داخل الحزب الديمقراطي. والسبب الآخر هو التفرقة العنصرية الكاملة للصراع على أسس أمريكية بحتة: الإسرائيليون هم المضطهدون البيض، والفلسطينيون هم الضحايا السود الملونون».

وأخيرًا؛ فهناك إدراك لفشل الدبلوماسية العامة الإسرائيلية في الحفاظ على التأييد الدائم لها، ولكن الفشل تتم مناقشته في إطار مؤسسي فقط (أي إعادة هيكلة المؤسسات العاملة في هذا المجال) دون نقاش جاد حول السلوك الإسرائيلي في علاقته بحقوق الإنسان الفلسطيني وما يتعرض له من انتهاكات في الضفة وغزة باعتبارها سلطة احتلال، أو ما يتعرض له عرب ٤٨ من فصل عنصري.

ترصد إحدى الدراسات كيف بات الشباب اليهودي الأمريكي يرى الصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل، وتعزوها إلى سببين أساسيين: منظور العرق في الإدراك الأمريكي الآن، بالإضافة إلى الممارسة الدينية السائدة وسط الشباب اليهود «هؤلاء الطلاب الحاخامون صورة مصغرة لليهود الأمريكيين الشباب الذين يرون الصراع الإسرائيلي الفلسطيني من خلال منظور العرق الأمريكي الذي يتفاقم بفعل صيغة التنوع والمساواة والاندماج السائدة في المجتمع الأمريكي اليوم، كما أنه يتزامن أيضًا مع الممارسة شبه الدينية الحالية المتمثلة في رؤية تقوم بأعمال «العدالة» بدلاً من المشاركة في العبادة أو الصلاة».

كما يرصد التطور الذي جرى بين الشباب في علاقتهم بالمشروع الصهيوني «أدى الاشتعال الأخير بين إسرائيل وحماس مرة أخرى إلى إجبار اليهود الأمريكيين على الانحياز لأحد الجانبين: إسرائيل مقابل مُثلهم العالمية، التي يرون أنها تتعارض مع المشروع الصهيوني».

وفي مقال «غزة والحرب بين الديموقراطيين» يرصد الكاتب طبيعة النظرة التي يقدمها التقدميون في الحزب الديموقراطي للصراع الآن حين جعلوه «عنصريًا ينقسم إلى إسرائيليين «بيض» يضطهدون الفلسطينيين «السود والملونين». ويلاحظ أن هذه السمات قد ظهرت على مدى السنوات القليلة الماضية، لا سيما بين حركة المقاطعة BDS التي بدأت في إجراء المقارنات بصوت عال بعد أعمال الشغب التي قام بها فيرجسون عام 2014، وأصبحت سمة من سمات خطاب أمة الإسلام وحياة السود مهمة. ولكن تم التعبير عن هذا الآن بشكل كامل كقضية ثقافية وسياسية، ويرجع ذلك في جزء كبير منه إلى تصاعد الاهتمام الأمريكي حول «العرق» وعدم كفاءة إدارة بايدن الجديدة التي لا تزال غير مسبوقة، بل وكارثة بالفعل».

وهناك محاولة لتتبع الجذور الاجتماعية لهذه الظاهرة الجديدة وجعلها ترتبط أساسًا بالأجيال الشابة «يسهل فهم الجوانب المتعلقة بالجيل إلى حد ما جيل ضائع من خريجي الجامعات ضعيفي التعليم مع القليل من المهارات الكمية أو التحليلية التي يمكن تمييزها، لكن الشعور الصحي بالاستحقاق وكذلك الديون الكبيرة أثبت أنه أرض خصبة لسرد الأحداث عن الضحية والاشتراكية».

ويقترن بهذا الذعر الأخلاقي الذي تدعمه الشركات الآن بشأن العرق حيث يحل «الإنصاف» بمعنى النتائج المتساوية محل الجدارة كأساس للتعليم والنتائج الأخرى.

وعند هذه النقطة يتم مناقشة «الفشل المنهجي للدبلوماسية العامة الإسرائيلية» والحاجة إلى أخرى قوية»؛ ارتباط العقيدة القتالية الإسرائيلية القائمة على الردع بدبلوماسية عامة قوية ضرورة لأن هدف الردع لا يقوم على الانتصار الكامل على الخصم كما كان من قبل في عقيدتها القرن الماضي».

أما جوهر استراتيجية الدبلوماسية العامة فهي الحرب على الإرهاب، ويجب أن تركز الرسائل العامة الموجهة لجمهور محدد في الساحة الدولية على الخصائص الجهادية لحماس والجهاد الإسلامي بطريقة تربط تلك التنظيمات بعناصر إرهابية مهمة، مثل القاعدة وداعش، والتي لا جدال في شرعية القتال ضدها».

خامسًا: التوصيات وأجندة العمل

-إن المهمة الأولى والأكثر إلحاحًا التي تواجه إسرائيل بعد حرب غزة هي مصادرة عشرات الآلاف من الأسلحة غير المشروعة التي بحوزة المواطنين العرب في البلاد، وخاصة العصابات الإجرامية، خشية استخدامها في تمرد قومي/ إسلامي.

-تقليص مسؤولية إسرائيل عن غزة، ومواجهة صورة القطاع على أنه لا يزال تحت «الاحتلال الإسرائيلي».

-استمرار عملية التطبيع مع الدول العربية البراجماتية.

-دحر إنجازات حماس على الساحة الفلسطينية وخلق أفق سياسي مع السلطة الفلسطينية.

-استراتيجية سياسية جديدة للتسوية السياسية مع الفلسطينيين والتي تم تجنبها لسنوات.

هذه أمثلة لبعض التوصيات التي تقدمها هذه الدراسات لصانع القرار الإسرائيلي لتكون بمثابة اجندة عمل مستقبلي له، ولكنها بالنسبة لنا يجب أن تكون سبيلاً لبناء توصيات واستراتيجيات مضادة للطرف الفلسطيني ومن ورائه القوى الداعمة لها.

تتوزع التوصيات على مستويات أربعة منفصلة لكنها مترابطة، مع وجوب وجود طرف مسؤول عن كل منها.

-1 سياسي: تجاه السلطة الفلسطينية وليس حماس؛ والغرض منها تعزيز مكانة السلطة الفلسطينية في المعسكر الفلسطيني ومكافأتها على خيار الحوار على «المقاومة» واستخدام القوة.

-2 الأمن: ضمانات مصرية للحفاظ على وقف إطلاق

النار، وإذا لم يستمر الهدوء، فسيتعين على إسرائيل أن تضع آلية للإكراه موضع التنفيذ تقوم على هجمات قوية ضد حماس مقابل كل انتهاك من قطاع غزة، وستكون حماس مطالبة بكبح الفصائل المتمردة بقصد المقاومة.

-3 إعادة الإعمار الاقتصادي: تشكيل وكالة دولية (الرباعية/ الأمم المتحدة/ الدول العربية البراجماتية) لإدارة مشروع إعادة الإعمار في قطاع غزة والمساعدات الإنسانية للسكان، وعلى إسرائيل أن تجعل هذا الأمر مشروطًا بآلية فعالة لمنع إعادة تسليح حماس والجهاد الإسلامي. كما يجب منع الابتزاز من قبل حماس، الذي أصبح ممكنًا من خلال دخول الأموال من قطر، والتي استخدمت أيضًا في الحشد العسكري لحركة حماس.

-4تبادل مع حماس لأسرى/ جنود مفقودين: إعادة الأسرى المدنيين وجثث الجنود الإسرائيليين الذين تحتجزهم حماس بعدد معقول من الأسرى، مع مراعاة خطورة الجرائم التي ارتكبها الإرهابيون، وقصدت المقاومين.

تفصل عديد الدراسات هذه التوصيات المجملة وتبين المنطق من ورائها:

-إن وقاحة حماس وعدم قدرتنا على فهم منطقها يوضح لماذا يجب على إسرائيل أن تكافح من أجل تسوية مستقرة طويلة الأمد في غزة لا تقوم على الابتزاز والتقوية الفعلية لحماس، ولكن على تقوية السلطة الفلسطينية في غزة. فقد ثبت أن الاعتماد على الأموال القطرية ليس حلاً مستقرًا على المدى الطويل. من الأفضل إيجاد أدوات أخرى لكبح حماس والسماح بحياة طبيعية لسكان قطاع غزة.

-زيادة قيمة خيار الترتيب في غزة بالنسبة لإسرائيل يتطلب وجود أنظمة استقرار وتفتيش، وخاصة التزام مصري ودولي بآلية تفتيش فعالة لمنع إعادة التسلح وتجديد حشد القوة من قبل حماس والجهاد الإسلامي.

-تخشى القيادة السياسية وقادة الدفاع، مع ذلك، من «ضربة حاسمة» من شأنها أن تثني حماس والجهاد الإسلامي عن الجولة المقبلة، بينما تجعل في الوقت نفسه وضع استراتيجية سياسية جديدة للساحة الفلسطينية أمرًا غير ضروري، وهو ما تجنبته إسرائيل لسنوات عديدة، ولم يتحقق بعد.

-يجب أن يكون دخول المساعدات إلى قطاع غزة مشروطًا بوجود آلية فعالة لمنع التعزيزات العسكرية من قبل حماس والجهاد الإسلامي.

-من أجل تحييد تلاعب حماس وادعاءات النصر، من الضروري تقوية السلطة الفلسطينية، بقيادة حركة فتح، للقيام باعتقالات واسعة النطاق لنشطاء حماس في الضفة الغربية بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية، ومنع حماس من التأثير على الأجندة الفلسطينية بما في ذلك في إطار الصراع على السيطرة بعد خروج عباس من الساحة.

-يجب تصميم بنية التسوية مع السلطة الفلسطينية وعلى رأس قيادة حماس، من أجل حرمان حماس من الاعتراف والمكانة والإنجازات، ويجب ترك حماس فقط مع العناصر التكتيكية للتسوية، الناتجة عن مسؤوليتها في إدارة الحياة في قطاع غزة.

-تعزيز آلية إقليمية ودولية لإعادة إعمار قطاع غزة واستقراره، بشرط أن تشمل إعادة الإعمار حرمان الجماعات الإرهابية من إعادة التسلح، بمشاركة الدول العربية البراغماتية، مع منع التأثير السلبي لإيران وقطر وتركيا على حماس والجهاد الإسلامي.

-يجب على إسرائيل أن تقدم هدفًا يتمثل أساسًا في تجديد العملية السياسية مع السلطة الفلسطينية، حتى لو كان ذلك لغرض وحيد هو الاتفاق على ترتيبات انتقالية إضافية تهدف إلى تحسين الوضع الأمني والمدني على الأرض، دون إحراز تقدم مقصود نحو تسوية دائمة.

وبعد، فقد تركزت مقالات محدودة بمناقشة البعد الإقليمي والدولي للصراع، إذ تؤيد مقالة «أين حزب الله؟» التقدير القائل بأن حزب الله لا يزال رادعًا ومترددًا في الدخول في مواجهة عسكرية واسعة النطاق مع الجيش الإسرائيلي في هذا الوقت، وغير مستعد للتضحية بكل موارده من أجل القضية». وتفسر الجمود الذي نشأ من جبهة حزب الله «برغبتها في التحكم في توقيت وظروف المواجهة العسكرية مع إسرائيل، وفقًا لاعتباراتها ومصالحها الخاصة، أي أنها مصالح داخلية - لبنانية أو خارجية - إيرانية وإقليمية، وليست حلقات تمليها المصلحة الفلسطينية».

أما الموقف الصيني فقد كان من أجل إقليم تركستان الشرقية «حددت الصين الأزمة بين إسرائيل وحماس في غزة على أنها فرصة سياسية لتعزيز مصالحها الوطنية، لا سيما في سياق شينجيانغ، من خلال معارضة شديدة لسياسة الولايات المتحدة تجاه المسلمين»، وجعلت الصين إسرائيل جزءًا غير مقصود من النزاع بين القوتين العظميين من خلال استخدامها لمهاجمة صورة الولايات المتحدة.

حماس.. وراثة "منظمة التحرير" تبدأ من فك الارتباطات

أكرم إسماعيل

في خطابه يوم 12 مايو 2021 من الدوحة، وبعد الوصول لاتفاق على وقف خط النار بين إسرائيل وحماس برعاية مصرية، توجه إسماعيل هنية بالشكر إلى ثلاث دول حصرًا؛ هم جمهورية مصر العربية، والجمهورية الإسلامية في إيران والمملكة القطرية. بهذا التحديد أعلنت حماس عن خريطة تحالفاتها، وأعلنت أن مصالحها وفقط هي ما يملي عليها خريطة التحالفات ولا شيء آخر. فبهذا الإعلان فكت حماس الارتباط بالسعودية والإمارات عندما حيت الجمهورية الإسلامية في إيران التي شكرتها بصراحة ووضوح على دعمها لغزة بالمال والسلاح، وأكدت فك الارتباط بجماعة الإخوان المسلمين وممثليها المتبعثرين بين تركيا وقطر ولندن والسجون المصرية، وذلك عندما شكرت الشقيقة مصر قبل وإن تستقبل الوفد المصري في غزة على ألحان أغنية "تسلم الأيادي"؛ الأغنية التي ارتبطت باحتفالات الدولة المصرية بعد فض رابعة والتخلص من الإخوان، وأخيرًا وقدمت تحية للوكيل الإقليمي المعتمد من قبل الأمريكان للتعامل مع الحركات الإسلامية ومملكة قطر. بهذا الإعلان الذي سبقته الكثير من الرسائل والعمل السياسي الدؤوب، أكدت حماس أنها تفك الارتباط مع التناقضات والاستقطابات المعطلة لها في المنطقة، فهي ليست طرفًا في الاستقطاب الطائفي السني/الشيعي، أو الصراع الإقليمي "حول الإخوان المسلمين" إلخ؛ فخريطة تحالفاتها تبدأ وتنتهي عند مصالح الحركة وقدرتها على الاستمرار والبقاء، بل كل ما يمكنها من وراثة قيادة النضال الفلسطيني وفق الشروط الإقليمية والدولية.

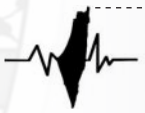

أكدت حماس أنها تفك الارتباط مع التناقضات والاستقطابات المعطلة لها في المنطقة، فهي ليست طرفًا في الاستقطاب الطائفي السني/ الشيعي، أو الصراع الإقليمي "حول الإخوان المسلمين"..

استقلال الإرادة هو الحل

انتصرت حماس سياسيًا في المعركة الأخيرة ليس لأنها أرعبت الإسرائيليين بصواريخها الكثيفة والدقيقة، وليس لأنها أصابت نتنياهو إصابة حاسمة وأفشلته، بل لأنها توجت نفسها الفاعل السياسي الأهم وربما الوحيد على الساحة الفلسطينية؛ فهي من نادت عليها تظاهرات المقدسيين للرد على الإجرام الإسرائيلي، وهي القادرة على مواجهة عسكرية مع إسرائيل، وهي مركز كل المفاوضات والتفاعلات السياسية.

في هذه المعركة حققت حماس ما خططت له طويلاً بأن تصبح هي ولا أحد غيرها وريثة النضال الفلسطيني، وأن تصبح سلطتها ليست فقط مقبولة من أطراف مهمة في المنطقة، بل إن تتحول سلطتها إلى طرف في التوازن الإقليمي ورصيد حقيقي لحلفائها، فهي رصيد لمصر في التعامل مع قطاع غزة المتاخم لسيناء بؤرة التوتر والإرهاب، وهي صمام الأمان لمصر في مواجهة المخططات الإسرائيلية المتطرفة لتهجير بعض من السكان الغزاوية إلى سيناء، وهي حجر عثرة في مواجهة التوجهات الإماراتية المقلقة للمصريين، مثل السعي الإماراتي أن تتحول شراكتها مع إسرائيل إلى قلب للنظام الإقليمي الجديد؛ وهي ورقة تفاوض لإيران مع الغرب، كما أنها داعم سني مهم للإمبراطورية الشيعية يمنع التعبئة السنية الكاملة ضد إيران وحلفائها في الإقليم، وهي أحد مفاتيح قطر للعب أدوار إقليمية كبيرة يمنح مشايخها استحقاق الوكالة الغربية للتعامل مع الإسلاميين في المنطقة، بل

إن إسرائيل نفسها تعتمد على حماس كسلطة مسؤولة عن الكتلة السكانية الهائلة والمقلقة في غزة.

ويبقى السؤال كيف انتزعت حماس هذه المساحة، وكيف تحولت إلى طرف مهم في توازنات الإقليم والممثل الأهم للقضية الفلسطينية، والإجابة ببساطة هي "استقلالها النسبي"؛ فاستقلالها بغزة عن التفاهمات الأمنية للسلطة مع إسرائيل، الأمر منح حماس الفرصة لبناء هذه القدرات العسكرية الذي وصفها المجدلاوي؛ أحد الناشطين الغزاويين اليساريين بأنها الرصيد "المادي" الباقي للثورة الفلسطيني! بينما تتحرك إسرائيل كما تشاء في رام الله لتجهض أي فاعلية نضالية، والقبض، بل قتل من تشاء داخل الضفة الغربية.

استقلت حماس كذلك عن أعباء الإخوان المسلمين ليس فقط على خلفية انهيار حكمهم في مصر بعد الصراع على السلطة بينهم وبين الجيش في 2012 والتوتر الشديد بين الدولة المصرية وتنظيم الإخوان وداعميه الإقليميين، بل إنها بذلك نأت بنفسها عن الصراع السني الشيعي التي تورط فيه تنظيم الإخوان المسلمين نتيجة مواقفه الحادة من نظام بشار الأسد، وخطابه الطائفي المعلن بينما هاجموا الدور السلبي للحرس الثوري الإيراني وحزب الله في وأد الثورة السورية وحمايته للنظام العلوي في دمشق. ترك خالد مشعل واخواته سوريا التي مكثوا فيها طويلاً على خلفية هذا الخلاف وانتقل إلى الدوحة الراعي الرسمي المقبول للإسلاميين، وأعلن خالد مشعل في ظهور حديث له عن انقطاع الاتصال بدمشق، ولكنه شكر مجددًا الجمهورية الإسلامية وحزب الله على دعمهم لغزة، في تكرار للرسالة التي أكد عليها إسماعيل هنية في خطابه.

ببساطة هضمت حماس عبر تضحيات وعبر تجارب مرة ووعي سياسي وبراجماتية، التحولات الكبرى في المنطقة، وخططت لانتزاع مكان لها في المشهد الجديد، بل حولت شبح الهزيمة الكاملة بعد الربيع العربي وتراجع القضية الفلسطينية، وانهيار حكم الإخوان في مصر، وحصار غزة القاسي، ورؤية ترامب للقضية وضغطه الهائل على الأطراف الفلسطينية إلى فرصة لها بأن تتحول إلى وريث لمنظمة التحرير والممثل الفعلي للقضية الفلسطينية، ولكن هذا لم يكن ليحدث دون انتزاع استقلال الإرادة انتزاعًا، من خلال عمل كفاحي صعب ومغامرات عسكرية وسياسية انتزعت بها مساحة مستقلة عن الهيمنة الإسرائيلية تسمى غزة، كمان أنها أدارت علاقات سياسية دون أي اعتبارات لارتباطات تنظيمية أو مذهبية، وأسست لهذا في وثيقة شجاعة أصدرتها في 2017؛ أعلنت فيها فك الارتباط بتنظيم الإخوان المسلمين، كما أعلنت أن القضية الفلسطينية هي قضية احتلال شعب، وأنها معركة مع الصهاينة وليست معركة دينية، وحيت كل

الأحـرار في العالم الداعمين للقضية وصاغت بمكر موقفها من دولة فلسطينية على حدود 67، واعتبارها خيارًا مقبولاً كهدنة في رسالة قبول للتعايش مع إسرائيل عبر عنها السنوار رئيس الحكومة في غزة في حوارات صحفية دون التورط في اعتراف صريح بإسرائيل. بل إن السنوار أعلن بوضوح أن حل القضيتين قد يكون الحل المناسب للتعايش حتى تتبدل الأحـوال وتختفي هذه الأجيال؟!

بالتضحيات الكبرى والبراجماتية السياسية تمكنت حماس من انتزاع قطاع غزة وتحريره من حسابات السلطة الفلسطينية، وحصنتها من الأذرع الأمنية لإسرائيل، لتتحول غزة حماس إلى واقع مادي في المنطقة لا يمكن تجاهله، الأمر الذي سمح لها ببناء قـدرات عسكرية مؤثرة. ومكنها من مد الجسور وإدارة العلاقات مختلفة على أسس المنفعة المشتركة، ولكنها في المعركة الأخيرة تـجـاوزت هـذه، ونجحت في حصاد عملها الدؤوب كله، فأصبحت ليست فقـط الطـرف الأقوى في المعادلة الفلسطينية، بل لاعبًا إقليميًا مهمًا ونقطه اتزان دقيقه فـي التـفـاعـلات السـيـاسـيـة في المنطقة.

بالتضحيات الكبرى والبـرجـمـاتـيـة السـيـاسـيـة تمكنت حـمـاس مـن انـتـزاع قطاع غـزة وتحريره من حسابات السلطة الـفـلـسـطـيـنـيـة، وحصنتها من الأذرع الأمـنـيـة لإسـرائـيـل، لتتحول غـزة حماس إلـى واقـع مـادي في المنطقة

وراثـــة منـظـمـة التحرير: الاعتراف بـــدور أبـــي عـمـار ودفنه

في المؤتمر الصحفي الذي عقده السنوار بعد الانتصار الأخير، قال رئيس الحكومة الذي يمكن اعتباره الممثل الأهم للتيار البرجماتي الواعي في حماس "نم قرير العين يا أبا عمار" في اعتراف صريح لدور أبي عمار، الذي رأينا مشاهد عدة سابقة لحمساوية في غزة وهم يدوسون صوره. إلا أن السنوار الآن يرسل التحية لأبي عمار، ويعترف بقيادته للانتفاضتين وجلب السلاح والدفاع عن الشعب الفلسطيني. والسنوار هنا يفك ارتباطه ببساطة بالسردية الإسلامية وقيادتها.

وينبئنا هذا التصريح بما يبحث عنه السنوار؛ فالسنوار الذي تعلم العبرية في السجن، ويقوم بعقد لقاءات صحفية مع صحف إسرائيلية، ويمد جسور التواصل حتى مع دحلان، ويأمر باستقبال الوفد المصري على ألحان تسلم الأيادي، لا يرى نفسه وريثًا لأحمد ياسين أو الرنتيسي، بل وريثًا لأبي عمار نفسه كرمز للقضية وقائد تاريخي للشعب الفلسطيني، فهم الأحق بمكانه القائد الشهيد الذي صفى خليفته أبو مازن أي فاعلية نضالية فتحاوية، وترك المنظمة والقضية بلا قائد فعلي، بينما غاب القادة الفتحوية الأشاوس في السجون الإسرائيلية منسيين بتواطؤ من أبي مازن ومن حماس أيضا. فسلطة فاسدة وبلا إرادة أو مشروع مقاوم في رام الله هي الفرصة الوحيدة لحماس لتصفية فتح سياسيًا ورمزيًا، ووراثة قيادة الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير "نم قرير العين يا أبا عمار.. واذهب في طي النسيان يا مروان يا برغوثي"، فحماس جاهزة ليس كفصيل مقاوم بل كقيادة للشعب الفلسطيني.. نحو المتن السياسي إذن تتحرك حماس متخلصة من كل الأعباء بالقدر الممكن، فهي ليست الغريبة على النضال التحرري القومي العربي وما الذي يمنع أن تكون وريثته في عالم انقطع بالكامل عما قبله. فالنظام العربي القديم الذي طالما لفظها قضت عليه ثورات الربيع العربي؛ فها هي السعودية تغير جلدها سريعا كعربون محبة من الأمير للغرب، وها هي الإمارات تجعل من إسرائيل حليفها الأهم وشريكا أمنيًا واقتصاديًا أساسيًا لها، ودويلات الخليج تتنافس لقيادة النظام العربي بعد انهيار العراق وسوريا وليبيا، وتعثر مصر وسقوط البشير وغرق لبنان في دوامة لا تنتهي من الفشل. عاد النظام العربي لمكوناته الأولية وأصبح المسرح مفتوحًا للاعبين جدد وتحالفات جديدة ولم يعد هنا نسق قادر على استبعاد حماس أو غيرها بل إن لاعب مثل حماس يستطيع أن ينتزع مكانًا له وسط كل هذه التحولات والسيولة والتوتر.

معضلات القيادة.. سلطة حماس

عندما سألوا أبا عمار وهو خارج من لبنان مهزومًا جريحًا "رايح على وين يا أبو عمار؟" أجاب "رايح على فلسطين"، وأتصور هنا أنه بعد خبرة الأردن ثم لبنان كان أبو عمار قد قرر أن "إدارة الثورة الفلسطينية" من خارج الأرض غير ممكنة، بل يبدو أنه أصبح لديه قناعة ألا معنى لاعتبار هذا النضال ثورة أصلاً، فأن تتحول القضية الفلسطينية ونضال المنظمة إلى طاقة سياسية لتثوير المنطقة، ليعلم الأحرار في العالم حقبة قد انتهت وتبدلت الشروط، وأصبح المطلوب تأسيس سلطة على أي مساحة من الأرض في

الداخل؛ ومن هنا جاءت أوسلو. وقد دفع ياسر عرفات ثمن خياره هذا، فخيار الجمع بين ثنائية -السلطة والمقاومة- التي اختبرت مع انتفاضة الاقصى عندما أدار ابو عمار السلطة والانتفاضة معًا؛ انتهى ليس فقط باغتياله بل بتصفية مشروعه، ليرث ياسر عرفات أبو مازن "كسلطة مهادنة وخاضعة" في رام الله، وحماس "كسلطة غير خاضعة ومقاومة في قطاع غزة"، فمحاولة أبي عمار الأخيرة كانت الجمع الصعب بين الشرعية السياسية للسلطة مع فاعلية المقاومة، وقد أدار هذه الثنائية بدهاء يحسب له، إلا أن هذا الترتيب قد تفكك سريعًا وبتواطؤ معظم الفاعلين من بعده إلى سلطتين، واحدة منزوعة الفاعلية ومعترف بها، وأخرى مستقلة ومقاومة وغير معترف بها. وفي المعادلة الفلسطينية الإسرائيلية عدم الفاعلية لا تحصن أي شرعية، فها هي شرعية أبي مازن لا تحصن له سوى بقائه بينما تنتزع حماس الشرعية بالفاعلية والمغامرة، وقبلهم الاستقلال النسبي. ويبقى السؤال هل ما انتزعته حماس وتتويجها كالرقم الأهم في المعادلة يمكّنها من قيادة الشعب الفلسطيني حقًا؟

بحثت حماس عن صيغة للبقاء وفق شروط قاسية، الأمر الذي دفعها للتحلي بمرونة كبيرة مقارنة بتنظيمات إسلامية عربية أخرى، وربما هضمت حماس سريعًا معنى انهيار حكم الإخوان المسلمين في مصر مبكرًا، وتعلمت أن انتزاع الشرعية والقبول الإقليمي والدولي يلزمه بعض التنازلات القاسية التي يأتي أولها بالتنازل عن سردية "المخلص الإسلامي" وهي السردية الخاصة والمغتربة والتي توضع في مواجهة كل السرديات الأخرى لنخب الحكم في المنطقة، فأبي عمار الآن مناضل وقائد وليس خائنًا، ومنظمة التحرير هي الوعاء الجامع للنضال الفلسطيني، ومصر تحت حكم الجيش تظل الشقيقة الكبرى، بل إنها وعت أن ابتعادها عن النزاع السني الشيعي في المنطقة مصدر قوة، وأن العلاقة بإيران مفتاح الاستمرار في المقاومة والحفاظ على الإستقلال النسبي. تتحرك حماس من كونها فصيلاً إسلاميًا يرى نفسه وتاريخه موازيًا للتاريخ العربي الرسمي الحديث، إلى كونها طرفًا في التوازنات الإقليمية، ولاعبًا يقبل شروط اللعب، بل التوظيف ربما من بعض الأطراف، ولكن في حدود المقبول للحفاظ على مشروعها، ويبقى السؤال: هل هذا يكفي لقيادة الشعب الفلسطيني نحو التحرير؟

لقد بدأت منظمة التحرير ثورية ترى في نفسها ما هو أكبر من قضية الشعب الفلسطيني، وأصبحت ملهمة لأعوام لكل النضال التقدمي العالمي في مواجهة الإمبريالية، بل إن ياسر عرفات هو من طرح مبكرًا في ثمانينيات القرن الماضي شعار دولة علمانية واحدة على كامل التراب ليربك الحسابات، ويقدم نفسه للعالم باعتباره رمزًا تقدميًا ويقدم القضية كمعركة إنسانية ملهمة قبل أن يتراجع تحت تأثير الضربات المتتالية والمؤامرات العربية، ورغم التخلي عن الآفاق الثورية والقبول بالتوازنات القاسية والحلول المجحفة بقيت انتفاضة الحجارة انتفاضة تلهم الملايين وتقدم النضال الفلسطيني كنضال للإنسانية قبل أن يبدأ مسار أوسلو ثم ينتهي بانتفاضة الأقصى لتتحول إلى المحطة الأخيرة لأبي عمار والمنظمة. كانت منظمة التحرير مشروعًا سياسيًا مرنًا يهضم التجارب، ولكنها

بقيت واعية طويلاً أن شرط استمرارها ونجاحها أن تبقى ممثله لما هو أكبر منها، وأن تظل القضية ممثلة لما هو أكبر منها، ولهذا استحقت قيادة الشعب الفلسطيني لعقود، قبل إن تغتالها إسرائيل رمزًا رمزًا وتحاصر بل تئد روحها. أما حماس فاتت من كونها مقاومة إسلامية تختزن كل طاقة العنف الرفض لكل ما لا يشبهها. تصر على المقاومة بتفجير أفرادها لأنفسهم في قلب تل أبيب، وتفرض هذا فرضًا على الانتفاضة، ولا يعنيها صورة القضية في أذهان شعوب العالم، تتغذى على المزاج الرجعي الصاعد في المنطقة، وتمثله في الصراع مع إسرائيل، وتملأ كل فراغ تتركه منظمة التحرير/فتح تحت تأثير الضربات والمواءمات. لا تعنيها أي اعتبارات سوى التأكيد على أنها طرف مقاوم عنيد، بل يعنيها أن تأخذ الصراع في المربع الهوياتي الديني بقدر الممكن. لم تقدم التنازلات إلا عندما امتلكت سلطة دفعتها لقبول شروط البقاء والحفاظ على سلطتها تلك -مشت على عكس طريق منظمة التحرير التي حاصرتها هذه السلطة التي امتلكتها وأجهضتها كجبهة سياسية نضالية للشعب الفلسطيني، بينما لم تتعلم حماس الدروس إلا دفاعًا عن "سلطتها"، فقبلت أن تتحول إلى طرف في توازنات الإقليم الرثة، بل مارست كل أشكال القمع والتنكيل وتصفية السياسة والمجتمع المدني وتغذية كل النوازع الرجعية والمحافظة داخل المجتمع الغزاوي، وهذا ما مكنها من الحفاظ على السلطة.

> حققت حماس ما خططت له طويلاً بأن تصبح سلطتها ليست فقط مقبولة من أطراف مهمة في المنطقة، بل وأن تتحول سلطتها إلى طرف في التوازن الإقليمي ورصيد حقيقي لحلفائها..

يمكن لحماس بالتأكيد أن تحصن غزة من المغامرات الإسرائيلية وأن تستغل سلطتها في غزة للتعاون مع القاهرة، وأن تمنح إيران امتياز دعم المقاومة وأن تمنح قطر كارتا يبقيها لاعبًا إقليميًا مهما ولكنها لن تكون أبدًا قائدة للنضال الفلسطيني، ولن تكون تجربتها مهما غيرت من مواثيقها، ملهمة للأحرار في العالم، فالوثيقة غير كافية لإقناع العالم بالاستحقاق "الثوري" التي لا تدعيه ولا تقوى عليه، وكما لا يمكنها أن تخفي حقيقة هروب الأقليات الدينية من غزة بعد سيطرة حماس عليها، أو حقيقة أن جرائم الشرف والعنف ضد النساء منفلتة تحت سلطتها السياسية، بل إن أي فعل سياسي ومجتمعي في غزة يلزمه الإذن من مشايخها - تتصرف حماس ببرجماتية على المسرح الإقليمي والدولي، ولكنها لا زالت ترتكن بالأساس إلى كل الميراث الإسلامي السلطوي والرجعي للتعبئة وخلق الكوادر وإحكام السيطرة. باختصار حماس رمز للمقاومة وليس للحرية، وحدود مرونتها هي إرضاء القاهرة وطهران والدوحة وربما مد الجسور مع الإمارات وكل هذا لا يكفي لانتزاع استحقاق قيادة الشعب الفلسطيني ووراثة نضاله الطويل. وتتحدث حماس بمكر عن حل الدولتين، فهي لا تريد أن تقدم هذا التنازل الكبير، وأن تعترف بإسرائيل، ولكنها تعرف أنه الحل الأنسب لها كهدنة تمكنها أكثر من ترسيخ سلطتها ومكانتها الإقليمية. فدولة علمانية هو على كامل التراب الحل الذي لم يعد هناك غيره في تقديري، والذي لا يمكن أن يحدث إلا عبر مسار نضالي شاق قادر على انتزاع تعاطف دولي كبير، وخلق انقسام داخل المجتمع الإسرائيلي نفسه لا يمكن أن تتبناه حماس قط - وهل هذا ممكن؟ هل حماس قادرة على أن تأخذ مسار "المرونة والتفهم.. إلخ"، وتتحول إلى فصيل مناضل من ضمن الفصائل والتيارات والمبادرات النضالية الأخرى ليتسع مسار النضال للشعب الفلسطيني ويتجاوز كل أشكال الوصاية من "السلطات" المعطلة في رام لله وإسرائيل وفي غزة، واستكمال نضاله المشروع ومراكمة الخبرات النضالية المتنوعة ورفع الشعارات الجريئة وفتح ألف طريق للتحرير؟

> كانت منظمة التحرير مشروعًا سياسيًا مرنًا يهضم التجارب، ولكنها بقيت واعية أن شرط استمرارها ونجاحها أن تظل القضية ممثلة لما هو أكبر منها، ولهذا استحقت قيادة الشعب الفلسطيني لعقود..

الإعلام البديل: وسائل التواصل الاجتماعي وإعادة رواية الكفاح الفلسطيني

منى يسري

لعبت وسائل التواصل الاجتماعي، خلال الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة، دورًا جديدًا شهدته القضية للمرة الأولى في تاريخها، لعب فيها المحتل الصهيوني دور الضحية المدافع عن نفسه من جراء الإرهاب الفلسطيني، وبمساعدة وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية، استطاع المحتل أن ينحي الشعب الفلسطيني جانبًا معلنًا ألّا حق هنا إلا للإسرائيلي. وإلى جانب التصعيد العسكري غير المسبوق للمقاومة الفلسطينية بعدما أذاعت الرعب في نفوس المستوطنين، حقق الفلسطينيون انتصارًا آخر بخطف أنظار العالم لقضيتهم مرة أخرى؛ بل واختطاف الميزة النسبية التي حققتها إسرائيل عبر عقود، من استيلائها على الإعلام العالمي، وعرض القضية من منظورهم الاستعماري، واختطاف حق الشعب الفلسطيني في كشف ما يجري ضدهم من جرائم للعالم أجمع.

إعادة رواية الصراع

على الرغم من تمتع إسرائيل بميزات عسكرية واستراتيجية، في صراعها المستمر ضد المقاومة الفلسطينية، وكذلك امتيازها في السيطرة على الرواية العامة للصراع منذ بدايته، فإن الحرب الأخيرة، استطاعت اختطاف امتياز إسرائيل بشكل لا يمكن مقاومته مهما بلغت قوة المحتل. عبر عقود الصراع الماضية، استطاعت إدارة الكيان الصهيوني، الاستفادة من قنوات التواصل الاجتماعي الرسمية على نطاق واسع، وبتسخير كل طاقتها الإعلامية، شكلّت سرديتها الخاصة عن القضية الفلسطينية، بتصوير نفسها كدولة ومجتمع متجانس يدافع عن نفسه من عدوان إرهابي، وبذلك رسخت إجرامها وشرعنته عبر أبواقها الإعلامية والثقافية المختلفة.

لكن انتصار الشعب الفلسطيني هذه المرة لم يقتصر على اختراق صواريخ المقاومة القبة الحديدية، أو إجبار المستوطنين على المكوث في الخنادق لليال وأيام فحسب، بل نجح الشعب الفلسطيني بمكوناته المتعددة من غزة إلى الضفة و نحج فلسطين والأرض المحتلّة كذلك، في سرد قصصهم الخاصة عما يتعرضون له عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، ما أدى إلى خسارة مضاعفة لإسرائيل في معركة كسب الرأي العام العالمي لصالح الشعب الفلسطيني للمرة الأولى في تاريخ الصراع.

لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دورًا مركزيًا في حرب غزة الأخيرة، إذ كانت المقاطع على يوتيوب YouTube والرسائل على فيسبوك Facebook وتويتر Twitter تهدف إلى نشر الأحداث مباشرة، وبأسرع وقت ممكن، ومع ظهور منصات أكثر حداثة مثل Telegram وTikTok سُمح لعدد أكبر من الأشخاص بالتفاعل مع هذه الانتفاضة الإلكترونية. كانت مقاطع الفيديو المباشرة، الطريقة المثلى لإظهار جرائم الاحتلال وغارات جيشه على مدنيي غزة، دون إفساح المجال لأي سردية أخرى تتنافى مع الواقع المعاش افتراضيًا عبر وسائل التواصل، ما اجتذب أحرار العالم، ومن لم يكن يهتم سابقًا للقضيّة الفلسطينية إلى ما يحدث في آخر بقعة محتلة من الأرض.

> استخدم الاحتلال صفقات التطبيع مع بعض الدول العربية كجزء من سرديته الأسطورية عن السلام، لكن ذلك تبدد أمام مقاومة الفلسطينيين مستخدمين هواتفهم وكاميراتهم وجعل العالم أجمع شهودًا على حملات الإبادة

في الرابع عشر من مايو الماضي، وقع أكثر من 100 تنظيم تقدمي على بيان لمطالبة الرئيس الأمريكي جو بايدن، بإدانة العنف ضد الفلسطينيين، ومنع تصدير الأسلحة إلى إسرائيل، وكذلك وقف المعونات التي تقدمها الولايات المتحدة إلى دولة الاحتلال، وتعد وهذه هي المرة الأولى لانضمام تيارات أمريكية جديدة لتأييد حق الشعب الفلسطيني، من غير العرب أو المسلمين في الولايات المتحدة، ما اعتبر انتصارًا جديدًا تشهده القضيّة، وتسبب فيحشد وإثارة الرأي العام. من قلب الدولة الحاضنة للاحتلال، وأهم داعميه منذ تأسيسه عام 1948.

المقاومة الإعلامية

استخدم الاحتلال الإسرائيلي صفقات التطبيع المنعقدة مع بعض الدول العربية خلال العام الماضي، كجزء من سرديته الأسطورية عن السلام مع الفلسطينيين، لكن السلام الزائف سرعان ما تبدد أمام مقاومة الفلسطينيين مستخدمين هواتفهم وكاميراتهم وجعل العالم أجمع شاهدًا على حملة إبادة أطلقتها إسرائيل ضد مواطني غزة العُزل. شاركت إدارة بعض مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وإنستجرام في فضح الممارسات الإسرائيلية الخاصة بالسيطرة على الإعلام، بعدما عمد موقع فيسبوك الأكثر انتشارًا في العالم، إلى حذف التعليقات والمنشورات الداعمة للقضية الفلسطينية بدعوى أنها منشورات تحرض على العنف، ما دفع المستخدمين المناصرين للقضية الفلسطينية، إلى شن هجوم على موقع فيسبوك، وخفض تقييمه من متاجر Google ، Apple Play، فيما اعتذر كبار المسؤولين التنفيذيين في فيسبوك، لرئيس الوزراء الفلسطيني محمد أشتية خلال اجتماع افتراضي في 20 مايو الماضي.

> الضغط السياسي دفع إدارة فيسبوك إلى إعادة النظر في سياساتها تجاه المحتوى المناصر لفلسطين على منصتها، في المقابل عمد المستخدمون إلى الكتابة بطرق مبهمة، للتحايل على القمع الذي فرضته منصات التواصل

وتفيد منظمة الحقوق الرقمية العالمية Access Now؛ في تقرير لها باستلام مئات الحسابات لمنصات تقمع المحتوى المؤيد للفلسطينيين عبر فيسبوك وتويتر، كما سجلت مجموعة الحقوق الرقمية الفلسطينية "صدى سوشيال"، أكثر من 200 انتهاك لمحتوى فلسطيني على مواقع التواصل الاجتماعي تتعلق بتظاهرات الشيخ جراح في القدس الشرقية المحتلة. ووصفت "الانتهاكات" بأنها؛ إجراءات تعسفية ضد المحتوى الفلسطيني، خاصة مع الميل إلى قمع انتقاد الصهيونية. وبالمثل، وثقت منظمة الحقوق

الرقمية الفلسطينية والعربية، حملة - المركز العربي لتطوير وسائل التواصل الاجتماعي، نحو 500 حالة انتهاك للحقوق الرقمية الفلسطينية بين 6 و19 مايو، إلى جانب ردود المنصات. وجاءت الانتهاكات من إنستجرام (50 ٪) وفيسبوك (35 ٪) وتويتر (11 ٪) وتيك توك (1 ٪).

وقد أثارت تلك الانتهاكات المرتكبة من قبل منصات التواصل الاجتماعي، غضبًا كبيرًا حول العالم، حتى من خارج صفوف أنصار القضية الفلسطينية، غير أن الضغط السياسي على إدارة فيسبوك تحديدًا وتهديد مصالحها التجارية، سرعان ما دفع الشركة، إلى إعادة النظر في سياساتها تجاه المحتوى المناصر لفلسطين على منصتها، في المقابل عمد المستخدمون إلى الكتابة بطرق مبهمة، للتحايل على القمع الإعلامي الذي فرضته منصات التواصل، وكانت طريقة ناجحة للمقاومة أمام الانحياز الفج والواضح من قبل إدارة فيسبوك للجانب الإسرائيلي.

تراجع شعبية إسرائيل

أثمرت جهود الفلسطينيين في سرد قصتهم الأخيرة مع الحرب في غزة، ثمارًا سريعة، جاء بعضها آنيًا كإعلان وقف إطلاق النار بين الطرفين، لكن الثمرة الأكثر دوامًا كانت تراجع شعبية الكيان الصهيوني في العديد من دول أوروبا؛ المعقل الأهم لمناصري الاحتلال.

وقدكشف عن هذا التراجع، استطلاع للرأي أعده مركز YouGov البريطاني؛ حول تراجع شعبية إسرائيل في عدد من الدول الأوروبية بعد التصعيد الأخير في قطاع غزة. واعتمد الاستطلاع على مجموعة من المؤشرات لقياس مستويات الدعم بناءً على مواقف المستجيبين تجاه السياسات الإسرائيلية وانطباعاتهم عن صورتها، واعتبر الأسوأ من نوعه على الإطلاق، حيث تُظهر بيانات استطلاع YouGov الجديدة أن شعبية إسرائيل في جميع أنحاء أوروبا قد تضررت بشكل كبير منذ استطلاع المركز الأخير في فبراير الماضي، مع انخفاض لصافي تصنيف التفضيل في البلاد 14 نقطة في جميع البلدان التي شملها الاستطلاع.

غير أن التظاهرات التي خرجت من عواصم أوروبية عدة، لمناصرة الشعب الفلسطيني، ما كانت لتخرج لولا حضور وسائل التواصل الاجتماعي كعامل محفز وكاشف للحقيقة أمام شعوب أوروبا التي يخضَع إعلامها لسطوة النفوذ الإسرائيلي، وهو ما زال قائمًا حتى الآن، وبزر في قضية الصحفية الأمريكية إيميلي وايلدز، بعدما فصلتها وكالة أسوشيتد برس، عقابًا على تعاطفها مع الفلسطينيين، وقد أثارت الواقعة غضب العديد من صحفيي الوكالة، الذين رأوا فيما حدث لإيميلي قمعًا للحرية الشخصية، وتهديدًا لحرية الرأي بشكل عام.

عكس قرار وكالة أسوشيتد برس، إلى أي مدى

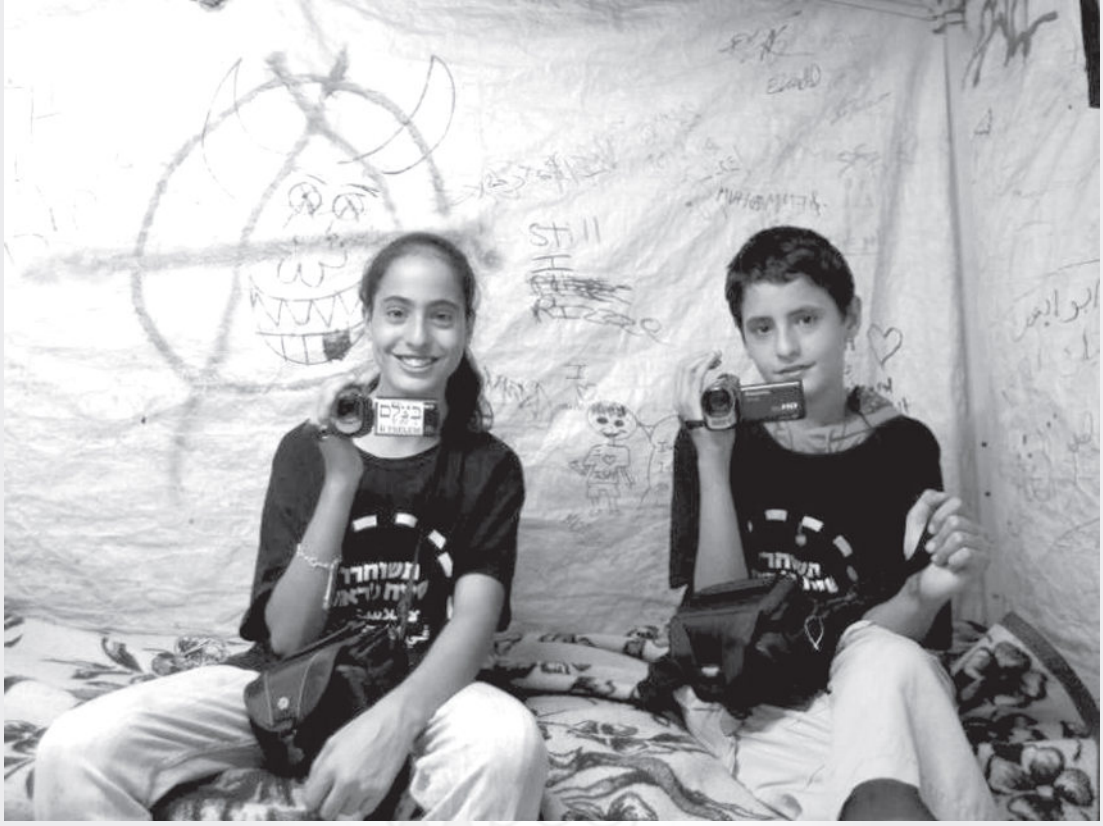

سيطرت إسرائيل على وسائل الإعلام العالمية، وأخضعتها لمعاييرها، كما حدث مع فيسبوك تمامًا، على الرغم من عدم ارتكاب إيميلي لأي خطأ يستدعي هذا الفصل المهين، إلا أن انضمامها السابق خلال سنوات دراستها الجامعية إلى منظمة طلاب من أجل العدالة في فلسطين، إلى جانب سلسلة من منشوراتها المناصرة للقضيّة الفلسطينية على حساباتها الخاصة على وسائل التواصل، كان كفيلًا بإثارة المؤسسة ضدها، بل وإعادة هيكلة سياسات مواقع التواصل الاجتماعي مع صحفييها، كما أعلنت الوكالة في بيان لها، تعقيبًا على فصل إيميلي.

عجز الشعب الفلسطيني طويلا عن تقديم سرديته، ورحلت أجيال عدة قادت الحراك قديمًا، دون أن تجني ثمار نضالها، حتى استطاعت الانتفاضة الأخيرة، اختراق حاجز الظلام وإجبار العالم على مشاركتهم المعاناة

تيك توك يطيح بنتنياهو

برز موقع TikTok الصيني في الحرب الأخيرة على غزة كأهم مواقع التواصل سرعة ونشرًا لكل تفاصيل الحياة اليومية المروعة التي عاشها أهل فلسطين خلال العدوان الإسرائيلي، وقد تميز دونًا عن غيره من مواقع التواصل بعدم حجب أي محتوى خاص بمناصرة الفلسطينيين، ما جذب العديد من المستخدمين، ووسّع من دائرة فضح جرائم الاحتلال. ليس هذا فحسب؛ بل إن ما قدّمه أنصار القضية الفلسطينية من حشد للرأي العام العالمي عبر مواقع التواصل الاجتماعي، أسهم في الإسراع بالإطاحة بحكومة نتنياهو المأزومة بدورها منذ عدة أشهر.

لقد غيرت الحرب الإعلامية معادلة إسرائيل المستقرة منذ عقود، واطمئنانها لفكرة السلام الزائف مع دول المنطقة، بل تجاوز الأمر إلى توحيد غير مسبوق لفلسطيني الشتات، مع أبناء الداخل المحتل، وفرض حضورهم كأصحاب قضيّة على مسامع العالم، لا سيّما بعد نجاح الإضراب الشامل الذي أعلن عنه خلال أيام الحرب، وتمكنهم من تكبيد نظام الاحتلال كلفة اقتصادية، فضلًا عن إثارة الرعب لأيام متواصلة في نفوس إسرائيل، وإنهاء أسطورة الأمن الذي تصدره حكومة الاحتلال كبضاعة فاسدة لمواطنيها، ولدول العالم الخارجي. لقد قاد الشعب الفلسطيني عدة انتفاضات، عجز فيها عن تقديم سرديته الحقيقية إلى العالم، ورحلت أجيال عدة قادت الحراك قديمًا، دون أن تجني ثمار نضالها الثمين، حتى استطاعت الانتفاضة الأخيرة، اختراق حاجز الظلام المفروض عليهم من قبل الاحتلال الإسرائيلي، وإجبار العالم أجمع على أن يشاركهم المعاناة من جراء الجرائم الممارسة عليهم من قبل الاحتلال، وصمودهم في مواجهتها.

التلقي السينمائي
بين المتعة والفهم

رياض حَمَّادي

حالّه أصعب من السينما:
أبو الفنون يبحث عن أرشيف!

عصام زكريا

صورة العميد..
تمثيلات طه حسين في الدراما والسينما

أحمد عبد الجبار

الحفلة في سينما وحيد حامد
الصغار يسرقون الأضواء في مجتمع الكبار

ماجد وهيب

محمد قنديل..
المطرب الذي أحب الكناري!

محب جميل

فنـــــــون

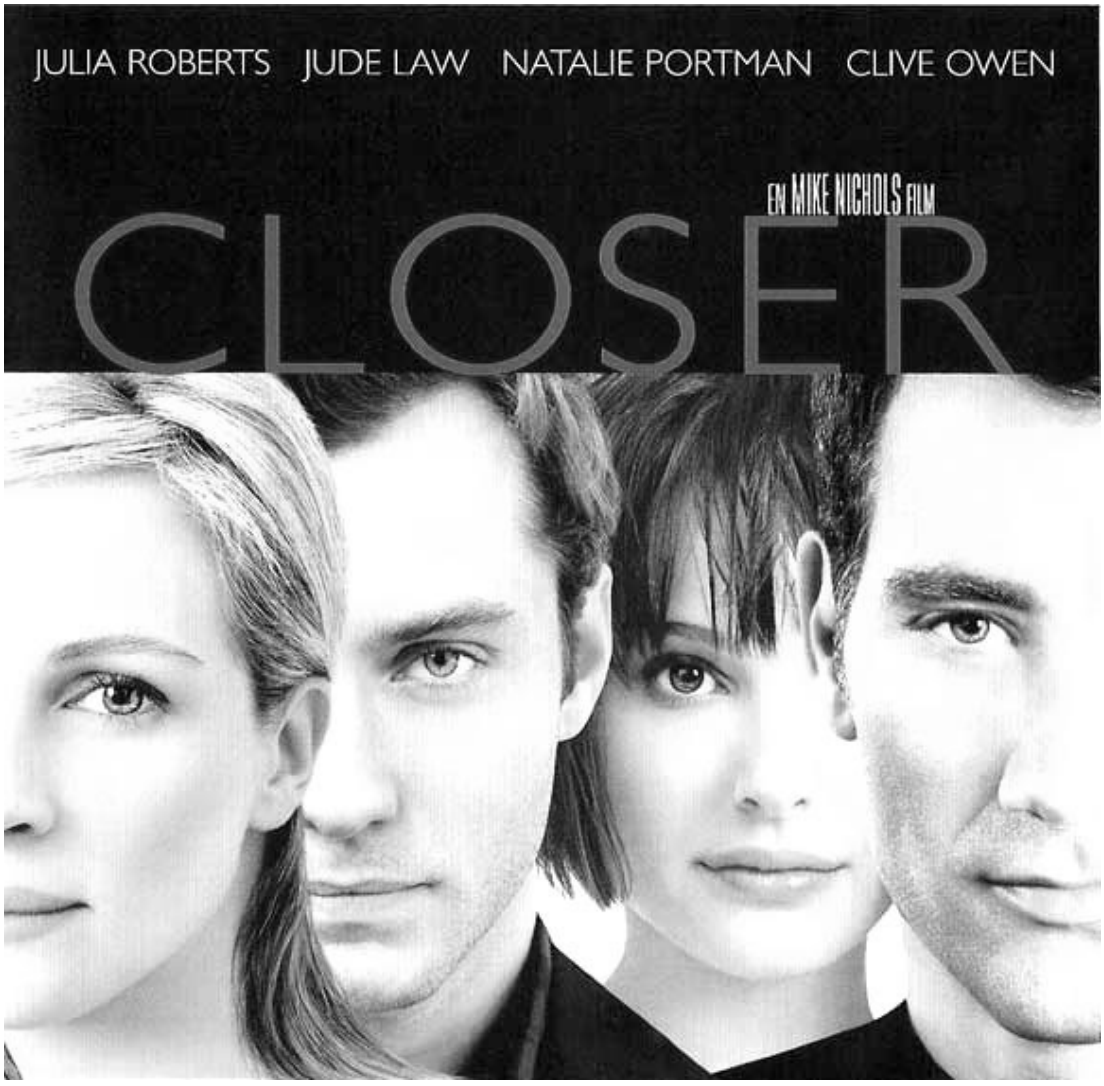

التلقي السينمائي بين المتعة والفهم

رياض حَمَّادي

أن تسأل ما الذي يحدث، أو ما الذي سيحدث؟ حتى آخر مشهد، أسئلة تشير إلى ولوجك النص. بهذا يتحقق التشويق، والتشويق عنصر مهم في التسويق، ووصفته ليست سرية، وهي ضرورية لضمان نجاح أي فيلم، شريطة أن تضيف إليها السؤال (كيف). وهذا ليس نوعًا من البهارات، إنه الطبخة كلها. والمقادير معروفة. والسبب الأهم في ضعف السينما العربية ليس ندرة المواهب بل عدم نضجها، ولأن المُشاهد العربي مستهلك، لا متلق، هدفه أن يشبع ويتشبع لا أن يستمتع ذهنيًا. أن تَشبع ليس هو المغزى من الطعام، أن تفهم ليس هو المراد من النص (الصورة، اللوحة، الموسيقى، الفيلم...)، والجامع بين كل ما سبق هو المتعة والأثر الذي يُخَلِّفه النص فيك، لا معناه ودلالاته فحسب.

الفضيلة غير المتوقعة للجهل

الجهل لا يكون فضيلة إلا في هذا الموضع. وإذا

كانت «المعرفة قوة»، فإنها في هذا الموضع متعة مضاعفة، ولا تتحقق إلا بقدر من الجهد الذهني والإلمام بالعناصر المكونة للعمل السينمائي. معرفة يراكمها التَّعرُّض والملاحظة والقراءات الحرة أو المكثفة.

ثمة طرق لا نهائية لسرد حكاية، وأنجح طريقة هي أن تعيشها. وحين تعيش الحكاية تصبح حقيقة. والحكاية الحقيقية ليست بالضرورة واقعية، الحكاية الحقيقية هي أن تصدقها. أسهل طريقة لسرد حكاية هي أن تكذب، وليس من السهل أن تكذب على قارئ أو متفرج؛ فالكذب في السرد يتطلب خيالاً وصدقًا. ثمة طرق كثيرة لسرد حكاية، ولا يوجد أفضل طريقة ولكن يوجد أنسب طريقة.

سبب مهم في ضعف تقييم كثير من الأفلام يرجع إلى الاعتقاد بأن الفيلم قصة يمكن سردها شفويًّا، وبأسلوب يعتمد على ترتيب زمن القصة التقليدي. ومن هذا الاعتقاد يسود في أوساط المتلقين عبارة «حرق الفيلم». إذا كان الفيلم قابل للحرق فلماذا تشاهده مرتين أو أكثر؟!

قليلة هي الأفلام التي يمكن حرقها بمعرفة الحكاية أو أهم عنصر مفاجئ فيها. ففي السينما نحن لا نشاهد القصة فحسب. وإلا لنُشرت هذه في كتاب أو لُخِّصت في نبذة قصيرة. تُعرف السينما بأنها «الفن السابع»، وهي بهذا تجمع كل ما سبقها من فنون: (مسرح، تليفزيون، موسيقى، رقص، غناء، سرد، تصوير..) وقليلة هي الأفلام التي تنطوي حبكتها على مفارقة لا يجوز كشفها. في المقابل ثمة أفلام كثيرة يحل فيها الغموض مكان الحكاية. أفلام مثل ««Mulholland Drive» ، «Birdman، Shutter Island, The Infinite Man, Maps to the stars، وأفلام كريستوفر نولان: Inception، وTenet، وغيرها من الأفلام التي لا تلعب فيها الحكاية بعناصرها التقليدية الدور الأساس في بناء الفيلم.

يحمل فيلم «Birdman» عنوانًا آخر أرى فيه تنبيهًا لهؤلاء الذين يبحثون عن المتعة من خلال الحكاية التقليدية. العبارة هي «The unexpected virtue of ignorance». «الفضيلة غير المتوقعة للجهل»، عبارة مراوغة تمتدح الجهل وتدينه في الآن نفسه. فضيلة ألا تعرف تقوم على ترتيب الأولويات، حيث تسبق المتعة المعرفة وربما تحل محلها؛ فالمتعة لا تكمن في المعرفة، ولا في الجهل، بل في الاستمتاع باللحظة التي تخلِّقها الكلمة أو الصورة أو الصوت... وعملية خلق المتعة أو تخلُّقها تتم بتفاعل طرفين: العمل (نص أو صوت –موسيقى، أو صورة– لوحة تشكيلية، أو فيديو– فيلم... إلخ) والمتلقي (قارئ، ناقد، مستمع أو مشاهد).

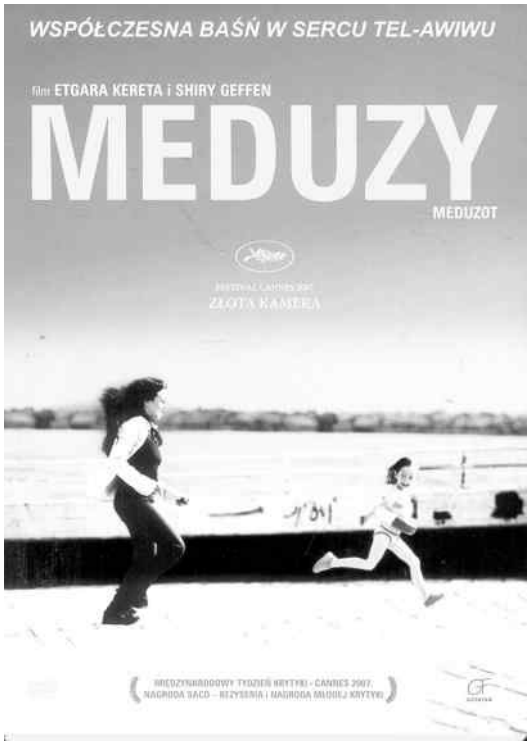

عدم تذوق الأعمال الحداثية يكمن في التلقي التقليدي القائم على البحث عن حكاية ومعنى، فإن لم يجده المتلقي يصبح العمل مدعاة لشعوره بالملل. المتلقي التقليدي كسول ويحتاج إلى مُوجِّه خارجي يسوطه بحكاية لها بداية ونهاية ومغزى واضح، خلافًا للمتلقي الذي يرى في الأعمال الحداثية مفهومًا آخر للتذوق ينسجم مع واقعه ويعبر عنه من جهة. ومن جهة أخرى يلعب التجريب والتجريد والتجديد والتهويم والهذيان والبحث عن المطلق وما وراء الواقع والمغامرة أدوارًا في صياغة هذا المفهوم. وحيث يكون الجمال محصلة تضافر معايير أخرى مثل الدهشة والغرابة والرؤى والصدمة. فتصبح القصيدة والقصة والرواية والفيلم، كاللوحة التشكيلية، متعة بصرية، شعورية وذهنية، وصيغة للرؤيا، يكف معها المتلقي عن طرح سؤال المعنى والموضوع ويتنبه إلى ما يمكن أن يفتحه العمل أمامه من آفاق. كما عبَّر أدونيس في حديثه عن القصيدة الحديثة.

أليخاندرو خودوروفسكي يبحث عن نفسه في الذكريات ولا يقابل أحدًا

هل يمكن هدم الجمالية بالجمال؟!

هذا ما تفعله السينما السوريالية وما يفعله أليخاندرو خودوروفسكي في رائعتيه «رقصة الواقع» 2013، و «شِعر أبدي» 2016، وهو يستلهم من سيرته الذاتية أو يبني عليها عوالمه السحرية الحُلمية.

إن كانت مهمة تدمير الجمالية بالجمال سهلة فإن مهمة تصوير الواقع، ممثلاً بالسيرة الذاتية، بأدوات سوريالية ليست بهذه السهولة أو هكذا يبدو الأمر نظريًا أو قبل مشاهدة الفيلمين.

الهدف يحدد الأداة، ولا أفضل من السوريالية من أجل تدمير أسس الوضع الراهن: المعبد، الدولة، العائلة، الرموز القومية، وتحطيم جميع أشكال الرقابة وتحرير بواعث الإنسان وطاقته الجنسية من كل قيد وكبت وإضفاء الفوضوية والغرائبية. السينما بشكل عام آلة زمن تسمح لنا بالعودة إلى الماضي وتصحيح مساره في الوقت الذي تسرد فيه وقائعه. وهذا ما يفعله خودوروفسكي في الفيلمين.

يعود في «رقصة الواقع» إلى طفولته ليصور معاناته الشخصية- في وسطين أُسري واجتماعي- كطفل لأب شيوعي صارم يفرض مبادئه الصارمة وتربيته القاسية، وأم مُحبة لكن ضعيفة. ثم معاناته كطفل يهودي من أصول أوكرانية يعيش وسط مجتمع شيلي كاره لليهود. نكتشف في الأخير أن الشجاعة والقوة التي يحاول الأب زرعها في ابنه كان يفتقر إليها هو شخصيًا. هذا الواقع المؤلم الذي عاشه الطفل خودوروفسكي يتحول على يده كمخرج إلى تحفة فنية راقصة وحافلة بالألوان.

يستكمل خودوروفسكي مسيرته كمراهق ثم كشاب في الجزء الثاني «شعر أبدي». وبعد أن كان في طفولته يحاول جاهدًا إرضاء أبيه نجده في الجزء الثاني مراهقًا يتمرد على إملاءات والده. يريده أبوه أن يدرس البيولوجيا، فيتمرد ويقرر أن يكون شاعرًا. يعود خودوروفسكي إلى تلك السنوات الحاسمة في شبابه؛ السنوات التي حددت المبدأ الذي من شأنه أن يحكم حياته كلها- الشِّعر.

التداعيات اللاعقلانية التي نشاهدها في الفيلمين تُشكل السلاح السوريالي الأساس لإحداث الصدمة. وتحدث هذه الصدمة عن طريق تحريف الواقع أو تشويهه بفصل الأشياء عن محيطها المألوف وتحويلها إلى موضوعات سوريالية. يريد خودوروفسكي أن يتحرر من أغلال ماضيه لا أن يعرف ذلك الماضي أو يعيد تصويره. إنه يمارس فعل التحرر من قيود الواقع ومن قوانين المجتمع والعائلة والدولة وهذا الفعل يمثل «الإمكانية اللامتناهية للخلاص بواسطة الحلم والحب والرغبة».

ما قاله بونويل عن فيلمه «كلب أندلسي» 1929، بمشاركة سلفادرو دالي، الذي يُعد من أكثر الأفلام الطليعية شهرة في تاريخ السينما السوريالية، يصلح للحديث عن فيلميّ خودوروفسكي: «إنه يتلقى إلهامه ويستقي إيحاءاته من الشعر، متحررًا من العقل والأخلاقية التقليدية» والشعر الذي استهل به خودوروفسكي جزءه الأول لا ينتهي بانتهاء الجزء الثاني؛ لأننا إزاء شعر أبدي.

الفيلم بين المتعة والفهم

هل يخاطب الفيلم السينمائي العقل أم الحواس؟

الفيلم السينمائي، والعمل الفني بشكل عام، إما أن يحقق المتعة البصرية السمعية أو المتعة الذهنية/العقلية أو كليهما. تتحقق المتعة البصرية بالكادرات والصوت والموسيقى التصويرية والألوان... وتتحقق المتعة الذهنية من خلال الفكرة وتقنيات عرضها. ويلعب الإنتاج دورًا مهمًا في نجاح أي فيلم لكنه ليس العنصر الأساس. فهناك أفلام رُصد لها إنتاج ضخم ولم تنجح. وأزمة السينما العربية هي أزمة أفكار، أزمة نصوص، لا أزمة إنتاج، فما يحدد حجم الإنتاج هو النص.

هل يخاطب الفيلم السينمائي العقل أم الحواس؟ الفيلم السينمائي، والعمل الفني بشكل عام، إما أن يحقق المتعة البصرية السمعية أو المتعة الذهنية/العقلية أو كليهما. تتحقق المتعة البصرية بالكادرات والصوت والموسيقى التصويرية والألوان... وتتحقق المتعة الذهنية من خلال الفكرة وتقنيات عرضها. ويلعب الإنتاج دورًا مهمًا في نجاح أي فيلم لكنه ليس العنصر الأساس

تحليل الفيلم لا يقضي على المتعة، هو متعة مضافة. والتحليل لا ينزع قشرة عن بصلة الفيلم وإنما يضيف أخرى. وتكتسب الأفلام قابليتها للتحليل، بالتفسير والتأويل، بصفتها فنًا، لا من طبيعة الفيلم كرسالة له مرسل ووسط ومتلقي فحسب، وعلى ذلك يصبح التأويل ملاصقًا للفن. يقول فيم فيندرز: «أنا لا أفكر، أنا أرى»، ويقول تاركوفسكي: «ينبغي أن نضيف التفكير لكي نرى بشكل صحيح».

من أين يبدأ الفيلم؟

البعض لا يحضر الفيلم منذ الافتتاحية ويغادر بمجرد ظهور أسماء صناع الفيلم. هذا يعني أنهم يُعدِّون الفيلم حكاية يمكن الإلمام بها حتى لو فاتهم بعض المشاهد. ربما لا يدرك هؤلاء أن أكثر افتتاحيات الأفلام مهمة وتدخل في بنية الفيلم.

أبرز مثال هو المشهد الافتتاحي في فيلم «فورست جَمب». فالذي شاهد الفيلم- منذ البداية- سيتذكر ريشة تطير في السماء وتستقر أخيرًا عند قدم فورست.

في كتابه «تشريح الأفلام» عن دلالة تلك الريشة يقول برنارد ديك: «حين تبدأ قائمة الأسماء بالظهور، تطير ريشة في الهواء، وتستقر في نهاية الأمر على الفردة اليسرى من حذاء فورست «توم هانكس». يلتقط فورست الريشة ويضعها في كتاب الأطفال الذي يقرأ فيه. وأي شخص لم يكن حاضرًا في أثناء مقطع الأسماء لن يقدِّر النهاية حق قدرها، إذ أن فورست يفتح الكتاب وتتحرر الريشة عائدة إلى السماء التي سقطت منها في الأصل. ترمز الريشة إلى الترابط بين المصادفة والمصير، وهذا أحد مواضيع الفيلم. ويقول فران فينتورا، في كتابه «الخطاب السينمائي، لغة الصورة»: «حركة رائعة لانخفاض الكاميرا متابعة سير ريشة، وهي استعارة للحظ، حيث تحط أخيرًا على أقدام توم هانكس».

هذا فيما يتعلق ببداية الفيلم بالنسبة للمتلقي، أما الفيلم كصناعة فله بدايات كثيرة أولها السيناريو وآخرها المونتاج، وهذا في رأي سيرجي آيزنشتاين مرادف للسينما أو هو السينما بذاتها حين قال: «المونتاج هو الذي يعطي للمَشاهد معناها حسب ترتيبها وسياقها» وكذلك الحال بالنسبة للموسيقى التصويرية التي تعطي الإيقاعات المختلفة فيها معاني ودلالات مختلفة للمشهد الواحد نفسه. والأمر نفسه ينطبق على الإضاءة التي يمكنها أن تحول الشخصية إلى طيبة أو شريرة أو غامضة.. إضافة إلى بقية عناصر الفيلم، والتي توحدها جميعًا «فكرة المخرج».

الكاميرا استعمالاً تعبيريًا

تتموضع الكاميرا في زوايا تسمح بتصوير الحدث على أكمل وجه. ثمة استخدامات جمالية لزوايا التصوير، لكن الاستعمال الجمالي لزوايا التصوير محدود، فلزاويا الكاميرا استعمال تعبيري يسهم في بلورة معنى للقطة/المشهد. ما يحدد زاوية التصوير هو المعاني التي تريد أن تنقلها الكاميرا. اللقطة تتضمن تعبيرًا، ولها زوايا تصوير معينة، واختيارها مقصود. والمعنى هو الذي يحدد زاوية التصوير. ولغة الفيلم لها مستويات خطاب، وكل مستوى يخاطب فئة ثقافية.

لا ينظر الممثل إلى الكاميرا؛ بهدف خلق مُشاهد محايد. فقدرات الممثلين على الأداء تعتمد على نسيان الكاميرا حتى يصل أداؤهم إلى مستوى يوازي الواقع الحقيقي. ولا أعني هنا نسيانًا تامًا للكاميرا

بقدر ما أعني الاندماج مع الحدث ومعايشته. هذا ما يمكن قوله على نحوٍ عام، ويبقى أن النظر إلى الكاميرا لا يتم اعتباطًا بل بتخطيط يصب في خدمة المشهد أو اللقطة أو فكرة الفيلم على نحو عام، ولكل فيلم، من هذا النوع، سياقه الذي يحدد الوظيفة التعبيرية التي تؤديها نظرة الممثل إلى الكاميرا.

السرد السينمائي يخاطب المتفرج بطريقتين: مباشرة وغير مباشرة، وإن كانت الطريقة غير المباشرة هي السائدة. والخطاب يكون بصريًّا وسمعيًّا، إضافة إلى الخطاب المضمر، أو ما بين السطور. والنظر إلى الكاميرا يعني تحطيم الحاجز بين الشخصية في الفيلم والجمهور، وإقحام المتفرج في السرد بطريقة مباشرة. وقد يُستبدل نظر الممثل إلى الكاميرا بتوجيه الخطاب للمتفرج كلاميًّا أو نصيًّا، مثلما يحدث في السرد السينمائي الذي يعتمد على صيغة الراوي. ينظر الممثل إلى الكاميرا مباشرةً، أي إلى المتفرج، بُغية التأثير فيه بخطاب مباشر ونقله من وضعية المشاهد إلى وضعية الشاهد.

من مشاهد إلى شاهد

توجيه الممثل، عادة السارد أو البطل، لعينيه إلى الكاميرا، هي تقنية سردية مقتبسة من السرد الروائي، حيث يوجه السارد الحديث إلى القارئ. مثال: وودي ألن في فيلم Annie Hall، والمشهد الأول من فيلم «A Separation» لأصغر فرهادي. طريقة أخرى تتم باستعمال الكاميرا كمرآة، مثلما فعلت جولييت بينوشيه في فيلم «Certified Copy». في هذا الفيلم تستعمل إيلي «بينوشيه» الكاميرا في مشهدين: في الأول، كمرآة، تضع أحمر الشفاه وقرطين على أذنيها، وهذا المشهد بمثابة تمهيد للمتفرج للاهتمام بها والتضامن مع قضيتها التي ستطرحها في المشهد التالي وهي تحاور جيمس «ويليام شيمل». وفي آخر مشهد ينظر جيمس إلى الكاميرا/المُشاهد بصمت كما لو أنه يطلب منه مساعدته في أخذ قرار حول الاقتراح الذي عرضته عليه إيلي في المشهد السابق. بهذه الزاوية تتخلى الكاميرا عن موضوعيتها السائدة لتنقل المتفرج من وضعية المراقب المحايد إلى وضعية المشارك الحَكَم.

يأخذ دينيس أركاند مفتاح فيلمه «الغزوات الهمجية» من وودي ألن، «فشخصيات أركاند تتحدث مباشرة إلى الكاميرا عندما تنتقد النزعات الثقافية والسياسية للحياة الأكاديمية. كما جاء في كتاب «فكرة الإخراج السينمائي». يتخذ المخرج موقفًا من الحدث باستعمال موضع الرؤية الذاتية، فيوجه عواطفنا نحو شخصية بعينها دون الشخصيات الأخرى.

وفي أول لقطة قريبة في تاريخ السينما، في فيلم «سرقة قطار» 1903، يوجه «جورج بارنيز» مسدسه ويطلق تجاه الكاميرا. وهو ما أثار هلع المشاهدين. وفي فيلم «البرتقالة الآلية»، 1971، لستانلي كوبريك، ينظر مالكولم ماكدويل مباشرة إلى الكاميرا، واضعًا نظرته في منتصف الإطار.

النظر إلى الكاميرا في الأفلام الوثائقية شائع، على اعتبار أن الكاميرا عين الحقيقة، خلافًا للكاميرا في السينما السردية التي وإن اعتبرت عينًا فهي عين على الحياة، لا على الحقيقة، نظرًا إلى الطبيعة الفنية والخيالية لهذا النوع السينمائي. وحين يجعل شخص ما من نفسه تلك الكاميرا، المراقبة، نتوجس ونرتبك ونتوتر، أي نعجز عن التعبير العفوي عن حياتنا، وحين ترتفع تلك الكاميرا لتصبح عينًا سماوية ترصد أنفاسنا تصيبنا الحالة نفسها.

الصورة السينمائية هي لغة، شبيهة بلغاتنا البشرية، لها أبجدياتها وخصوصياتها، فقد تكون اللقطة هي الكلمة والمشهد هو الجملة، ولكن كل فيلم هو لغة خاصة بمبدعه، فكلماتها لا توجد في معاجم معروفة كما هو حال اللغات المعجمية. «تنتج اللقطة عددًا غير محدود من المعلومات غير المرئية، بينما للكلمة في أغلب الحالات معنى واحد أو متعدد المعاني بناء على ما تقدم يصبح فهم لغة الفيلم مرهونًا بثقافة سينمائية وسيكون فهمًا فرديًّا في نهاية المطاف حتى لو اتفق معه أفراد آخرون.

الحياة دون موسيقى تصويرية

تعرف الموسيقى التصويرية متى تصمت ومتى تشارك في خلفية مشهد، ومتى تتصدره. ومن يحدد لها هذه الأدوار هو نوعية السرد (مونولوج، ديالوج، بوليلوج، أو صوت السارد/الراوي أو مشاهد

صامتة سريعة أو بطيئة، حزينة أو مرحة... إلخ). وهناك أفلام شهيرة كان للموسيقى دور كبير في ذيوعها، مثل: The Godfather, DR Zhivago,Once Upon a Time in the West, Once Upon a Time in America, The Good, the Bad and the Ugly، وفي أغلب هذه الأفلام يصنع إنيو موريكوني بصمته الفريدة ويجعل من الفيلم تحفة فنية.

للموسيقى التصويرية دور تعبيري يسهم في تشكيل المشهد. فهي عامل مساعد لتوصيل تعابير معينة إلى جانب عناصر أخرى أساسية أهمها أداء الممثلين، وفي حال كفاية العناصر الأساسية للقيام بمهمة التوصيل لن تكون الموسيقى التصويرية إلا عنصر مقحم. ففي السينما الواقعية بتفاصيلها الدقيقة والمعبرة يمكن للموسيقى أن تكون عامل إلهاء ومعها تضيع التفاصيل. فكأن لسان حال الأفلام التي تخلو أو تخفت فيها الموسيقى التصويرية يقول: الحياة أصلاً دون موسيقى تصويرية، ونحن نصور الحياة.

عين السينما الثالثة

يمكن قراءة بوسترات الأفلام سيميائيًّا، أو دلاليًا، لمعرفة إلى أي حد استطاع المصمم تكثيف فكرة المخرج في صورة (البوستر). تأسيسًا على هذه القراءة يعتبر البوستر، مثل غلاف الكتاب، عتبة أولى للولوج إلى النص السينمائي. أغلب بوسترات الأفلام عامة والعربية خصوصًا لا تعير هذه المسألة اهتمامًا كبيرًا، بقدر ما تهتم بحشر صور أبطال الفيلم مع الوضع في الاعتبار حجم كل ممثل قياسًا على شهرته في شباك التذاكر.

ينتهي فيلم «للحب قصة أخيرة» بمشهد لسلوى «معالي زايد» وهي تحطم بمعول مقام الشيخ التلاوي، من الداخل، وامرأة ومجموعة من النساء يتوسلن إليه من الخارج، وقد لُخِّص هذا المعنى في صورة أفيش/بوستر الفيلم بيد تمسك معولاً وأخرى تردها. في إشارة إلى الواقع المنقسم بين معارض ومؤيد للخرافة.

ومن البوسترات التي لفتت انتباهي وتعكس موضوع الفيلم ودلالاته، فيلم «Closer»، للمخرج مايك نيكولز، والفيلم الإيراني «A Separation». في بوستر فيلم «كلوزر» تظهر وجوه أبطال الفيلم الأربعة (جوليا روبرتس، جود لو، ناتالي بورتمان وكليف أوين)، وبترتيبها من اليسار إلى اليمين لا تظهر سوى عين واحدة لكل منهم. وكشف العلاقة بين أحداث الفيلم ومضامينها من جهة وبوستر الفيلم من جهة أخرى تظهر عند تلخيص القصة في عنوان رئيسي.

يناقش فيلم كلوزر تعدد العلاقات العاطفية، حول علاقتين متداخلتين بين الشخصيات الأربع، علاقة دان وأليس، وعلاقة آنا ولاري. وتتلخص في سؤال: هل يمكن أن يحب المرء أكثر من شخص في الوقت نفسه؟

ظهور عين واحدة لكل شخصية من شخصيات الفيلم الأربع فيه دلالة على أن كل واحد منهم يرى بعين واحدة، واختفاء العين الثانية يدل على قصور في الرؤية وعلى ضبابية العلاقة العاطفية التي تجمع بين كل اثنين، فالحب الحقيقي لا يحتاج إلى قلب فقط ولكن إلى عينين. ظهور عين واحدة لكل شريك يعني أنهما يكملان بعضهما. وهكذا يظهر جود لو بعين يسرى وناتالي بورتمان بعين يمنى، وتظهر جوليا روبرتس بعين يسرى وكليف أوين بعين يمنى. ولرؤية هذه الدلالات أنت بحاجة لعين ثالثة تصير خبيرة مع المران على أفلام يتسم صناعها بذائقة رفيعة تسهم في تخليق تلك العين الخفية. وبهذه العين يمكن الكشف عن العلاقة التي تربط بين مضامين فيلم «انفصال» والبوستر.

البوستر الأول لفيلم «انفصال» مقسم إلى قسمين: في القسم العلوي من البوستر تظهر عائلة نادر وفي السفلي عائلة حُجَّت وهم ينظرون للأعلى. في إشارة إلى وضع الأسرتين المالي أو الوضع الطبقي الاجتماعي، المنقسم إلى طبقة وسطى وطبقة فقيرة معدمة.

والبوستر الثاني مقسم إلى قسمين: ويُظهر فقط عائلة نادر، الأب والأم، نادر وسيمين، يجلسان في أعلى الصورة على كرسيين وبينهما كرسي شاغر. وفي أسفل الصورة ابنتهما تيرميه تجلس على كرسي وإلى يمينها ويسارها كرسيان شاغران. الكرسي الشاغر بين الأب والأم يرمز لابنتهما الغائبة، والكرسيان الفارغان في النصف الأسفل يرمزان إلى الأبوين الغائبين. والجميع في حالة انتظار وترقب لمصير الأسرتين الصغيرتين، ومصير الأسرة الكبيرة (إيران)، التي سيقرر

مصيرها جيل المستقبل ممثلاً بالابنة تيرميه التي عليها أن تختار بين أربعة احتمالات للعيش: إما أن تعيش مع أبيها أو مع أمها أو معهما أو دونهما. وثمة فاصل في كل من البوسترين يعبر عن الانفصال في العنوان وفي مضمون القصة.

يبدأ الفيلم بطلب سيمين الانفصال عن زوجها نادر، وهذا انفصال أسري شكلي أو أولي سيقود إلى انفصال اجتماعي أعمق وأهم. نهاية الفيلم مفتوحة بانتظار قرار «تيرميه» والقاضي يسألها مع من تفضل أن تعيش. ويمكن أن نرى في الانتظار انعكاس لدور المجتمع السلبي. ودور السينما هنا ليس في تقديم الحلول بل في اقتراحها ضمنًا، أما الحل فبيد المجتمع. ولهذه النهاية المفتوحة دلالة تفيد أن المشكلة الأكبر، ليست مشكلة سيمين ونادر ولا مشكلة رضية وأسرتها، وإنما مشكلة بلد لا يزال ينتظر قرارًا يقع في يد أهم طبقتين، فصراعهما أدى إلى إجهاض الطفولة وتشريد الأبناء. وقد لمَّح الفيلم لإمكانية التوصل لحل مشترك من خلال مساعدة الطبقة المتوسطة للطبقة الفقيرة، وبدلاً من الشجار يمكن توجيه الأنظار إلى المسبب الحقيقي لكل تلك المشكلات، وهما السلطتان الدينية والسياسية.

السينما والرواية

يعترض بعض الروائيين على تحويل رواياتهم إلى السينما، خوفًا من تشويه الفيلم لنصوصهم. إن كان الروائي يتقبل القراءات النقدية المختلفة لروايته، فلماذا لا يتقبل القراءات السينمائية لعمله باعتبارها واحدة من تلك القراءات؟ لماذا لا يكون الفيلم قراءة للنص لا نقلا مطابقا له؟ ينبغي على الروائي أن يقلق من القراءة السينمائية الحرفية لعمله. مثل هذه القراءة هي التشويه الحقيقي للعمل الروائي. فالرواية عمل تخييلي فني قابل لتعدد القراءات ونقلها إلى السينما حرفيًّا يحرم النص من جوهره الا بداعي ومن جمالياته وتعدد دلالاته. ودون هذه التعددية يتحول النص إلى تقرير علمي أو وثيقة تاريخية.

لكل فن عناصره المميزة له عن بقية الأشكال الفنية، وإلا لما تعددت أشكال الفن. عامل مهم في اختلاف الفيلم عن الرواية هو عامل التفسير. القصة الجيدة تصبح مادة للتفسيرات العديدة، والنقل شبه الحرفي لقصة الرواية يحرمها من هذه الميزة كما يجعل المخرج مخرجًا حرفيًّا ويحرمه من صفة الا بداع. فالسينما تريد أن تقول شيئًا لم تقله الرواية. والنتيجة البديهية أنها لن تقوله بنفس الطريقة أو الأسلوب الذي قالته الرواية.

الفكرة الشائعة عن العلاقة بين الرواية والسينما مفادها أن الأفلام المقتبسة عن روايات عظيمة مآلها الفشل. بينما تنجح الأفلام المنقولة عن روايات عادية أو متوسطة. هذه الفكرة تلقي بعبء فشل أو نجاح الفيلم على شماعة النص. والحقيقة أن نجاح الفيلم مرهون بسيناريست محترف ومخرج عظيم، وبتكامل بقية عناصر الفيلم. من ثَم ليست رواية سكوت فيتزجيرالد هي العامل الأول في جمال فيلم «The Great Gatsby»، ولا رواية نيكوس كازانتزاكس سببًا في ضعف فيلم «The Last Temptation of Christ» على الرغم من أن مخرجه هو سكورسيزي.

يعترض بعض الروائيين على تحويل رواياتهم إلى السينما، خوفًا من تشويه الفيلم لنصوصهم. إن كان الروائي يتقبل القراءات النقدية المختلفة لروايته، فلماذا لا يتقبل القراءات السينمائية لعمله

العبارة الشائعة في الأفلام المقتبسة عن الروايات تقول بأن الفيلم «مبني على الرواية الفلانية»، والعبارة تتضمن تصريحًا بأن الفيلم لن يكون نسخة طبق الأصل، وإنما هو رؤية السيناريست والمخرج للعمل المكتوب مستعينين بقدر من الخيال تقتضيه الدراما. في هذا النوع من الأفلام تكون مساحة الخيال أوسع من الأحداث الحقيقية أو أن الأحداث الحقيقية قاعدة للتحليق في الخيال.

خروج هذه الرؤية المُسَينمة عن النص يثري الرواية/الكتاب والمؤلف وصناع السينما والقارئ والمشاهد. فالاختلاف بين النص والصورة سيدفع المشاهد إلى قراءة النص والقارئ إلى مشاهدة الفيلم. وما ينطبق على الرواية والفيلم ينطبق أيضًا -أو ينبغي أن ينطبق- على السير الذاتية التي تتحول إلى أفلام سينمائية. فالسينما خَلْق مُسَيْنَم عماده الخيال مثلها مثل الرواية الخيالية. وعلى من يبحث في السينما عن الحقيقة أو عن ضرورة مطابقة الفيلم السينمائي لسيرة شخصية عامة فعليه أن يلجأ للأفلام التسجيلية؛ فهذه تنقل -أو تحاول نقل- الواقع.

محصلة أفلمة النص المكتوب، تحويله إلى نص

جـــدایی نادر از سیمین
نویسنده، تهیه‌کننده و کارگردان
اصغر فرهادی
لیلا حاتمی، شهاب حسینی
پیمان معادی، ساره بیات
سارینا فرهادی، بابک کریمی
علی اصغر شهبازی، شیرین یزدان بخش، کیمیا حسینی
و با حضور مریلا زارعی
مدیر فیلم برداری: محمود کلاری تدوین: هایده صفی یاری
صداگذاری و میکس: محمد رضا دلپاک، رضا نریمی زاده
صدا بردار: محمود سماک باشی عکاس: حبیب مجیدی
مجری طرح: نگار اسکندرفر سرمایه گذار: بانک پاسارگاد
پخش: فیلمیران
61

سينمائي، لا بد أن تحتوي على قدر من الاختلاف بسبب اختلاف وسائط السرد في الحالتين. إضافة إلى اختلافات تفرضها عملية القراءة السينمائية التي تتجلى في رؤية السيناريست والمخرج. الأفلمة الحرفية تعني غياب التفاعل وهو ما سيدمغ النص الروائي بتهمة الحرفية والتقريرية والإخبارية بكل ما تعنيه من غياب للجماليات وتنوع الدلالات. وهناك اختلافات قد يُدخلها السيناريست بسبب الرغبة في إضفاء أفكار محلية في بيئة أخرى مختلفة. لنأخذ هذا الاختلاف على سبيل المثال: حدث روائي مكتوب بأسلوب الإخبار TELLING يمكن أفلمته بأسلوب العرض SHOWING أو العكس أو كليهما. والنموذج الأجمل برأيي هو فيلم «Behind the Sun» للمخرج البرازيلي والتر والاس. الفيلم مبني على فكرة رواية الألباني إسماعيل كادرايه «نيسان المكسور»، لكن المخرج تصرَّف في القصة الأساسية بشكل كبير فغيَّر أسماء الشخصيات ومكان الأحداث واستعان فقط بجزء يسير من أحداث الرواية الأصلية. في الفيلم يعود ساليس بالزمن إلى عام 1910 وحين يأتي دور تونهو في الثأر لمقتل أخيه يتملص من هذه المهمة، وبعد أن يتعرف على كلارا، التي تعمل في سرك متجول، يقعان في الحب وينتهي الفيلم نهاية سعيدة- مغايرة لنهاية الرواية- باختيار تونهو طريقًا آخر غير طريق الثأر.

تشترك الرواية والفيلم في شكل التعبير ويفترقان في مادة التعبير. فشكل التعبير يتكون من «عناصر تظهر في كل النصوص السردية، أي تشترك فيها كل النصوص السردية، بغض النظر عن الوسط الذي تظهر فيه» كما عبَّر الدكتور مرسل فالح العجمي في «الواقع والتخييل - أبحاث في السرد، تنظيرًا وتطبيقًا». وشكل التعبير يتمثل في «العناصر الأساسية التي تظهر في القصة المكتوبة أو الشريط السينمائي مثل الشخصيات والأحداث». أما مادة التعبير فهي «التجليات الفعلية التي يبرز فيها النص». هنا سنكون أمام مظهرين من مظاهر تجلي الخطاب: التعبير الأول -زمنيًا- هو الرواية المكتوبة، والثاني: الشريط السينمائي الذي قدم الرواية في صياغة سينمائية. في هذه الصياغة الجديدة تتحول الحروف إلى صوت وصورة، والشخصيات الورقية إلى ممثلين ويتحول المكان المجرد إلى مكان مجسم يقدم عبر شاشة العرض». ويمكن القول إن «شكل التعبير هو العنصر الثابت (في الرواية والفيلم) بينما مادة التعبير هي العنصر المتغير».

الفيلم عبارة عن نص سينمائي وهو خلاصة رؤية السيناريست والمخرج للنص الروائي. وهذه النص السينمائي سيخضع لقراءة يقوم بها المشاهد. وعندما تشاهد فيلمًا فإنك لا تقرأ الرواية وإنما تقرأ الفيلم. ويمكن تلخيص رحلة النص السردي من حالته المكتوبة إلى حالته السينمائية في محطتين: الموضوع المادي [الكتاب] والموضوع الجمالي [النص] عند قراءته من قبل القارئ. وقد يكون هذا القارئ سيناريست يتفاعل مع النص ويضفي عليه من خبرته الذاتية فيحول الموضوع الجمالي إلى موضوع مادي ويحوله المُشاهد إلى موضوع جمالي. فالرواية تعتبر موضوعًا ماديًا أي أنها كتاب مطبوع وموضوع على رف المكتبة. وهي ميتة ما دامت باقية على الرف. وفي اللحظة التي يشرع فيها قارئ في قراءتها تتحول إلى نص تنبعث فيه الحركة والحياة وإلى تجارب أو مواضيع جمالية. فكل قراءة تحول الكتاب إلى نص والموضوع المادي إلى موضوع جمالي.

تشترك الرواية والفيلم في شكل التعبير ويفترقان في مادة التعبير. فشكل التعبير يتكون من «عناصر تظهر في كل النصوص السردية، أي تشترك فيها كل النصوص السردية، بغض النظر عن الوسط الذي تظهر فيه

وعند أفلمة النص يتحول الموضوع الجمالي إلى موضوع مادي هو الفيلم أو شريط الفيديو المحفوظ في خزانة المنزل، وسيبقى ميتًا هناك حتى لحظة تشغيله ومشاهدته والتفاعل معه، أي تحويل الفيلم إلى مَشاهِد أو موضوع جمالي عبر التجربة الذاتية للمُشاهد. «إن الرحلة التي ينتقل فيه الموضوع المادي من شيء ميت إلى خبرة ذاتية مؤثرة هي الرحلة التي يتم فيها نقل الموضع المادي من العالم الخارجي إلى تجربة داخلية تثمر خبرة ذاتية». وفي هذه الرحلة نميز بين الكتابة والقراءة المنتجة.

هل ستقرأ رواية تاريخية تعرف نهايتها مسبقًا؟ الجواب: نعم؛ لأن الرواية غير التاريخ. هل ستشاهد فيلمًا عن رواية قرأتها مسبقًا؟ نعم؛ لأن الرواية غير الفيلم.

كيف تُشاهدُ فيلما؟!

يذكر كين دانسايجر، في كتابه «فكرة الإخراج السينمائي، كيف تصبح مخرجًا عظيمًا؟» أن المخرج «يستخدم ثلاث أدوات لكي يخلق فكرته الإخراجية: تفسير النص، وإدارة أداء الممثلين، واختيارات الكاميرا التي تخلق الاحتمالات المونتاجية التي تحقق الفكرة الإخراجية». معرفتك لهذه المعلومة ستجعلك تُقيم الأفلام على نحو أفضل. وسيتلخص التقييم في سؤال واحد ستسأله في نهاية كل فيلم: ما هي فكرة الفيلم؟ ثم ستطرح سؤالاً آخر: إلى أي مدى نجح المخرج في استعمال هذه الأدوات؟ يتخذ هذا السؤال العام شكلاً آخر خاص بكل فيلم ويبدأ بـ(لماذا...؟!). والجواب لن يقيِّم الفيلم فحسب، وإنما المخرج كذلك، ما إذا كان مخرجًا محترفًا أو جيدًا أو عظيمًا، بحسب تصنيف كين دانسايجر للمخرجين.

في تقييمك سواء كان شفهيًّا أو مكتوبًا، ستحتاج إلى أن تستشهد بأمثلة من الفيلم لاستعمالات المخرج لإدارة الممثلين، والأهم لاستعمالات الكاميرا ثم أمثلة من الحوار تدعم فهمك للفكرة ولتظافر جميع الأدوات في تشكيلها. معرفتك لفكرة الفيلم ستؤهلك للإجابة عن السؤال: ما هي دلالات الفيلم؟ أو رسائله المضمرة أو الضمنية؟

ليست كل استعمالات الكاميرا دلالية فهناك استعمالات جمالية، وإدارة الكاميرا علم يحتاج إلى تخصص، لكن يمكن بقليل من الثقافة وقراءة الكتب النقدية معرفة بعض المعلومات العامة التي تفيد في التقييم. استعمالات العدسات أيضًا هو ضمن استعمال الكاميرا لكن قلة فقط يمكنهم معرفة نوع العدسات المستعملة مثل المخرجين أو المصورين السينمائيين أو الدارسين.

معرفة فكرة الفيلم مهمة في الأفلام الفكرية والفلسفية مثل: أفلام تاركوفسكي وبرجمان وكوفمان ولينش وكياروستامي، وغيرها من الأفلام. ويصعب تقييم كثير من الأفلام دون التوصل لفكرة الفيلم. ولا تنطبق هذه القاعدة على كل الأفلام؛ فهناك أفلام بسيطة لها قصة تقليدية واضحة ومباشرة.

«الجمهور يبحث عن عنصر المفاجأة عن طريق الانقلابات الدرامية والتحولات في الحبكة..» كما جاء في كتاب دانسايجر: «فكرة الإخراج السينمائي» وأن تكون صانع أفلام، وما يريده الجمهور، يوضحه «الرجل الطائر» وهو يحث ريجان بقوله «إنهم يريدون لهبًا وتضحيات، ينتظرون شيئًا ضخمًا، امنحهم إياه، امنح الناس ما يريدونه: إباحية نهاية العالم عتيقة الطراز، بيردمان، صعود طائر الفينيق، لاعبين بوجوه مليئة بالبثرات يتغوطون في سراويلهم، وأشياء من هذا القبيل، وستضمن مليار مشاهد حول العالم. أنت أكبر من الحياة يا رجل. تنقذ الناس من حياتهم المملة والبائسة، تجعلهم يقفزون في مقاعدهم، يضحكون، ويتغوطون في سراويلهم. كل ما عليك فعله هو..»، هنا يتوقف الرجل الطائر عن سرد ما يريده الجمهور بالكلمات فنرى نموذج لأفلام الأكشن/الإثارة في الشارع وقد امتلأ بالانفجارات والمحاربون برشاشاتهم وطائرات المروحية والصواريخ وطائر العنقاء الضخم وهو ينفث النار من منقاره. يستأنف الرجل الطائر حديثه: «هذا ما أقصده، قعقعة العظام، والأصوات الصاخبة، والأسلحة الثقيلة! انظر إلى هؤلاء الناس، انظر إلى أعينهم كيف تتلألأ. إنهم يحبون هذه التفاهة. يحبون الدم، يحبون الإثارة، وليس هذا (الفيلم) المليء بالحوارات الفلسفية الكئيبة». ولأن الجمهور لا يقبل إلا بالدم، يستعمل ريجان «مايكل كيتون» مسدسًا حقيقيًّا في عرضه المسرحي. يطلق الرصاصة على رأسه فيسقط مضرجًا بالدم ويقف الجمهور مصفقًا لهذا المشهد الحقيقي.

هذه الأفلام، التي يتحدث عنها «الرجل الطائر» بنبرة نقدية، تُحقق المتعة البصرية، لكن هناك أفلام تتسم بالغموض ويصعب التوصل إلى فكرة محددة فيها –مثل فيلم « The Double Life of Veronique»، وثمة أفلام تعتمد بنيتها السردية على إحالات لأعمال سينمائية أو فنية أخرى، كما هو فيلم كوفمان «I»m Thinking of Ending Things»، فيتطلب فهمها استيعاب تلك الأعمال. مثل هذه الأفلام تطلب مُشاهدًا نشطًا لا تنتهي علاقته بالفيلم بمجرد انتهاء المشاهدة. مع ذلك يمكن تقييم هذه الأفلام بالاستمتاع بها أو العكس: أعجبني، لم يعجبني، دون الحاجة لمزيد من الشرح. أو من خلال تقييم أداء الممثلين، المرتبط تمامًا بفكرة الفيلم وبتوجيه المخرج.

ثمة مشهد في كثير من الأفلام، يُلخِّص فكرة الفيلم أو يُظهر أبرز جمالياته، ويمكن تسميته المشهد الذروة أو المشهد النواة، الذي منه بزغت الحكاية وحوله تدور الدلالات، وغالبًا ما يكون سببًا في حصول الفيلم أو بطله على الجوائز. ويمكن إجراء مقارنة بين الفيلم موضوع التقييم وأفلام أخرى. وأخيرًا ينبغي أن تعرف أن «صانع الفيلم مؤلف يكتب بآلة تصويره مثلما يكتب الكاتب بقلمه»، كما قال ألكسندر أستروك.

حالُه أصعب من السينما: أبو الفنون يبحث عن أرشيـــف!

عصام زكريا

لم أكن أتوقع أن أبدأ هذا المقال بخبر سعيد.. عندما شرعت في البحث عن مصادر الأرشيف المسرحي في مصر، كنت أعرف أن المسرح في مصر، مثل غيره من الفنون، يتيم، لا متحف يجمع مقتنياته القديمة، ولا مؤسسة تعني بطبع وحفظ وأرشفة الأعمال المسرحية، وحتى الأعمال التي صورت قبل وبعد ظهور التليفزيون لا توجد جهة تجمعها وتحفظها، والأعمال التي أنتجها أو صورها أو حصل على شرائطها التليفزيون المصري ضاعت أو تلفت مثل معظم أرشيف التليفزيون، ولم يبق سوى فتات أعمال قليلة حالتها سيئة.

أرشيف المسرح أصعب

مقارنة بالسينما، فالمسرح أتعس حظًا بكثير. مجرد وجود الفيلم وثيقة وبرهان وجود، ولو لم يتعرض نيجاتيف شريط الفيلم لمصيبة كبيرة تدمره كليًا أو جزئيًا، فإن الفيلم يبقى مقاومًا محاولات الطمس والنسيان، في انتظار من يعثر عليه أو يشاهده. أما المسرحية فتنتهي، وتختفي، وكأنها لم توجد قط، بمجرد إسدال الستار على الممثلين. وكل ليلة عرض هي مولد جديد للعرض المسرحي، وموت له.

تختلف المسرحية عن الفيلم في كون النص المسرحي عملًا إبداعيًا مستقل بحد ذاته، بينما كل إنتاج وإخراج للنص، وكل مرة عرض له، هي نسخ من النص الأصلي، أو ترجمات له، أحيانًا تتعمد مخالفة النص ونقضه، كما نرى على سبيل المثال في النسخ اللانهائية التي تصنع عن أعمال شكسبير، وكثيرًا ما تحمل تأويلات مختلفة حتى تبدو أحيانًا وكأنها اقتبست من نصوص مختلفة!

يقال إن المسرح يختلف عن سائر الفنون لضرورة وجود متلقٍ يكمل الحالة المسرحية، فالسينمائي قد يصنع فيلمه ولا يراه، والمؤلف الموسيقي قد يؤلف مقطوعته ولا يسمعها، وكذلك الرسام والأديب، ولكن المسرح ينتمي للأدب كما ينتمي لفنون الأداء، مثل الرقص والغناء، ولا يمكن أن يوجد رقص أو غناء أو عرض مسرحي دون جمهور! وعندما نتحدث عن أرشيف المسرح، فنحن نقصد شيئًا آخر غير الأرشيف السينمائي أو أرشيف فني آخر. نحن نتحدث عن أرشيف الوثائق المتعلقة بوجود المسرحية من شتى جوانبها، كنص وعرض وحالة.

عندما نتحدث عن أرشيف المسرح، فنحن نقصد شيئًا آخر غير الأرشيف السينمائي أو أرشيف فني آخر. نحن نتحدث عن أرشيف الوثائق المتعلقة بوجود المسرحية من شتى جوانبها..

سبعة أوجه للأرشيف المسرحي

هناك سبعة مجالات ينبغي أن نضعها في اعتبارنا حين نتحدث عن أرشيف المسرح.

أولًا: أرشيف النصوص المسرحية، وهو مجرد جزء صغير من تاريخ المسرح، لأن النص قد يوجد ولا تنتج المسرحية على المسرح أبدًا. وهي قد تقرأ

جيدًا، أو لا تقرأ على الاطلاق. ويعتبر أرشيف النصوص المسرحية المنشورة جزءًا من تاريخ الأدب المكتوب، ولكن هذا ليس صحيحًا دائمًا، فهناك ما يعرف بالنصوص الشفهية، أو التي كانت تكتب ويتم تعديلها طوال الوقت في أثناء العرض، أو نصوص المسرحيات التي لم تنشر قط. يحفل تاريخ المسرح بالكثير من العروض المسرحية والشعبية التي ليس لها نصوص منشورة. بعضها من زمن ما قبل أهمية طبع ونشر النص المسرحي، حين كانت المسرحيات تكتب لتمثل على المسرح فقط، وليس لتنشر كنصوص، وحتى أعمال شكسبير هناك خلاف عليها: إذ يوجد شكوك في انتماء بعض المسرحيات المنشورة له، ويوجد شكوك حول وجود نصوص مسرحيات أخرى كتبها ولم تنشر. وينطبق هذا الوضع أكثر على العروض الشعبية، والأعمال الرائدة، وحتى الأربعينيات من القرن الماضي شهدت وجود عروض مسرحية لم تنشر نصوصها، ولا يوجد نسخ منها. وجزء مهم من أرشيف وتاريخ المسرح هو البحث عن هذه النصوص المفقودة، ونشرها، وجدير بالذكر أن هيئة المسرح التابعة للدولة قامت في وقت من الأوقات بطبع بعض هذه الأعمال لرواد المسرح المصري، ولكنها توقفت، وهناك بعض الجهود الفردية؛ مثل جهود الباحث سيد علي إسماعيل لنشر مخطوطات بعض المؤلفين مثل محمد علي جمعة، ومصطفى ممتاز وعباس حافظ. ولكن تظل هذه الجهود مبعثرة طالما لا توجد مؤسسة متخصصة في جمع هذه النصوص وأرشفتها ذلك. ومن المدهش أنه في الوقت الذي تتوفر فيه أعمال من بدايات القرن التاسع عشر لرواد مثل يعقوب صنوع، ومارون النقاش، فإننا لا نجد نصوص مسرحيات كثيرة من ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

– الوثائق الكتابية لا غنى عنها فيما يتعلق بالتأريخ للمسرح على عكس الفنون الأخرى، التي يكفي وجودها لإثبات وجودها، على عكس الفنون الأدائية التي تتلاشى بعد الانتهاء من أدائها..

ثانيًا: تاريخ العروض المسرحية. الوثائق التي تدل على أن المسرحية تم إنتاجها بالفعل، على مسرح محدد في مكان وزمن محددين. وقد تعرض المسرحية مرة واحدة، أو تعرض مئات المرات على مسارح مختلفة، بممثلين مختلفين، ومنتجين ومخرجين مختلفين. وتوثيق هذه العروض من أصعب ما يكون، ويكتفي مؤرخو المسرح غالبا بتوثيق تاريخ العرض الأول، أو عدد ليالي العرض مجتمعة، وإذا توفرت صور فوتوغرافية للعرض فربما تكون أخذت خلال عرض واحد أو على مدار عروض عدة.

ثالثًا: التصوير الفيلمي والفيديو هو أفضل توثيق ممكن للعرض، مع الوضع في الاعتبار أن هذا التصوير لمرة عرض واحدة. ربما يتغير الممثلون، ربما يتغير الأداء، ربما يتغير الإخراج، على مدار مرات العرض، ولكن التصوير لن يستطيع أن يوثق سوى مرة عرض واحدة.

– جزء مهم من أرشيف وتاريخ المسرح هو البحث عن هذه النصوص المفقودة، ونشرها، وقد قامت هيئة المسرح التابعة للدولة قامت في وقت من الأوقات بطبع بعض هذه الأعمال لرواد المسرح المصري..

رابعًا: التوثيق الكتابي، أي الوثائق المكتوبة التي تبرهن على وجود العرض المسرحي، وأسماء صناعه، واستقباله الجماهيري والنقدي، وردود الفعل المجتمعية عليه، وتقارير الرقابة عنه، والتغيرات التي ربما طرأت عليه بمرور الوقت، كتغيير ممثل، أو مشهد، أو ديكور.. إلخ.

هذه الوثائق الكتابية لا غنى عنها فيما يتعلق بالتأريخ للمسرح على عكس الفنون الأخرى، التي يكفي وجودها لإثبات وجودها، على عكس الفنون الأدائية كما ذكرت، التي تتلاشى بعد الانتهاء من أدائها. نحن نعلم أن ممثلاً معينًا برع في أداء «هاملت» أو «الملك لير» من خلال ما كتب عن العرض في أيام كثيرة. حتى لو صوِّر العرض مرة، فليس هذا دليلاً كافيًا على براعته الدائمة، وهو ما ينقلنا للنقطة الخامسة.

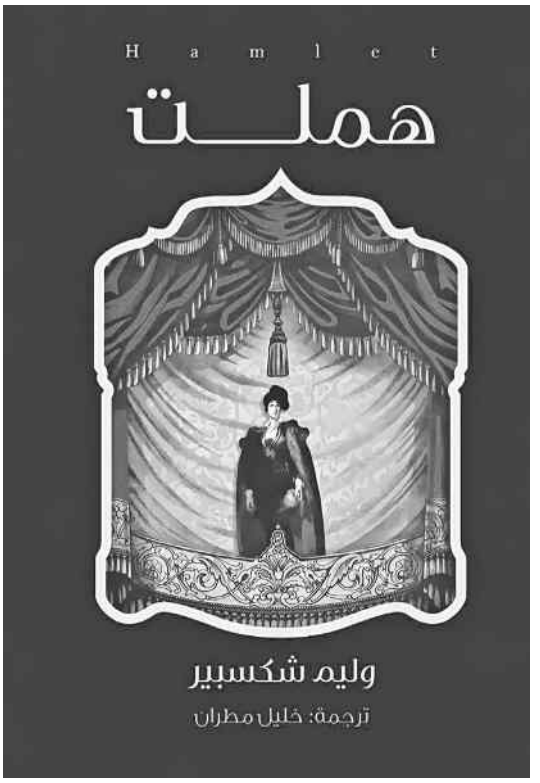

خامسًا: توثيق لردود فعل المتلقين. يحدثنا أرسطو عن رد فعل جمهور اليونان القديمة على «أوديب» سوفوكليس، ويستنتج من خلال ذلك وظيفة التراجيديا الرئيسية وهي «التطهير»، ثم يرصد ردود فعل الجمهور على مسرحيات أرسطوفانس الكوميدية ويحدد وظيفة الكوميديا. إن رصد أشكال التلقي أمر مهم في التأريخ لكل الفنون، ولكن فيما يتعلق بالمسرح فهو أمر لا غنى عنه، ولا يكتمل فهم أهمية عمل مسرحي ما، دون رصد هذا التلقي، خصوصًا وأن العروض المسرحية، كما ذكرت، غالبًا ما يجرى عليها تعديل وتطوير شكل تنفيذ النص، وأحيانًا تعديل النص نفسه، بحسب ردود أفعال الجمهور. وتلعب الصحافة الفنية بوجه خاص دورًا أساسيًّا في توفير المعلومات عن ردود الفعل في زمن العرض المسرحي والمقالات النقدية حوله، بجانب الأرقام الموثقة لعدد المشاهدين لكل مرة عرض.

سادسًا: متاحف المسرح، التي تعنى بحفظ مخطوطات النصوص ومخططات الإخراج والديكورات والملابس والأكسسوارات التاريخية الخاصة بالمسرحيات البارزة وصناعها، وبعض هذه المتاحف قد يكون مخصصًا لأعمال فنان بعينها، أو فرقة بعينها، أو فترة تاريخية محددة.. إلخ.

سابعًا: مكتبة المسرح التي تعنى بإصدار وحفظ وأرشفة المعلومات المطبوعة عن تاريخ المسرح وأعلامه والموسوعات المسرحية والكتب النقدية وذلك لتسهيل أعمال الباحثين والراغبين في الاطلاع.

أخيرًا.. موسوعة تليق بالمسرح المصري

لم أكن أتوقع أن أبدأ هذا المقال بخبر سعيد. ولكن ها أنا أختمه باالخبر الذي كنت أنوي أن أبدأ به: أخيرًا أصدرت الهيئة العامة للكتاب «موسوعة المسرح المصري المصورة»؛ للمخرج والممثل والباحث الدكتور عمرو دوارة، وهي موسوعة تتكون من سبعة عشر جزءًا، قضى دوارة أكثر من عشرين عامًا في إعدادها، وتضم قائمة تفصيلية بكل ما عثر عليه الباحث من مسرحيات عرضت في مصر خلال قرن ونصف القرن، منذ ظهور المسرح بمعناه الغربي في مصر، مرتبة ترتيبًا أبجديًّا، وكل مسرحية مزودة بمواد تفصيلية عنها بجانب كثير من الصور بمعدل ثلاث صور لكل عرض. هذه الموسوعة ظلت تبحث عن ناشر لعدة سنوات، وكان من الصعب بالطبع أن يقوم ناشر خاص بإصدارها بسبب التكلفة، ولحسن الحظ أن الهيئة العامة للكتاب انتبهت إلى هذا المرجع المهم، الأول من نوعه. على أية حال وجود هذه الموسوعة يؤكد أن الجهود الفردية لعشاق الفن والثقافة المخلصين هي التي تبقي جذوة الأمل مشتعلة، وتثبت أن كل حلم ممكن إذا توفر لتحقيقه بعض الدعم والتشجيع من الجهات الحكومية أو الخاصة التي تستطيع أن تدعم، ونحلم بأن نرى قريبًا متحفًا ضخمًا للسينما وآخر للمسرح كي ننقذ ما يمكن إنقاذه من تراثنا الفني الذي يباع يوميًّا لأفراد وجهات داخل وخارج مصر!

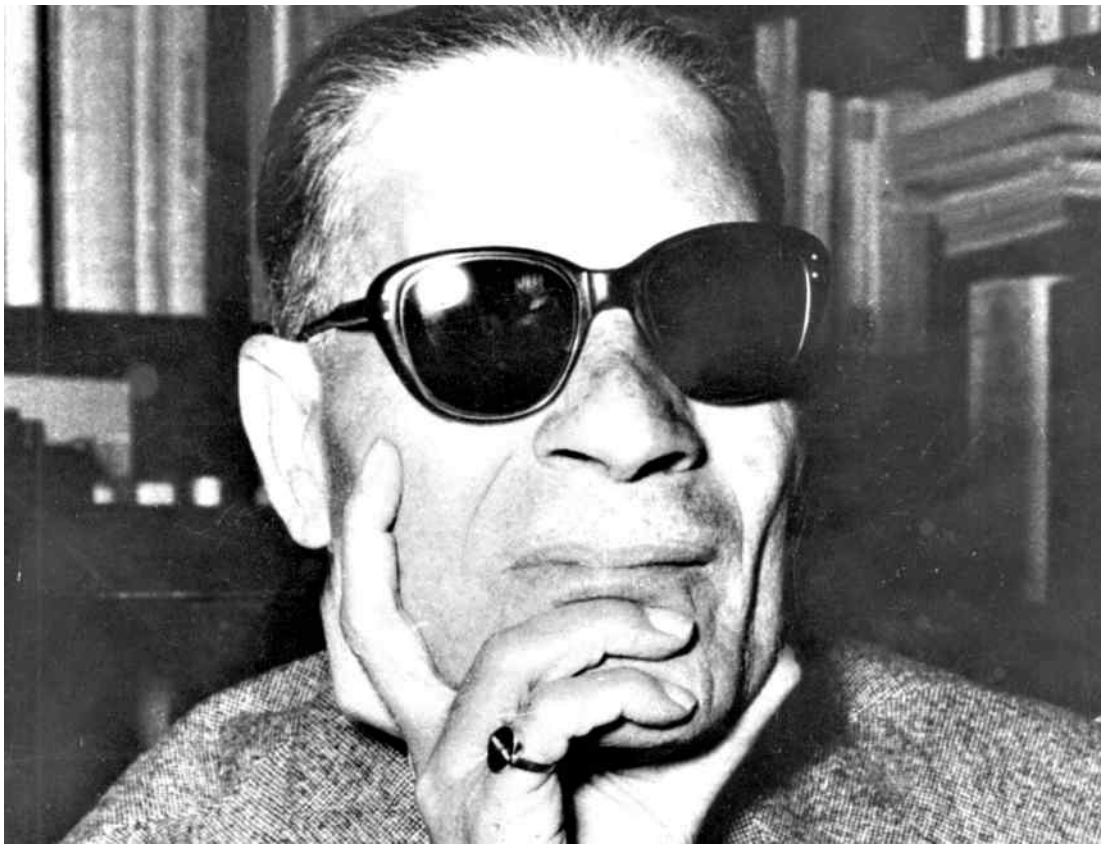

صورة العميد..

تمثيلات طه حسين في الدراما والسينما

أحمد عبد الجبار

سأحاول في هذا المقال عرض صور طه حسين المختلفة التي تظهر لنا من خلال كتاب الأيام والمسلسل المأخوذ عنه، وكيف تُقرأ هذه الصور ويتم التفاعل معها، مع التأكيد على أن كثيرًا من الصور هي في النهاية صور للشخصية؛ قد تكون معبرة عنها لكنها لا تقدم الحقيقة، وفي المقابل سنهتم أكثر بصورة أخرى لطه حسين؛ صورة الصحفي والأديب أكثر من المفكر أو المؤرخ أو الناقد.

اخترنا صورة الصحفي والأديب لأنها الصورة الأقرب للإنسان العادي، لنرى كيف اقترب طه حسين لصورة للمواطن العادي؛ مشاهد المسلسلات والأفلام، الذي قد لا يقرأ الكتب الفكرية، بل يكتفي بالروايات والصحف. لا يهتم المقال بصورة طه حسين المفكر أستاذ الأدب العربي وأستاذ التاريخ القديم والسياسي والناقد أو صاحب أزمة كتاب في الشعر الجاهلي، كما أن كل الكتب التي سنتحدث عنها روايات قدمت في أعمال فنية كمسلسلات أو أفلام ليكون الحديث متشابهًا مع كتاب الأيام ومسلسل الأيام.

في عام 1979 عرض التليفزيون المصري مسلسل الأيام عن كتاب الأيام لطه حسين، الذي نشر في عام 1929 عن الفترة من 1889 إلى 1923، ويحكي عن طفولة طه حسين حتى حصوله على الدكتوراه من فرنسا. ويهتم بالتدرج العلمي لطه حسين منذ دراسته في كُتاب بالقرية وحفظ القرآن الكريم حتى

حصوله على الدكتوراه من جامعة القاهرة، ثم حصوله على الدكتوراه من فرنسا، ومعاناته وتغلبه على الفقر والمرض والجهل. لا يتابع المسلسل الصراع الأدبي والفكري والسياسي والاتهامات التي تعرض لها بعد نشر كتابه في الشعر الجاهلي، وإن كان يشير في مشاهد النهاية من الحلقة الأخيرة إلى دور طه حسين كمثقف وعلاقته بالسلطة السياسية، كما يشير إلى أزمة رسالته للدكتوراه عن أبي العلاء المعري واتهامه بالإلحاد والكفر لولا تدخل سعد زغلول لحل الأزمة؛ فكتاب الأيام ليس قصة حياة طه حسين الكاملة، وقد ذكر طه حسين في مقدمة إحدى طبعات هذا الكتاب سنة 1954م عن سبب كتابته للأيام: "إنما أمليته لأتخلص من بعض الهموم الثقال، والخواطر المحزنة التي كثيرًا ما تعتري الناس من حين إلى حين".

اخترنا صورة الصحفي والأديب لأنها الصورة الأقرب للإنسان العادي، ولنرى كيف اقترب طه حسين لصورة للمواطن العادي؛ مشاهد المسلسلات والأفلام، الذي قد لا يقرأ الكتب الفكرية، بل يكتفي بالروايات والصحف..

بعد حصول طه حسين على الدكتوراه من فرنسا نشر سلامة موسى صورته بالزي الأزهري في مجلته، واصفًا هذا الإنجاز بالمعجزة، مقدمًا صورة مختلفة للشخص الذي استطاع أن يغيِّر الصورة القديمة للطالب الأزهري. ويمكننا أن نتخيَّل كيف تلقى الطلاب الأزهريون هذه المجلة آنذاك، وصورة زميلهم الذي كان يجلس معهم في الأزهر وقد استطاع تحقيق تلك الخطوة، لكن سلامة موسى سيختلف مع طه حسين حول تدريس الأدب القديم.

في بداية الحلقة الأولى من المسلسل يظهر صوت فاروق شوشة كراوٍ، وبكلمات طه حسين نفسها في الأيام من بصورة لطه حسين الطفل وهو يتحسس طريقه للخروج من المنزل والتعرف على العالم الخارجي، وبأسلوبه الشعري يبدأ في التعرف عليه، بعد هذا

المشهد يختفي الراوي، ليظهر في نهاية الحلقة الأخيرة ليخبرنا بأحداث ليست في كتاب الأيام، ويلخص مراحل حياة طه حسين بعد نهاية كتاب الأيام، وكيف أصبح عميدًا لكلية الآداب ومديرًا لجامعة الإسكندرية ووزيرًا للمعارف وعميدًا للأدب العربي، ويتحدث عن دوره كمثقف وعلاقته بالسلطة والسياسة دون أن يذكر أزمة كتاب في الشعر الجاهلي، حتى ننتقل لمشهد جنازة طه حسين. وهذا الجزء الذي يرويه فاروق شوشة في الحلقة الأخيرة هو صوت صنَّاع المسلسل.

الطالب والفقي

في مشهد من المسلسل عندما ينسى أهل طه حسين ابنهم الأعمى وحيدًا في محطة القطار الأخيرة ويذهبون، ليقضي ليلته بصحبة بعض العامة غلاظ القلوب وإن ادعوا التدين، الذين يصرون على أن يقرأ القرآن لهم باعتباره (فقي) أو مجرد قارئ للقرآن، لكنه يرفض ويقول إنه طالب علم، وليس القرآن للتسلية، فيجبروه على قراءة القرآن فيجيبهم مضطرًا. كان طه حسين هنا يدافع عن نفسه ضد صورته عند العامة باعتباره مجرد حافظ للقرآن بأنه طالب علم من خلال السيرة، لكن العامة يلتبس عليهم الأمر. وقد يكون المسلسل انتصر لفكرته وأعاد

تقديمه كطالب علم مجتهد ومتفوق لا مجرد حافظ للقرآن يقرأه على المقابر.

ونستطيع أن نقسم الأعمال الفنية التي قدمت معالجة لكتبه إلى ثلاثة أنواع: أعمال دينية؛ كفيلم ظهور الإسلام 1953 عن كتابه الوعد الحق، الذي أعيد تقديم مسلسل بالعنوان نفسه في 1993، أو مسلسل على هامش السيرة؛ أو أعمال درامية عن قصص حب، مثل فيلمي دعاء الكروان والحب الضائع؛ وأعمال عن قصة حياته مثل مسلسل الأيام ومسلسل أديب عن رواية أديب، أو فيلم قاهر الظلام، وسهرة تليفزيونية بعنوان "خديجة" عن قصة بالعنوان نفسه من مجموعة المعذبون في الأرض. وقد يؤكد المشاهد الذي رأى هذه الأعمال أن طه حسين كاتب في التاريخ الإسلامي، ويؤكد المشاهد لمسلسل الأيام أنه شخص كافح من أجل التعليم، ويؤكد المشاهد لفيلمي الحب الضائع ودعاء الكروان أنه كاتب لقصص الحب، وهناك من لم يقرأ كتبًا لطه حسين ولم يشاهد أي منتج فني سواء فيلم أو مسلسل، واستمع إلى حوارته، وسمع عن كتاب في الشعر الجاهلي وقال إنه كافر؛ كما كان مدرس اللغة العربية الذي كان يدرسني يقول!

"الأيام ليس قصة حياة طه حسين الكاملة، وقد ذكر في مقدمة إحدى طبعات هذا الكتاب سنة ١٩٥٤: "إنما أمليته لأتخلص من بعض الهموم الثقال، والخواطر المحزنة التي كثيرًا ما تعتري الناس..

دعاء الكروان

تتميز آمنة عن هنادي أنها تعلمت، ليس تعليمًا نظاميًا، ولكنها رافقت خديجة ابنة المأمور في حضور دروسها، وحاولت وتعلمت بالتبعية وحاولت أن تقلد أبناء المدينة في طريقة كلامهم وتناولهم للطعام أنها رغبت عن غلظة البداوة لشيء من التحضر، وأنها ليست مجرد فتاة عادية جميلة، أو غير جميلة، لكن ما ميزها عن هنادي شيء من التعليم ومن الحضارة المدينة المشؤومة، أو الموبوءة كما تسميها الأم زُهرة، هي المدينة التي نكبت ابنتها، لكنها في الوقت نفسه

المدينة التي آوتهم ووجدوا فيها شيئًا من الأمن والحياة المقبولة بعد أن طردهم أهلهم، وهي المدينة التي يسكنها مهندس الري. قد تكون المدينة هنا صورة للعالم الحديث ولانتقال الريفيات من مكان بدائي إلى مكان حديث لكي نرى نوع التطور الذي يطرأ عليهم، وهن لسن فلاحات حتى بل بدويات من أطراف القرى.

قد تكون آمنة في فيلم دعاء الكروان هي الممثلة للعلاقة الإنسانية والروحية وليست الفكرية بين طه حسين ومجتمعه.. ما الذي يفرق آمنة عن هنادي؟ كانت هنادي موضوعًا لرغبة المهندس، لكن آمنة كانت ذاتًا في مقابل ذات أخرى، وهو ما جعلها تتحول من مجرد موضوع للرغبة إلى موضوع للحب؛ وكأنه يقدم لمجتمعه الرجعي الفرصة كي يتقدم فقط لو آمن بقيمة الحب التي جعلت آمنة تنضج وتهمل العنف لصالح الحب، وأنه من خلال إيمانه بقيمة الحب أو الفهم حوَّل المغتصب إلى طرف في علاقة إنسانية. تبدو شخصية آمنة في فيلم دعاء الكروان شبيهة بشهرزاد؛ فتؤجل قتل مهندس الري كل ليلة بحكاية الحب، أو تشبه شهريار أكثر لأنها تريد قتله لخيانته حب أختها له، ومهندس الري يريد جسدها ليغتصبه، وهي كشهريار تريد قتله، ويتقدم الحب كقيمة

إنسانية ليؤجل الصراع البدائي بين الجسدين، فمهندس الري ممثل للحداثة أو الاستعمار بتأويل مفرط، وآمنة البدائية تحمل فكرة التنوير في الفيلم، وتتحمل مسؤوليته عندما ترقى وتتعالى عن الانتقام.

وفي مقابل بطل فيلم قنديل أم هاشم؛ الطبيب الذي يستطيع التوفيق بين العلم والدين، تستمر آمنة في تنوير نفسها كجسد للحداثة، لا فكرة عنها، ضد طلبها للثأر كقيمة بالية. وهنا تبدو شخصية آمنة المقابل النفسي لشخصية طه حسين، عندما أراد أن يفكر أن المجتمع قد يقبل قيم الحداثة، فقتل آمنة كحذف أفكاره في كتابه "في الشعر الجاهلي".

عُرض مسلسل أديب في 1982، وتوجد إشارات كثيرة لشخصية أديب في كتاب الأيام قد نستطيع أن نجعلها مقدمة لمعرفتنا بأديب قبل أن نتعرف عليه في الرواية. يشير طه حسين في كتاب الأيام إلى أصدقاء أخوته الأكبر المطربشين الذين يرتادون المدارس العادية لا الأزهر، ونعرف في رواية أديب أن شخصية أديب كانت لواحد من المطربشين صديق لأخوته الأكبر، وكان يقضي معهم إجازة الصيف في النقاش والقراءة، وعلى الرغم من أن كتاب الأيام لا يتحدث عن صداقة أديب وطه حسين في القاهرة، هذه الصداقة التي عرضت بالتفصيل في رواية أديب، فإننا نجد في كتاب الأيام إشارتين إلى أديب؛ الأولى لذلك الصديق الذي قدم لامتحان الليسانس مع طه حسين وصبري السوربوني؛ الثلاثي الذين أعاقهم امتحان اللغة اللاتينية، فينجح طه حسين ويفشل صبري السوربوني الذي سيصبح المؤرخ المعروف فيما بعد، ثم ينجح في النهاية، لكن الصديق الثالث يفشل، ويصيبه الجنون، وهو ما يشبه حالة أديب في الرواية.

بعد حصول طه حسين على الدكتوراه من فرنسا نشر سلامة موسى صورته بالزي الأزهري في مجلته، واصفًا هذا الإنجاز بالمعجزة، مقدمًا صورة مختلفة للشخص الذي استطاع أن يغيِّر الصورة القديمة للأزهري..

وفي كتاب الأيام عندما يحكي طه حسين عن رعايته لصديق مريض أصابه مرض عصبي، من الممكن أن يكون هو أديب نفسه. قد يكون صناع مسلسل أديب قد استفادوا من بعض التفاصيل في كتاب الأيام للتعرف على شخصية أديب من خلال حكى طه حسين عنه في الأيام بشكل

مقتضب قبل أن يبسط الحكي عنه في رواية أديب.

"طه" و"أديب"

نستطيع أن نشاهد مسلسل أديب من خلال حياة طه حسين نفسه كتأويل آخر لمسيرته كأديب. في حوار معه قال طه حسين إن أمنيته أن يكون أديبًا يسمع الناس لكلامه، وفي مسلسل أديب نرى صراع البطل بين باريس بلاد الجن والملائكة والأديب المشوه الوجه، وبين سفره في بعثة وتخليه عن الفتاة البسيطة التي أحبها، ما الأهم؛ الحب أم العلم والثقافة؟ الارتباط بفتاة من الوطن أم البعثة؟ يظهر مفهوم الحب أيضًا والارتباط بالأرض ليتصارع مع فكرة الثقافة هنا لكن بشكل مختلف؛ إذ يبدو الحب هو المحرك للارتباط بالأرض والمكان القديم والفتاة ابنة الوطن مقابل الثقافة والتعليم. فهل كان طه حسين هنا يقدم صورة مختلفة، ليست عن علاقة الشرق بالغرب أو المثقف الشرقي بالحضارة الغربية، صورة أخرى مقابلة لصورة هنادي وارتباطها بالماضي. يبدو أديب أو إبراهيم عبد الله هنا مضحيًا بالماضي والمكان القديم والحب بطلاقه من حميدة التي أحبها وتخلى عنها من أجل البعثة. وتبدو شخصية هنادي وأديب بتأويل مفرط صورة من صور طه حسين نفسه من خلال الأدب، شخصيات درامية. الصراع الأساسي الذي تواجهه هذه الشخصيات هو العالم الجديد الذي تنتمي له بعلاقة الحب والثقافة والعمل والمعرفة في مقابل الماضي والتخلي عنه.

توجد الكثير من السمات المشتركة بين أديب وطه حسين؛ فكلاهما من نفس القرية، ودرسا في جامعة القاهرة، وسافرا إلى فرنسا للدراسة في السوربون. لكن توجد بعض الاختلافات: فطه حسين من أسرة فقيرة وأديب من أسرة غنية، وبينما تعلم أديب وطه حسين في نفس الكتاب، درس أديب في مدارس عادية ولم يدرس في الأزهر مثل طه حسين.

في دراسته من الكُتاب إلى الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم السوربون ينتمي طه حسين في جزء كبير من ثقافته إلى الأزهر، بينما تبدو ثقافة أديب أكثر حرية، وبينما كتابة المقالات مع ما تتطلبه من جهد وتنظيم عكس فكرة الإبداع الحر في كتابة النثر أو الشعر، يبدو أديب أكثر ارتباطًا بالحياة من طه حسين الذي عانى شظفها. ومن النقاط المهمة عندما نتابع قصة حياة طه حسين في الأيام أنه عندما كان في باريس، باستثناء حبه لزوجته الفرنسية، لم يرد ذكر من ارتباطه بالواقع الثقافي الفرنسي آنذاك غير الجامعة والدروس. على عكس أديب الذي يجلس في مقاهي الأدباء ويزور المتاحف والمسارح وحتى الغابات على أطراف المدينة، ويحب ويقع في الرذيلة. بطل أديب أكثر درامية بداية من البعثة، والتضحية بحبه وزواجه، وشعوره بعقدة الذنب والألم. كبطل إغريقي يسقط بسبب تفوقه.

لكننا لا نكتفي فقط بالصورة التي يقدمها طه حسين عن نفسه هنا في أديب، بل نريد رؤية أن صورة صديق أديب هي صورة أخرى لطه حسين، نحاول أن نفهم طه حسين من خلالها؛ الصورة المحتملة له التي لم يحققها. ولو اعتبرنا باريس بلاد الجن والملائكة في أديب، كما أن المدينة في دعاء الكروان المشؤومة أو الملعونة المدينة الحديثة مقارنة بالبادية وبلدتهم "بني وركان" أو "بين الوركين" كما ينطقونها بلهجتهم، هي المقابل لباريس لاستطعنا قبول تشابه آمنة مع طه حسين وهنادي مع أديب.

كان العميد يدافع عن نفسه ضد صورته باعتباره مجرد حافظ للقرآن بأنه طالب علم، لكن العامة يلتبس عليهم الأمر. وقد يكون المسلسل انتصر لفكرته وأعاد تقديمه كطالب علم مجتهد متفوق..

العميد في الروايات

نشر طه حسين مقالات في صحيفتين مختلفتين في أثناء دراسته في الأزهر. إحداهما كانت تسمح بالهجوم على شيوخ الأزهر؛ وهي صحيفة الحزب الوطني ويرأس تحريرها عبد العزيز جاويش، والأخرى صحيفة حزب الأمة، ويرأس تحريرها أحمد لطفي السيد. كان طه صحفيًا شابًا حرًا وشارك في تحرير مجلة الهداية تحت إشراف عبد العزيز جاويش، وأنشأ بعد ذلك مجلة الكاتب المصري، واشترى ترخيص مجلة الوادي، ورأس تحرير صحيفة الجمهورية 1959.

توجد صلة بين شخصية يوسف في رواية ومسلسل زينب والعرش وشخصية طه حسين كما تقدمها رواية الأيام أو المسلسل، إذ عملت الشخصيتان بالصحافة في شبابهما. توجد أيضًا صلة بين شخصية طه حسين ورواية زينب والعرش؛ ففي إشارة رواية زينب والعرش لشخصية الكاتب الكبير، قد يكون هذا الكاتب هو العقاد أو طه حسين نفسه، وينتقد محمود مرسي في المسلسل، أو عبد الهادي النجار في الرواية، ذلك الكاتب الكبير وعالمه القديم، الذي كان مجبرًا على نشر مقالاته التي عفا عليها الزمن، وكأنها جزء من التاريخ تجاوزته اللحظة الراهنة. كانت الصورة أو النموذج الذي قدمه طه حسين في الحقيقة يتعرض للهجوم والتجاوز. والثابت أنه حدثت بعض المعارك الأدبية بين طه حسين الذي عمل رئيسًا لتحرير صحيفة الجمهورية وفتحي غانم الذي عمل في نفس الصحيفة.

اهتمت الرواية ومسلسل الأيام أكثر بالرحلة العلمية والمعاناة الشخصية للمثقف القديم، بينما تتحول الصورة في مسلسل زينب والعرش، والذي أنتج عام 1980 ليقدم صورة المثقف الخاضع للسلطة، وفي الوقت نفسه يحاول إظهار مساوئ العهد الناصري الذي تعيش فيه الشخصيات تحت سيطرة الرقابة، ويتحول المثقف من مثقف حر إلى خاضع لسلطة الرقيب وسلطة الإدارة الصحفية.

وشخصية طه حسين بعيدة عن المتع والشهوات؛ فهو طالب علم مجتهد ويبدو العالم مغلقًا في وجهه، فلا تمنحه الحياة الفرص للاستمتاع، لكن هذا لا يمنعه من الدخول في الصراعات الفكرية والسياسية، بين مناطحة شيوخ الأزهر والكتابة في الصحف ضدهم، رغم خطورة ذلك على مستقبله العلمي كطالب في الأزهر يطمح في الحصول على شهادة العالمية، في مقابل شخصية يوسف التي تمنحها الحياة الفرص رغم وجود الرقيب الذي يشكل وجوده جزءًا من وجود يوسف في العالم كصحفي في صحيفة تتبع مؤسسة الدولة. وتبدو صورة الأب طه حسين في الأيام أو المثقف القديم أكثر قوة وجرأة مقارنة بصورة يوسف بطل زينب والعرش.

في رواية ميرامار والفيلم أيضًا نجد شخصية عامر وجدي؛ الصحفي القديم الذي تجاوزته ثورة 52، يتشابه عامر وجدي مع طه حسين في كثير من الملامح؛ فكلاهما تخرَّج في الأزهر وعمل بالصحافة واتُهم بالإلحاد. شخصية عامر وجدي في الرواية والفيلم تبدو أقرب إلى شخصية الأب المراقب غير الفاعل، قد يحب بعض أبناء العالم الجديد ويعتبرهم أبناءه؛ كزُهرة الفتاة الريفية، أو منصور باهي الشاب المثقف، لكنه لا يستطيع مساعدتهما في العالم الجديد، وقد تتشابه قراءته للقرآن ولسورة الرحمن مع عودة طه حسين للكتابة عن الإسلام.

تبدو شخصية آمنة المقابل النفسي لشخصية طه حسين، عندما أراد أن يفكر أن المجتمع قد يقبل قيم الحداثة، فقتل آمنة مثلما حذف أفكاره في كتابه "في الشعر الجاهلي"..

قد تكون هذه صورة طه حسين الذي هاجمه فتحي غانم في الصحافة، كما هاجمه صالح مرسي في حوار تليفزيوني، وقد تكون هذه هي صورته الخيالية كما قدمها فتحي غانم في رواية زينب والعرش، وقد تكون هذه صورته عند نجيب محفوظ؛ طه حسين مدح نجيب محفوظ في الحقيقة، ولم يهاجمه نجيب محفوظ في الحقيقة، لكن تشابه صورته مع عامر وجدي تحمل إدانة ما لصورة طه حسين كمثقف قديم في العصر الحديث أو في مصر بعد ثورة 52.

الحفلة في سينما وحيد حامد

الصغـــار يسرقون الأضواء في مجتمع الكبار

ماجد وهيب

كما يحلم السجين بلحظة ينعم فيها بالحرية، كذلك يحلم المهمش بلحظة يكون فيها بطلاً. فالذي عاش في الظل يريد أن تنعم عليه الحياة بلحظة يسرق فيها الأضواء، يلفت فيها الأنظار، ربما يتحقق الحلم يومًا، وربما يظل طيلة العمر على الهامش، لكن ثمة أناس يهديهم القدر لحظات، دون توقع منهم، أو دون أن يطلبوا، يكونون فيها أبطالاً ويسرقون الأضواء، ليس من مهمشين مثلهم بل من أناس عاشوا طيلة حياتهم في الضوء، بمعنى أدق إنها اللحظات التي يسرق فيها الصغار الضوء من الكبار داخل مجتمعهم، مجتمع الكبار، وكأنهم يغزونهم أو يتفوقون عليهم في عقر دارهم. في كثير من أفلامه أهدى وحيد حامد أبطاله المهمشين لحظات سرقوا فيها الأضواء داخل مجتمعات غير مجتمعاتهم، مجتمعات للكبار يدخلونهما مضطرين أو بمجهودهم أو بمصادفة، وتتباين أفعالهم التي يسرقون بها هذه الأضواء، فمنهم من ينالها بفعل إيجابي يقوم به، وآخر ينالها بفعل سلبي، لكن جميعهم يفعلون ذلك في مكان واحد وهو الحفلة، ومنهم من لا يسرق الأضواء فقط بل يخلخل هذا المجتمع في لحظة.. مجتمع الحفلة.

في فيلم "المنسي" يمكن اعتبار الحفلة بطلاً من أبطال السيناريو، بل هي الفعل الذي تتحرك منه الأحداث وتقوم عليه الدراما ككل. رجل أعمال يقيم حفلة لأصدقائه ومعارفه من كبار رجال البلد ويختارهم بعناية فائقة. بطل الفيلم، المنسي، مجرد مواطن فقير يعمل في السكة الحديد، هو مهمش في المجتمع الذي يعيش فيه، وإذا نظرنا إلى الحفلة كصورة مصغرة من المجتمع ككل، فمن المنطقي ألا يكون لهذا المهمش أي مكان فيها؛ هنا الحفلة هي مجتمع للكبار والمنسي ليس إلا واحد من الصغار، لهذا فهو فقط يرى سيارات وهي تصطف أمام الفيلا ويدور حوار مقتضب بينه وبين الحارس سائلاً عما يدور في هذه الفيلا، ثم يرى أنوار الألعاب النارية في السماء وهو في مكان شغله فيعرف أنها من الحفلة. إن علاقته بمجتمع الحفلة هنا مثل علاقته بالمجتمع ككل، كأنه يعيش خارجه، يشاهد مباهجه فقط ولا يشارك فيها أو ينعم بها، هذا نفسه ما سيقوله "حتى شقاوة الشبان القطر بتاعها يعدي عليا من غير ما يهدي"، ثم في لحظة، يدفعه إليها القدر دون أي تخطيط منه، يصبح أهم شخص في الحفلة، عندما يدخل لينقذ السكرتيرة ويقف على رأس الضيف ذي الشأن الكبير وفي يده ولاعة وكبسولات مهددًا بقتل الضيف. يدفعه الثأر لكرامته وكرامة من احتمت به هو الذي لمثل هذا الفعل وأخذ هذا الدور المهم، اللافت للأنظار، في حفلة لا مكان له فيها. في المقابل مثل هذا الدافع، الثأر للكرامة، هو الذي قد يجعل من المنسي مشاركًا أيضًا في المجتمع، مشاركًا حقيقيًّا ولو للحظة. السكرتيرة نفسها يمكن النظر إليها، في مجتمع الحفلة، على أنها دخيلة عليه، وسوف يذكرها مديرها بهذا عندما تعصى أوامره، لكن هي أيضًا ستتقاسم البطولة مع المنسي عندما يدخل لينقذها، هي أيضًا ستلفت الأضواء، بل من الممكن القول إنها هي التي سرقت الأضواء منذ البداية عندما نالت وحدها إعجاب الضيف المهم، في هذه اللحظة آلت لها البطولة، على الرغم من أنها، حسب وجهة نظر صاحب الحفل، ليست من هذا المجتمع وإن دخلته فبفضله هو لا بفضلها، هكذا يمكن النظر إليها هي أيضًا كواحدة من المهمشين مثل المنسي، لكن طبعًا ليس بنفس القدر.

كذلك يوجد مهمش آخر في مجتمع الحفلة سيصير في لحظة بطلاً ويسرق الأضواء، وهو الوزير السابق، أحد المدعوين، لكنه فقد مكانته لدى صاحب الحفل، فلم يدعه حتى، بل دعته السكرتيرة على ضمانتها، وعندما سيرمي الولاعة للمنسي وينقذه ستلتفت إليه الأنظار، وهو الذي قبل سابق لم يلتفت إليه أحد طيلة الحفل، هذا الوزير، على الرغم من أنه في الحقيقة ليس مهمشًا بقدر تهميش المنسي ولا بقدر السكرتيرة، فإن إحساسه بأنه مهمش قد يكون أكبر من إحساسهما، فبعدما جرب السلطة والنفوذ ووقوف الكثيرين على مكتبه لم يعد أحد يهتم به، اعتياده على أن يكون تحت الضوء سيجعل شعوره بالتهميش يزداد فور ابتعاد الضوء عنه. وإذا كان المنسي فعل ما فعله انتقامًا لكرامته، فالوزير أيضًا فعل ما فعله انتقامًا لتجاهل صاحب الحفل وكل المدعوين له.

في فيلم "اضحك الصورة تطلع حلوة" ثمة حفلة أيضًا، يدخلها بطل الفيلم كواحد من القائمين على خدمة الضيوف ليس إلا، الدور الذي يقوم به سيد غريب، البطل، في المجتمع ككل، هو نفسه الدور الذي سيقوم به في مجتمع الحفلة، ودوره هو تصوير الضيوف، لكن هو أيضًا، مثل المنسي، يصبح بطل الحفل في لحظة من اللحظات. رجل الأعمال الذي يقيم الحفل يرمي مفتاح سيارة في حمام السباحة ومن ينجح في التقاط المفتاح من الماء تكون السيارة من نصيبه. ينزل سيد غريب مثل كثيرين إلى حمام السباحة لالتقاط المفتاح والفوز بالسيارة، ينجح في ذلك فيصير هو البطل في هذه اللحظة، لكن صاحب الحفل يرفض إعطائه السيارة بحجة أنه ليس من المعازيم، ليس من هذا المجتمع، مجتمع الحفلة.

وعلى الرغم من نجاح سيد غريب في التقاط المفتاح دون غيره إلا أن القائم على الحفل، صاحب السلطة، يستكثر عليه الجائزة، بالضبط كما يستكثر عليه المجتمع الخارجي، الذي يعيش سيد غريب فيه على الهامش، أي نجاح قد يحققه، وربما يستكثر عليه حتى دخول ابنته كلية الطب وارتباطها بشاب غني. صاحب الحفل هنا يمارس عليه نفس الضغط الذي يمارسه عليه المجتمع ككل. في الفيلم نفسه ثمة حفلة أخرى ليس لسيد غريب مكان فيها، حفل زفاف ابن رجل أعمال والضيوف جميعهم من كبارات البلد، لكن، وكما حدث في الحفلة السابقة، تأتي لحظة يصير سيد غريب فيها هو نجم الحفل، أو بمعنى أدق يلفت الأنظار إليه بفعلة ما، وهي اللحظة التي يصفع فيها العريس على وجهه. هنا يصير سيد غريب بطلاً أيضًا، وهو يفعل ذلك انتقامًا لكرامته وكرامة ابنته، والانتقام للكرامة هو نفسه الباعث عند المنسي، ويتفق سيد غريب معه أيضًا في كونه يدخل مجتمعًا للكبار ويلفت فيه الأنظار.

في كثير من أفلامه أهدى وحيد حامد أبطاله المهمشين لحظات سرقوا فيها الأضواء داخل مجتمعات غير مجتمعاتهم، مجتمعات للكبار يدخلونهما مضطرين أو بمجهودهم أو بمصادفة..

في فيلم طيور الظلام يقيم رجل ذو شأن ومكانة كبيرة حفلة بمناسبة حصوله على البراءة في قضية ما. الضيوف جميعهم من الكبار، فليس لمحامي أرياف مغمور مكان فيها، لكن هذا المحامي المغمور، الذي لا مكان له وسط هذا المجتمع الراقي، هو بطل الحفلة ونجمها المجهول من الجميع إلا واحد فقط، فبفضل عبقريته في إيجاد ثغرة في القضية عجز المحامي الشهير عن الوصول إليها، حصل الرجل على البراءة، ولولاه لما كانت الحفلة، وما كان أحد من الضيوف، ولا حتى الذي أقامها، هنا الآن. لكن فتحي نوفل غير سيد غريب وغير المنسي، فهو يدخل الحفلة بدعوة، أي أنه قد وجد مكانًا له في الحفل، في هذا المجتمع، حتى لو كان مكانًا صغيرًا للغاية، بمعنى أدق خدمته المصادفة وأتاحت له الفرصة، وبذكائه استغلها واستطاع أن يجد لنفسه هذا المكان الصغير، وهو يختلف عن المنسي وسيد غريب في كونه لن يقوم بفعل ما يسرق به الأضواء، الحقيقة أنه يسرق الأضواء بطريقة أخرى. هذا المهمش، فتحي نوفل، هو الوحيد في هذه الحفلة، على الرغم من كل الكبار الموجودين فيها، الذي يستطيع أن ينفذ الوزير ويجد له طريقة يكسب بها الانتخابات "دا عبقري"، سيقولها المحامي الشهير عنه. ألا يعتبر هذا لفتًا للأنظار بطريقة أخرى؟ وهو يختلف عن المنسي وسيد غريب أيضًا في كونه سيجد في الحفلة فرصة عمره التي ستغير حياته إلى الأبد، وسيصبح هو نفسه بعد ذلك من الكبار، وربما في يوم ما يقيم هو نفسه حفلة كهذه ويدعو إليها الكبار.

في فيلم الراقصة والسياسي ثمة حفلة أيضًا تقام للكبار. وبنظرة سريعة سنقول إن سونيا سليم، الراقصة التي تحيي الحفل، لا تدخل الحفلة مهمشة كالمنسي وسيد غريب وفتحي نوفل، ولكن بنظرة متأنية سنجد أنها لا تختلف كثيرًا عنهم، فهي في نظر الهوانم، اللواتي جلسن على المائدة يشاهدن رقصها، ليست إلا وسيلة للترفيه، أي أنهن لا ينظرن إليها كواحدة من هذا المجتمع الراقي، مجتمع الحفلة، ولهذا عندما يغيظهن رقصها يطلبن من أحد الرجال أن يدعوها للمائدة ليسخرن منها. هذه النظرة لسونيا سليم كواحدة ليست من هذا المجتمع، تنعكس عليها في المجتمع الخارجي أيضًا، فتقف السلطات أمامها في بناء ملجأ للأطفال، صحيح أن لديها المال والشهرة لكن هذا لا يكفي لتكون من كبار المجتمع. وسونيا سليم، في الحفلة، تتشابه مع سيد غريب والمنسي في كونها، على الرغم من نظر البعض إليها على أنها ليست من هذا المجتمع، إلا أنها تسرق الأضواء وتلفت الأنظار في وصلة رقصها، بالضبط كما فعل المنسي وكما فعل سيد غريب. ستسرق الأضواء من النساء، الكبيرات مقامًا والعضوات في

"في "المنسي"، الحفلة بطل من أبطال السيناريو، بل هي الفعل الذي تتحرك منه الأحداث وتقوم عليه الدراما.

في "عمارة يعقوبيان" ثمة حفل أيضًا؛ حفل زفاف زكي باشا وبثينة. هنا أيضًا يمكن النظر للحفل على أنه مجتمع للكبار لا مكان فيه لفتاة مثل بثينة..

مجتمع الكبار هذا، بتحديق عيون كل الرجال الحاضرين فيها وإعجابهم برقصها.

في اللعب مع الكبار لدينا بطل يتحايل ليطعم نفسه بوجبة شهية، فيدخل حفلات الزفاف في كبار الفنادق متأنقًا. حسن أيضًا بطل فقير مهمش لا مكان له في مثل هذه الحفلات التي تقام في هذه الفنادق الفخمة، ويستحيل أن يدخلها كضيف مدعو بالاسم، فليس من معارفه من تسمح له ظروفه أن يقيم حفل زفافه في مثل هذه الفنادق، وهكذا فهو يتشابه مع كل الأبطال السابقين في كونه لا مكان له في هذا المجتمع الراقي، مجتمع الحفلة التي يدخلها. وهو، في الحفلة الوحيدة التي عرضها علينا المؤلف، يتفق أيضًا مع الأبطال السابقين في كونه يسرق الأنظار مثلهم ويصير هو البطل ولو للحظة، ففي الحفلة يقف على البوفيه ويتحكم فيه حتى أنه يمنع كل الضيوف من الأكل حتى ينتهي هو، إنها حيلة كوميدية ظريفة لكنها أدت وظيفتها في أنها جعلته يسرق الأنظار وسط هذا المجتمع الذي لا مكان له فيه مثلما سرقها سيد غريب والمنسي وسونيا سليم وفتحي نوفل.

في فيلم "محامي خلع" ثمة حفلة أيضًا تقيمها سيدة احتفالاً بخلعها، البطل هنا مختلف، فهو يدخل الحفلة كواحد من الشخصيات المرموقة، لكنه مثل السابقين في كونه غريبًا عن هذا المجتمع، عنه بريفيته وعاداته وتقاليده المختلفة عن عادات هذا المجتمع. هو أيضًا ليس منه، لكن يدخل بمكانة مرموقة، فهو على خلاف بطل طيور الظلام معروف للجميع بأنه صاحب الفضل في القضية، فلم يعمل فيها من الباطن كما عمل فتحي نوفل في قضيته، وفي اللحظة التي تعلن فيها السيدة التي أقامت الحفل عن أن الحفل على شرف المحامي الذي كسب لها القضية وتذكر اسمه وتقدمه لكل الضيوف، يكون بطلاً ونجمًا للحفل ويلفت الانتباه والأنظار، هذا المحامي، ذو الأصول الريفية، الغريب عن هذا المجتمع بنمطه وأسلوب حياته، سيسرق الأضواء من الرجال المدعوين في الحفلة، المنتمين لهذا المجتمع.

في فيلم قط وفار، وهو آخر ما كتب وحيد حامد للسينما، تقوم الأحداث أيضًا على حفلة، وهي حفلة خطوبة بنت وزير الداخلية، أي أنها، مثل بقية الحفلات، حفلة للكبار، وللوزير قريبة من بعيد، من الفرع الفقير في العائلة، وهكذا تكون هي أيضًا من المهمشين ولا مكان لها في هذه الحفلة، لكنها تدعى فقط قبل بدء الحفلة لتزغرد وتنعنش الجو، ثم تموت وهي ترقص. تخطف الأضواء وتصير هي البطلة ولكن بموتها، لا فعل بطولي تقوم به، لكن موتها ستقوم عليه الدراما كلها، وبعدما كان الوزير لا يهتم إلا بترتيبات الحفل ولا يعير قريبته أي اهتمام، لفتت بموتها أنظاره، رغمًا عنه، وشغلته عن كل شيء آخر.

في "عمارة يعقوبيان" ثمة حفل أيضًا ينتهي به الفيلم، حفل زفاف زكي باشا وبثينة. هنا أيضًا يمكن النظر إلى الحفلة على أنه مجتمع للكبار لا مكان فيه لفتاة مثل بثينة، الفقيرة المهمشة، الساكنة فوق السطوح، لكن، وكما جرى في كل النماذج السابقة، بثينة الفقيرة هي نجمة الحفل وهي التي تسرق فيه الأضواء، لأنها هي العروس، وأهلها، الفقراء سكان السطوح، هم أيضًا نجوم للحفل، لأنهم أقارب العروس، مع أنهم غرباء عن هذا المجتمع وليسوا منه.

كل هذه الحفلات هي حفلات للكبار، ويمكن أن نتخيل لها، سواء تلك المقامة في البيوت أو الأخرى التي في الفنادق الكبيرة، ديكورًا واحدًا من الداخل، وملابس واحدة وموائد طعام واحدة. وجميعها يدخلونها المهمشون ويسرقون فيها الأضواء وتصيبهم بتغيير، ولو كان بسيطًا ومؤقتًا، فالمنسي يدخل الحفل مهزومًا شاعرًا بجرح في كرامته ويخرج منتصرًا ثائرًا لنفسه. سيد غريب، في الحفلة الثانية، يدخل مقهورًا على ابنته ويخرج راضيًا مفرغًا غضبه. فتحي نوفل يدخل محاميًا مغمورًا ويخرج فائزًا بفرصة العمر. حسن بهلول يدخل الحفلة جائعًا محرومًا من الأكل الشهي ويخرج شبعانًا متذوقًا لأشهى الوجبات. سونيا سليم هي أيضًا أصابتها الحفلة بتغيير، وإن كانت أقلهم، صحيح أنها دخلت كراقصة وخرجت كراقصة، لكن بالحوار الذي دار بينها وبين الهوانم اللواتي أردن السخرية منها وانتصرت هي فيه عليهن، تكون قد خرجت منتصرة. وبدر في "محامي خلع" يدخل الحفل كمحامي مدعو لحفلة تقيمها سيدة كسب لها قضية خلع، ويخرج مزهوًا بنفسه شاعرًا بأنه كسب حبها، أو خطى الخطوة الأولى في الطريق إلى ذلك وتقرب منها أكثر. وفي قط وفار، على الرغم من أن المهمشة ستموت في الحفلة، فإن موتها في هذه الحفلة سيجعل كبار البلد ينعونها في الصحف ويحضرون عزاءها، ألا تعتبر الحفلة هكذا قد أصابتها بتغيير حتى ولو كان بعد موتها؟ وبثينة في عمارة يعقوبيان يصيبها الحفل بأكبر تغيير، فبزواجها من زكي باشا لم تعد بثينة المهمشة ساكنة السطوح.

"في فيلم" قط وفار"، آخر ما كتب وحيد حامد تقوم الأحداث أيضًا على حفلة، وهي حفلة خطوبة بنت وزير الداخلية، أي أنها، مثل بقية الحفلات، حفلة للكبار..

إن كل هؤلاء الأبطال يمكن لهم أن يلتقوا جميعًا في أي حفلة من هذه الحفلات، على سبيل المثال فالحفلة التي كان فيها المنسي يمكن أن يدخلها سيد غريب كمصور، وتظهر سونيا سليم كراقصة تحي الحفل، أو كنجمة من نجمات المجتمع مدعوة بصفتها الراقصة الشهيرة، وقد

يدخلها فتحي نوفل بعدما صار من الكبار، وفي حفل زفاف ابن رجل الأعمال في فيلم "اضحك الصورة تطلع حلوة" يمكن أن نجد حسن بطل اللعب مع الكبار متأنقًا في ملبسه ودخل ليأكل، وستحي سونيا سليم الحفل ويظهر فتحي نوفل كواحد من المدعوين، وهكذا ستكون الحفلات هنا صورة مصغرة من المجتمع بالفعل، يمكن لكل الشخصيات أن تلتقي فيها كما يمكن لهم أن يلتقوا في المجتمع ككل.

أخيرًا تبقى الحفلة في فيلم دم الغزال، وقد فضلت أن أذكرها في الخاتمة لطبيعتها الخاصة، فالحفلة في هذا الفيلم هي أصلاً مجتمع للمهمشين وليست حفلة للكبار. حفل زواج في منطقة شعبية، وهنا الديكور مختلف، والمكان والمعازيم كذلك، إنها نقيض حفل الزفاف في "اضحك الصورة تطلع حلوة" وهكذا هي الحفلة التي من المكن أن يدخلها سيد غريب كواحد من المعازيم، أو يدخلها المنسي، أو بدر، أو فتحي نوفل عندما كان لا يزال محامي أرياف مغمور ليس إلا، أو تدخلها سونيا سليم قبل أن تصبح راقصة مشهورة. وبالطبع لن يحدث فيها كما حدث في بقية الحفلات ويسرق الصغار الأضواء من الكبار، فهم جميعهم صغار مع بعضهم بعضًا، لكنها مع ذلك تلفت انتباه واحد من الكبار، الكبار قليلاً، ضابط البوليس، يدخل ويفتش، وينقلب الفرح إلى غم، وهكذا بنظرة سريعة سننظر إليها على أنها معكوس لكل الحفلات السابقة، فالكبير هنا، ضابط البوليس، هو الذي سرق الأضواء، سرق الفرحة من المهمشين، لكن ألا يمكن النظر إلى الحفلة ككل باعتبارها هي نفسها التي قد سرقت الأضواء من الكبار فجعلت ضابط البوليس يترك كل شيء، يترك حتى حفلات الكبار، ويركز فقط في فرح شعبي لبسطاء مهمشين؟ والحفلة هنا في دم الغزال حدث مهم تقوم عليه الدراما، كما الحال في حفلة المنسي. إن كل الحفلات في سينما وحيد حامد تفعل شيئًا من اثنين، فإما أن تدفع الأحداث إلى الأمام وتكون مؤثرة في الدراما، أو تبين لنا ملمحًا من ملامح الشخصية، ولأن أصول الكتابة السينمائية تقول إن المشهد لا بد أن يفعل شيئًا من هذين، ستكون الحفلات هكذا في سينما وحيد حامد مشاهد ضرورية جميعها وغير مقحمة في العمل، حتى تلك التي كان من الممكن الاستعاضة عنها بمكان آخر كان اختيارها هي دون غيرها اختيارًا موفقًا أكثر، على سبيل المثال الحفلة في طيور الظلام، فالمراد الأهم من الحفلة هو لقاء فتحي نوفل بالوزير، فرصة العمر للبطل، كان من الممكن أن يتم اللقاء منذ البداية في مكتب الوزير، الوزير يحكي للمحامي الشهير أزمته فيتذكر المحامي فتحي وعبقريته ويرى أن عنده الحل ويحدد موعدًا للاثنين، لكن اختيار الحفلة، كمكان للحدث، أفاد أكثر في رسم شخصية فتحي وإظهار الفارق على الأقل بين مجتمعه والمجتمع الآخر الذي كان على وشك الدخول فيه. وفي دم الغزال كان المراد هو القبض على العريس بتهمة حيازة مخدرات. في جلسة تحشيش عادية كان من الممكن القبض عليه، لكن أن يُقبض عليه يوم زفافه وتنقلب فرحة العروس، البطلة، إلى حزن، أعطى للحدث حسًا دراميًا أكبر، وتطبيق الأمر على كل الحفلات في الأفلام السابق ذكرها، سنجد أنها جميعها كانت مشاهد لا غنى عنها.

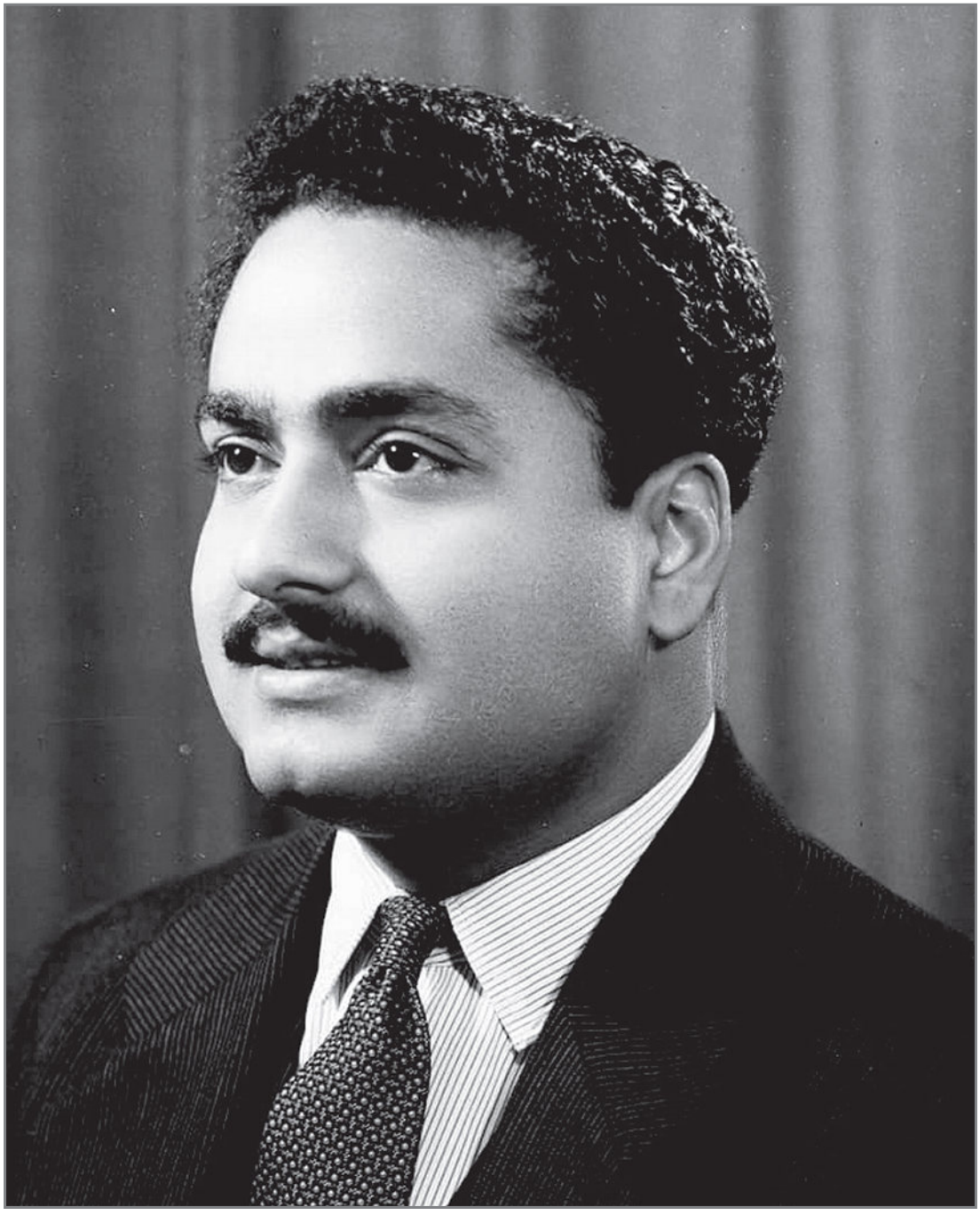

محمد قنديل..
المطرب الذي أحب الكناري!

محب جميل

عاش حياته في عزلة، وسط هواياته المفضلة في تربية الطيور، وجمع التحف، وأعمال النجارة. ملك صوتًا من أعذب الأصوات التي ظهرت خلال القرن العشرين. وظل حتى أواخر أيامه مخلصًا للغناء، ولم يفكر يومًا في الاعتزال حتى فارق الحياة في 8 يونيو 2004، إثر أزمة قلبية بعد حجزه بإحدى مستشفيات القاهرة.

بطاقة فنية

وسط أسرة فنية، ولد قنديل محمد حسن (مولود 11/3/1929) بشبرا. اكتشف قنديل جماله صوته بينما كان تلميذًا في مدرسة الدواوين الابتدائية. جدته لوالدته هي المطربة سيدة السويسية، وزوج عمته المطرب محمد عمر كان يقيم ندوة أسبوعية كل ثلاثاء في منزله يحضرها أحد الفنانين الكبار: صالح عبد الحي، زكريا أحمد، محمد عبد الوهاب، صَفر علي، مصطفى بك رضا، وآخرين. ذات مرة استمع له الحضور في دور سيد درويش (أنا هويت)، فصفقوا له، وطلبوا منه المزيد من الأدوار والموشحات. وجاءت نقطة التحوّل في حياته عندما قدمه الموسيقار علي فراج بأحد برامج الإذاعة عام 1943. اختار له عبد الوهاب يوسف وعلي فراج اسمه الفني محمد قنديل. كانت أغنية (التمر حنة طرح) من أوائل أغنياته (محمد قنديل يقول: عبد الوهاب يعترف بي ويخاف مني: صوتي خلق كمال الطويل، الكواكب، العدد 357، 3/7/1958، ص 24). كان قنديل قد تعلم أصول الغناء وعزف العود بعد التحاقه بمعهد الاتحاد الموسيقي مطلع الأربعينيات. واختاره المخرج أحمد بدرخان ضمن كورس الفتيان والفتيات للغناء بفيلم (عايدة) عام 1942 من بطولة كوكب الشرق أم كلثوم. وظل يغني على الهواء مباشرة بالإذاعة المصرية، وبدأ اسمه يتردد بالوسط الفني منذ عام 1947.

خلافات وتحديات

كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يحب صوت قنديل ويقدره. وكان يطلب منه المجيء إلى منزله بالعباسية في الليل؛ كي يغني له ويطربه في سهرات الأصدقاء. أما قنديل فقد تعلّم منه الغناء السليم، ومخارج الألفاظ، وتهذيب الجمل، ومع ذلك فلم يلحن عبد الوهاب له! كانت المشكلة قد بدأت عندما قام مندوب إحدى المجلات الفنية بإجراء مقابلة مع قنديل، وخلال الحديث تطرق إلى رأيه في عبد الوهاب. فحرف المندوب كلامه عن عبد الوهاب، وموقفه من اقتباس الموسيقى الغربية، فغضب عبد الوهاب بشدة، وامتنع عن التلحين له، وبعد صفاء الأجواء بينهما لم يسعَ قنديل لطلب لحن منه، فقد كان عزيز النفس.

حدث أيضًا أن وقع خلاف بينه وبين كمال الطويل؛ فبعد أن نجحت أغنية (يا رايحين الغورية) بصوت قنديل، عرضت شركة (كايروفون) أن تسجلها على أسطوانة مقابل 50 جنيهًا، فرفض قنديل بشدة. ذهب الطويل إلى الشركة، وعرض أن تسجل بصوت عبد الحليم حافظ مقابل المبلغ المذكور. وافقت الشركة، وسُجلت الأغنية بصوت عبد الحليم لكنها لم تحظَ بالرواج المنشود. ذهب قنديل إلى الشركة عقب ذلك، وطلب تسجيلها مجانًا، فواقت الشركة، وراجت الأغنية، وطُبعت الأسطوانة أكثر من مرة. فتوترت العلاقات بين قنديل والطويل، وانتهى بمهاجمة الأخير له بالصحف والمجلات (محمد قنديل، المصدر السابق، ص 24).

كان محمد عبد الوهاب يحب صوت قنديل ويقدره. وكان يطلب منه المجيء إلى منزله بالعباسية في الليل؛ كي يغني له ويطربه في سهرات الأصدقاء.. أما قنديل فقد تعلّم منه الغناء السليم..

صداقات متينة

كانت أم كلثوم من الداعمين لقنديل، وكانت أغنيته (التمر حنة طرح) من بين المفضلات لديها. توطدت الصداقة بينهما، ورشحته للغناء في عيد جلوس ملك المغرب الحسن الثاني على العرش. وأعجب الملك الحسن بجمال صوته، وتمكنّه من الأداء (أحمد السماحي، قنديل الطرب بعد 3 سلامات، عبد الوهاب ظلمني .. وأصدقاء عبد الحليم حاربوني، الأهرام العربي، العدد

363، 6/3/2004). كان قنديل يكّن مكانة خاصة للفنانة شريفة فاضل التي كانت تطلبه للغناء في ملهى (الليل) الذي تملكه؛ فلم يتأخر يومًا عن طبلها، وامتدت الصداقة بينهما حتى أواخر أيامه (هناء فتحي، محمد قنديل: تصيبني حالة عصبية عندما أسمع مطربي هذه الأيام! روزاليوسف، العدد 3884، 22/11/2002، ص 49).

علامات مضيئة

خلال حياته الفنية المزهرة، قدم قنديل كوكبة من أجمل الأغنيات، نذكر منها: (3 سلامات) تلحين محمود الشريف، (مالي بيه) تلحين

علي فراج، (سماح) و(ع الدوار) تلحين أحمد صدقي، (بين شطين ومية) و(يا رايحين الغورية) تلحين كمال الطويل، (يا حلو صبّح) تلحين محمد الموجي، (جميل وأسمر) تلحين أحمد عبد القادر، (سحب رمشه) و(وحدة ما يغلبها غلاب) تلحين عبد العظيم عبد الحق، و(أبو سمرة السُكّرة) تلحين محمد قنديل إلى غيرها من الأعمال الرائعة. واصل قنديل الغناء حتى عام 1999، الذي قدّم خلاله: قصيدة (النيل مهرجان) من أشعار محمد عبد العزيز شنب وألحان عبد العظيم محمد إلى جانب آخر حفلاته في ليلة عيد المولد النبوي الشريف. حظيت أغنيته (والله بعودة يا رمضان) تلحين د. جمال سلامة بشهرة واسعة عبر الأجيال المختلفة.

لم تكن السينما من بين اهتمامات قنديل، لكنه شارك بالظهور والغناء في بعض الأفلام المعروفة منها: (بابا عريس) بطولة نعيمة عاكف وإخراج حسين فوزي (1950)، (الأستاذة فاطمة) بطولة فاتن حمامة وإخراج فطين عبد الوهاب (1952)، (شاطئ الأسرار) بطولة ماجدة وإخراج عاطف سالم (1958) إلى غيرها من الأعمال السينمائية.

بعد نجاح أغنية (يا رايحين الغورية) بصوت قنديل، عرضت (كايروفون) تسجيلها على أسطوانة مقابل ٥٠ جنيهًا، ورفض قنديل بشدة. فعرض كمال الطويل على الشركة تسجيلها بصوت عبد الحليم حافظ

المرأة في حياته

ذهب قنديل لإمضاء عقد عمل مع رجاء توفيق صاحبة ملهى (الكيت كات) بحي إمبابة. فأحبته من النظرة الأولى، كان وقتها لا يزال في بداية طريقه، وأجرته في الإذاعة 12 جنيهًا. قدمت له صاحبة المكان عرضًا سخيًّا يتضمن العمل مقابل 90 جنيهًا شهريًّا. وفي خلال ثلاثة أشهر، تطورت قصة الحب بينهما، وغنى لها موالاً على خشبة المسرح:

أحبكم تكرهوني/إيش جرى مني/لا ذنب سويت/ولا عيبة جرت مني

وكان كلما اشتعل خصام بينهما، يصالحها بهذا الموال. وكي يتم الزواج طلب منها إغلاق الكازينو، فوافقت. وبالفعل تزوجا في عام 1950، وعاشا تحت سقف واحد (محمد قنديل،

الكواكب، 1958، ص 25). انفصل قنديل عن زوجته رجاء عام 1960، وتزوج سيدة من خارج الوسط الفني، وقد توفيت قبله ببضعة أعوام (د ب أ، بين شطين وميه أسلم محمد قنديل الروح، السفير، 10/6/2004).

الحاسة الفنية

امتلك قنديل أذنًا موسيقية حساسة إلى جانب صوته الشجي. فالعديد من الملحنين الذين تعاون معهم، كانوا يثقون في ثقافته الموسيقية، وإدراكه لجماليات اللحن. كان أحمد صدقي يسمعه اللحن قبل الانتهاء منه، وعندما يعترض قنديل على جملة بعينها، يطلب منه صدقي تغييرها. كان قنديل يذكر في حواراته أن عبد الوهاب كان يعمل على لحن (علشان الشوك اللي في الورد) عام 1955 بنقابة الموسيقيين لكن قفلته لم تكن تريحه. طلب من قنديل وكمال الطويل تغييرها، فأعجبته قفلة قنديل، وظل يصيح: «هي دي اللي أنا عايزها!». مع بليغ حمدي كان الأمر مختلفًا فقد اقتصر التعاون بينهما على 4 أغنيات فقط. كان بليغ قد عرض على قنديل أغنية (قولوا لعين الشمس)، لكن الأخير لم يكن مفضلاً لقفلة الأغنية، وطلب من بليغ أن يغيرها. لم يرحب بليغ بالاقتراح، فغضب، وقام بتسجيل الأغنية مع الفنانة الكبيرة شادية، وانقطع التواصل بين بليغ وقنديل (أحمد السماحي، المصدر السابق).

> **العديد من الملحنين، كانوا يثقون في ثقافته الموسيقية، وإدراكه لجماليات اللحن. كان أحمد صدقي يسمعه اللحن قبل الانتهاء منه، وعندما يعترض قنديل على جملة بعينها، يطلب منه صدقي تغييرها**

رحلة فنية ممتدة قطعها قنديل، سجل عشرات الأغنيات، والبرامج الإذاعية، والصور الغنائية. كان قاسمًا مشتركًا في أغلبها إلى جوار أصوات: حورية حسن، وفايدة كامل، وعصمت عبد العليم، وفاطمة علي إلى غيرها من الأصوات المصرية الجميلة قبل أن يفارق الحياة، ويترك رصيدًا كبيرًا من الأعمال الغنائية التي تُردد إلى يومنا هذا.

رحلـــتي مع "ابن فطومـــــة"

أحمد محسن

«امرأة في النافذة».. التلصص على العالم بعيون الخوف

منى أبو النصر

«ربيع جديد».. مجتمعات مقهورة وشعوب ثائرة

علي علاء

مراجعـــــات

رحلتي مع «ابن فطومة»

أحمد محسن

سافرت ولم أحمل معي من الكتب العربية القليلة التي حملتها كتابًا لنجيب محفوظ. بدأت رحلتي بقراءة سيرة ذاتية تملأها الأسفار لمترجم أحبه وأحب حياته هو الأستاذ ماهر البطوطي. يحكي في سيرته «الجيل الرائع» عن جيله وعن حياته والبلاد التي زارها وعاش فيها والشعراء والفنانين الذين تتبع خُطاهم واقتفى آثارهم، وكنت في أول رحلتي الثانية إلى «دار الغروب» أو دار «ما وراء المحيط»، بعد هجرتي الأولى إلى الشمال.

بدأ نجيب محفوظ يرافقني في رحلتي حين تواصلت معي مديرة مجموعة العائلات المصرية الكولومبية تودُّ تنظيم لقاء عن الأدب العربي، ثم تحولت الفكرة إلى إنشاء نادٍ لقراءة الأدب المصري. في البداية اقترحت صاحبةُ الفكرة قراءة رواية لكاتب أيرلندي عن مصر الفرعونية، فقلت لها إننا في نادٍ لقراءة الأدب المصري يجدر بنا أن نقرأ لكاتب مصري، والكاتب المصري هو نجيب محفوظ. ولأستمتع أنا أيضًا بإدارة اللقاءات اخترت رواية لم أكن قرأتها من قبل، وهي أولى روايات نجيب محفوظ بعد الثلاثية التاريخية الفرعونية، رواية «القاهرة الجديدة». بدأ أعضاء النادي في قراءة الترجمة الإسبانية للرواية، وبدأت أنا في قراءة نسختها العربية التي طبعتها، وأدهشتني اللغة والفلسفة والحياة الجامعية ومعضلات الحياة والنضج في بناء الشخصيات، كما أدهشني ما يدهشني دائمًا، وهو ما وجدته من نفسي، ما عرفته بوجدانه وما عرفت غيابه برؤيته في دواخل كل واحد من أفراد شلّة طلبة الجامعة، الذين درسوا في نفس الكلية التي درستُ فيها، والتي درس فيها محفوظ كذلك. لا زلت أذكر أول لقاء جمع بين أعضاء ذلك النادي ونقاشنا حول الرواية، وذلك الحديث شديد الشخصية الذي جعلني أحكي عن حياتي وتجاربي المؤلمة في الحياة في مصر والتي لا تختلف كثيرًا عن مآسي محجوب عبد الدايم والتي هي مآسي أغلب الشباب المصريين منذ أربعينيات القرن الماضي حتى الآن.

أدهشتني اللغة والفلسفة والحياة الجامعية ومعضلات الحياة والنضج في بناء الشخصيات، كما أدهشني ما يدهشني دائمًا، وهو ما وجدته من نفسي، ما عرفته بوجدانه وما عرفت غيابه برؤيته..

بدا بعد تلك المرة أن تجربة قراءة نجيب محفوظ ليست تجربة ثقافية أو أدبية، وأن ليس الشيء الوحيد المتحقق منها هو تقريب المجتمع المصري بأفكاره وثقافته وعاداته وحياته بكل ما فيها إلى قارئ بعيد كل البعد عن تلك الثقافة لا يعرف عن مصر والعالم

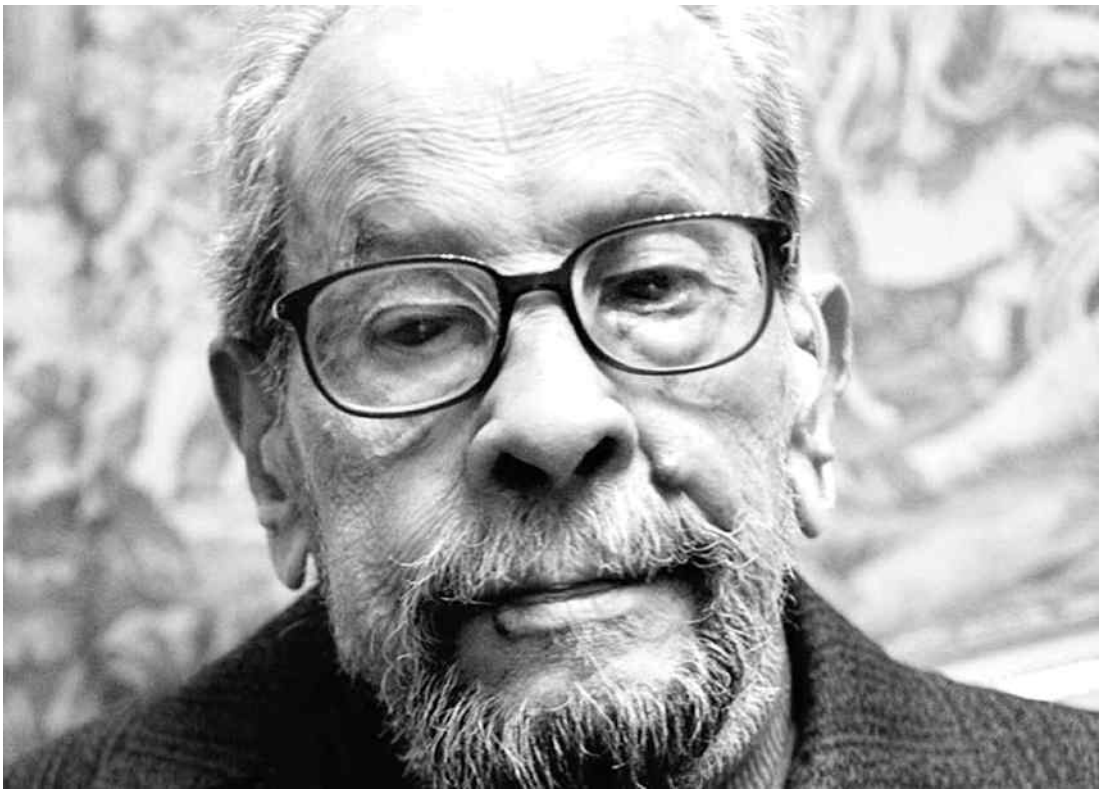

العربي والإسلامي سوى ما يلقيه عليه الإعلام الأمريكي. إن قراءة محفوظ بالنسبة لي أمر شديد الشخصية، أدرك فيه تاريخي الشخصي، تاريخ تجاربي الشخصية، وتاريخ هزائمي الشخصية وهزائم أصدقائي وأبناء جيلي، وهزائم الأجيال المتعاقبة، من أين أتت، وبأي مراحل مرّت. يفعل محفوظ كل ذلك، في اللحظة ذاتها التي يكون قادرًا فيها أن يكون قريبًا أيضًا من قارئ لم يسمع في حياته عنه ولا عن مصر ولا الثقافة العربية أو الإسلامية أو الفرعونية أكثر من رؤيته وسماعه عن الأهرامات في طفولته.

حين تكررت الفرصة للحديث عن الأدب العربي في سلسلة محاضرات نظمها فرع مكتبة بنك الجمهورية بمدينة سينسيليخو التي كنت أعيش فيها آنذاك، قررت أن أخصص محاضرة كاملة للحديث عن نجيب محفوظ، الكاتب العربي الوحيد الحائز على جائزة نوبل للآداب، ولمشاركة بعض المقاربات بينه وبين ما يمثله أدب جابرييل جارسيا ماركيز في الأدب الكولومبي والأمريكي الجنوبي والعالمي. تحدثت عن عمل كملحمة الحرافيش أو أولاد حارتنا وكونه لوحة أسطورية تحمل ما يمكن أن تحمله مئة عام من العزلة عن تاريخ شعبها، تاريخ الواقع والخيال على حد سواء. مررت كذلك على تجاربه المختلفة في ليالٍي ألف ليلة، وروايـاتـه الوجـوديـة، وأسئلة الفلسفة، وعوالمه الصوفيّة. وكان من أكثر ما أحببت امتلاكي نسخًا من ترجمات إسبانية لروايات أحبها له، وقراءتي للفقرات الأولى من روايات كالحرافيش، ملحمته الخالدة.

في أثناء كل ذلك كنت أدرك أن كل تلك الأحاديث عن أهمية محفوظ أديبًا؛ عربيًا ومصريًا وعالميًا، واللذة التي قد يجنيها من يقرأه بأي لغة وفي أي مكان، هو وجه من أوجه الأمر. لكن يوجد وجه آخر، وجه يخصّني أنا، أو يخصّنا نحن، ونحن نتعرف على أنفسنا بقراته. أدركت ذلك حين بدأت بقراءة رواية «رحلة ابن فطّومة» تزامنًا مع بدايتي في نشر فصول عن رحلتي في كولومبيا، بعد أن كتبت كثيرًا عن إقامتي في إسبانيا قبل أعوام، ولم أنشر شيئًا مما كتبت. بدأت في قراءة هذه الرواية بهدف شخصيٍّ تمامًا، فأدركت أن قراءة محفوظ تشبه العودة إلى الذات. في مجتمعات بعض السكّان الأصليين في أمريكا الجنوبية بيت يدعى «مالوكا» هو البيت الذي يرمز لحكمة القبيلة والذي يلجأ إليه أفرادها ليرثوا حكمة الأجداد وأجداد الأجداد ويُدعى البيت الأم. وفي آداب كل أمة بيت كهذا البيت، هذا البيت في الأدب الإسباني هو رواية «دون كيخوتي» لميجيل دي ثِربانتس، فإنني لم أدخل بيتًا إسبانيًا تقريبًا ليس فيه رواية ثربانتس. ليس فقط كل بيت إسباني، وإنما حين دخلت بيت صديقي أستاذ الأدب الكولومبي والذي قرأ آداب الإغريق والرومان والآداب الأوروبية بلغاتها

كان يتحدث عن ثربانتس وكونه أنبل إنسان عرفه، وعن دون كيخوته وقراءته السنوية له بوصفه الوطن الذي يعود إليه.

بدأت علاقتي الشخصية برواية «دون كيخوتي» في عامي الثالث في الجامعة، حين درّستني أستاذتي فاطمة مكي فصل الرواية الإسبانية في العصر الذهبي. منذ ذلك الحين و«دون كيخوتي» رفيق حياة لي، أحدثه وأستمع إليه، وأتمثله وأبادله الشكوى وأسامره. أفعل ذلك أيضًا مع الأمير الصغير، ومع الشعراء الذين أصادقهم. لكنني ولدت في شارع محمود الديب، ودرست الابتدائية في مدرسة «صلاح الدين» والإعدادية والثانوية في مدرسة «الطبري». تخرجت في «جامعة القاهرة»، وقضيت مراهقتي في شوارع وسط البلد، وسنوات الجامعة بين محاضرات جامعة القاهرة ودروس مشايخ الأزهر وشوارع وأزقّة الأزهر والحسين. سأظل دائمًا كابن فطّومة: «مهما نبا بي المكان فسوف يظل يقطر ألفة، ويسدي ذكريات لا تُنسى، ويحفر أثره في شغاف القلب باسم الوطن. سأعشق ما حييت نفثات العطّارين، والمآذن والقباب، والوجه الصبيح يضيء الزقاق، وبغال الحكم وأقدام الحفاة، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب، والجياد الراقصة وأشجار اللبلاب ونوح اليمام وهديل الحمام».

في مجتمعات بعض السكّان الأصليين في أمريكا الجنوبية بيت يدعى «مالوكا» هو البيت الذي يرمز لحكمة القبيلة..

سأظل ابن فطّومة الذي شالته بلاد وحطته بلاد وما زال جرح الوطن في جنبه. «أحاول أن أرى وطني من بعيد، وأن أراه على ضوء بقية الديار لعلي أستطيع أن أقول له كلمة نافعة».

مات جدي لأبي قبل أن أولد، ومات جدي لأمي وأنا على الجانب الآخر من البحر قبل أن أتم العاشرة، ومات أبي وأنا في الخامسة عشرة. لكنهم جميعًا نجيب، أو نجيب هم جميعًا. أتحير في سيري، تغزوني الرغبة في العودة ولقاء الأهل والأصدقاء في ليالي الوحدة، ويمنعني الخوف في النهار الذي أسير فيه حُرًّا، من دارٍ إلى دار. فأذهب إلى بيت جدي الرحالة فأجده يقول: «نداء كالقَدَر يدعوني للبقاء، وأمل في السعادة لا يريد أن يخبو». أذكر أثر قراءة رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» عليَّ حين قرأتها بعد عودتي من رحلة دراستي في جامعة سلمنكا، خصوصًا وأنا أعرف أنها رواية اختلط فيها الذاتي بالروائي، وشعوري بأن الطيب صالح حاضر في مصطفى سعيد حضورًا أطلعني عليه قراءة كتاب «منسي: إنسان نادر على طريقته» الذي كتبه الطيب عن صديقه المصري أحمد منسي أو مايكل بسطاووروس، ولأن حياة الإنسان جزء منها حياة أصدقائه الذين شاركهم العمر فقد وجدت كثيرًا من حياة مصطفى سعيد بطل موسم الهجرة إلى الشمال في حياة الطيب صالح التي قرأتها في ثنايا حكاياته عن صديقه المصري. لكل ذلك توقعت أن قراءتي لرحلة ابن فطّومة لن تتجاوز الاندهاش باللغة المتجدد مع كل قراءة لنجيب محفوظ، وتجولي بين القواميس والمعاجم العربية المختلفة أتأكد من دقته في اختيار ألفاظه وتعبيراته، أو حبي الرجوع إلى الأدب العربي أقرأ قصيدة امرئ القيس: أرانا موضعين لأمر غيب... ونُسحَر بالطعام وبالشراب، حين أقرأ حديث نفسٍ قنديل محمّد العنّابي: «وجعلت أتساءل عمّا يجدر بي عمله، هل أرجع إلى وطني قانعًا من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودقّ أبواب المصير». أرجع فأرى امرئ القيس، ذلك الرحالة القديم، يقول في نفس القصيدة: وقد طوَّفتُ في الآفاقِ حتى... قنعتُ من الغنيمةِ بالإيابِ، فضُرِبت مثلا.

توقعت أن قراءتي لرحلة ابن فطّومة لن تتجاوز الاندهاش باللغة المتجدد مع كل قراءة لنجيب محفوظ، وتجولي بين القواميس والمعاجم العربية المختلفة أتأكد من دقته في اختيار ألفاظه وتعبيراته

لا أدري هل هوسي باللغة هو ما يجعلني أقرأ روايات نجيب محفوظ وكأنني أدرسها، أم براعته هي التي تجبرني على ذلك. فأنا حين أقرأ روايات أخرى أحيانًا

نجيب محفوظ وبهجت وجميل شفيق وبهجت عثمان وإبراهيم منصور وآخرين

أكون منصرف الذهن أكثر إلى الحكاية، لكنني هنا أقرأ كلمة كلمةً، وتأخذني كلمة أو تعليق على جملة لأحد الشخصيات إلى التفكير في الناس والحياة. أقرأ في صفحة واحدة في حوار، لا كلمات الحوار نفسه بل تقدماتها: «فقلتُ مداريًا ذاتي»، ثم أقرأ بعدها بسطور: «فقلتُ مداريًا ما في نفسي»، فأقف بينهما وأفكر فيمن عرفت من الناس الذين يتحدثون وهمهم الأول أن يداروا ويخبوا ذواتهم، يتحدّثون لكي يختبؤوا خلف حديثهم الذي لا ينطق عنهم، ولا يريدون له أن يفعل. ثم عن أولئك الذي يفكرون في شيء يقولونه ليداروا به ما يريدون حقًا أن يقولوا.

سمعت حوارًا مع الأستاذ أجرته معه الإعلامية سلوى الجراح بإذاعة البي بي سي BBC عام 1992 عقب رجوعه من رحلة علاج بلندن هي إحدى رحلاته القليلة، وحين سألته في آخر الحوار إن كان يريد أن يقول شيئًا، أخبرها ماذا يمكن أن يقول من يُسأل منذ ستين عامًا، وأنه لا يشعر أنه بقي له ما يقوله، وفيما يتعلق بالكتابة فهو يكتب ما يفتح به الله عليه من قصة صغيرة أو مقال بالأهرام، لكنه لا يظن أنه سيتمخض عن شيء جديد يقوله. وبالفعل كانت آخر رواياته قبل ذلك اللقاء بأربع سنوات، رواية «قشتمر»، التي نشرت في ذات العام الذي حصل فيه على جائزة نوبل 1988، وما جاء بعدها كانت مجموعات قصصية.

أفكر فيما بين عامي 1945 عام نشر رواية «القاهرة الجديدة» وعام 1988 عام نشر «قشتمر»، 32 روايةً هي البيت الأم، هي الوطن الذي أعود لأرى نفسي في مراياه، هي جذوري التي لا أستطيع أن أبصرها جميعًا في مسيرتي الأولى فوقها، ولا بد أن أعود إليها مرة بعد أخرى لأرى في كل مرة ما تسمح به حياتي السابقة وخبراتي أن أرى. أفكّر في النهاية، أنه لولا نجيب محفوظ، لما عرفت نفسي كما أعرفها، ولربّما فقدت الكثير منها، فالإنسان لا يمسك بيديه إلا ما يعرفه، والأستاذ هو الشيخ الذي دلني ودائمًا ما يدلني على أخص خصائص نفسي، وكذلك يدلّ العالم على أولئك البعيدين القريبين الذين يسكنون الحارة ويتوارثون حكاياتها.

كنت أدرك أن كل تلك الأحاديث عن أهمية محفوظ أدبيًا؛ عربيًا ومصريًا وعالميًا، واللذة التي قد يجنيها من يقرأه بأي لغة وفي أي مكان، هو وجه من أوجه الأمر

«امرأة في النافذة».. التلصص على العالم بعيون الخوف

منى أبو النصر

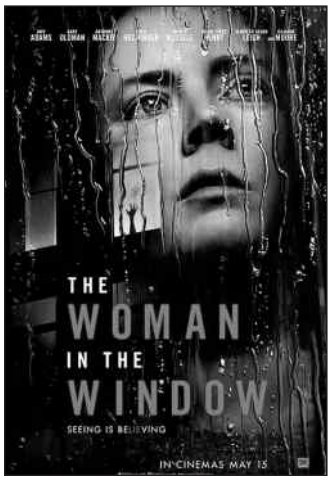

حظي فيلم The woman in the window «امرأة في النافذة» بأكثر من سبب للرواج الذي حققه منذ عرضه على منصة نيتفلكس أخيرًا، لعل أبرزها أنه مأخوذ عن رواية الإثارة الأكثر مبيعًا التي تحمل نفس العنوان للكاتب الأميركي آ. جيه. فين، صدرت في عام 2018، وكذلك اهتمام الصحافة الفنية بتتبع عرقلة تنفيذ الفيلم على مدار عامين، ما بين عدم رضا عن تجارب الأداء الأولى، وترشيحات التعديل في الكتابة والصورة، وإعادة تصوير بعض المشاهد، ثم جاءت «كورونا» لتُضاعف التعطيل.

إلى جانب تلك الأسباب فالفيلم يضم طاقم عمل لامع، بداية من إيمي آدمز، وجاري أولدمان، وجوليان مور، وجانيت جيسون لي، وأجرى المعالجة للنص السينمائي والسيناريو تريسي ليتس، الحائز على جائزة بوليتزر، ومن إخراج البريطاني جو رايت، صاحب أفلام «آنا كارنينا» و«كبرياء وتحامل» و«تكفير»، و«الساعة الأكثر ظلمة»، وجميعها أفلام حظيت باهتمام نقدي وجماهيري واسع، استطاع رايت أن يترك على صورتها بصمته السينمائية الجمالية.

لكن يبدو أن الفيلم «المُنتظر» الذي جمع العديد من عوامل الجذب المبدئي ضلّ طريقه في الوصول لتوقعات المشاهدين المرجوة، كعمل مُصنف ضمن فئة أفلام الإثارة والجريمة، وربما كان النجاح المُدوي للرواية منذ صدورها، سببًا في مقارنة غير متكافئة بين النسختين المكتوبة والسينمائية.

رُهاب يحكم الأشياء

يدور الفيلم في فلك عالم آنا فوكس، طبيبة نفسية للأطفال، تمر بمأزق نفسي عصيب فتُصاب إثره بمرض الأجروفوبيا Agoraphobia «رُهاب الخلاء»، أو فوبيا الأماكن المفتوحة، فلا تستطيع أن تغادر بيتها طيلة عشرة أشهر، يزورها طبيبها النفسي في البيت، تُدبر أمر وصول المشتريات المنزلية في موعد مُحدد كل أسبوع، تُربي قطة، وتحتفظ بثلاث عادات رئيسية في هذه العزلة: شُرب الكحوليات، ومشاهدة الأفلام السينمائية القديمة، والتلصص على جيران شارعها، حتى كادت تعرف كل تحركات

السُكان، وإيقاعهم، ومشكلاتهم، فتجد في نافذتها حبل تواصل آمن ووحيد مع العالم الخارجي المحيط بها، وهو التواصل الذي يكون سببًا في تأرجحها بين التعافي ومزيد من الصدمات، هكذا كانت تُمرر آنا الوقت الثقيل.

على مدار يومياتها تُجري آنا اتصالات هاتفية بزوجها وابنتها الصغيرة: لأنها وزوجها منفصلان ويحتفظ هو بحضانة الابنة، وتهتم بشكل خاص بمراقبة عائلة جديدة تصل للسكن في منزل مقابل لها، أب وأم وشاب مراهق، تُفاجئ بهذا الشاب، إيثان، يطرق بابها ذات يوم ليقدم لها هدية أرسلتها لها والدته كنوع من التودد لها كجارة، فتستقبله على غير عادتها المُنعزلة، وتشعر أنه يحمل ندوب فزع واكتئاب مبكرة، فتتبع فضولها تجاهه، كطبيبة نفسية للأطفال في المقام الأول، ثم ما تلبث في سياق آخر أن تصل لزيارتها والدة هذا الصبي «قامت بدورها جوليان مور فتتبادلان الحديث حول الرهاب، والهوايات، ولمحات عن علاقتهما الأسرية.

في أثناء مراقبتها لتلك الأسرة يلفت نظرها أن ثمة عنفًا جسديًا من جانب الأب تجاه الزوجة والابن، وبعدها تتصاعد الأحداث حتى ترى آنا جريمة قتل في ذلك المنزل، وترى أن القتيلة هي الزوجة التي زارتها في منزلها قبل أيام، فتتصل بالنجدة، وتحاول الخروج من منزلها بصعوبة لنجدة تلك المرأة التي تراها قتيلة، فتفقد وعيها بفعل «الرُهاب» الذي تُعاني منه، وتُنقل للمستشفى، وعندها يتعقد لغز الجريمة بعد أن يؤكد الزوج راسل، جاري أولدمان أن آنا لم تلتق زوجته قط، وتُفاجئ بأن زوجته سيدة أخرى غير التي زارتها وجلست وتحدثت معها، فتعتبر الشرطة أن شهادتها مجرد هلوسات سيدة مريضة حيث الزوجة التي ادعّت أنها قتلت لا زالت حيّة ترزق أمامهم، وهنا تُقحم نفسها في تحقيقات، وتشككات في مدى سلامتها العقلية، في حبكة مقصود بها إيقاع المتفرج في ورطة عدم القدرة على الحُكم إذا ما كانت الجريمة التي وقعت حقيقية أم محض خيال من البطلة التي تخضع تحت تأثير جرعات كبيرة من مضادات الاكتئاب والكحوليات.

نافذة هيتشكوك

تلك الحبكة «التلصصية» التي تنتهي بجريمة، ليست جديدة في حد ذاتها، فقد سبق واستثمر

غموضها أفلام شهيرة مثل «The girl on the train «فتاة القطار»، إنتاج 2016، و Disturbia «ديستربيا»، إنتاج 2007، وأشهر نموذج كلاسيكي لها على الإطلاق هو فيلم Rear window «النافذة الخلفية» لألفريد هيتشكوك، إنتاج 1954، وهذا الفيلم تحديدًا لا يمكن تفادي حضوره الوثيق خلال مشاهدة «امرأة في النافذة»، سواء بقصد أو دون قصد، فمع اللحظات الافتتاحية الأولى للفيلم، تتجول الكاميرا في بيت كبير، كئيب، خالٍ من سكانه، استعاضت عنهم لغة الفيلم بمقاعدٍ خالية، وبيت دُمى يشي بطفلة كانت ذات يوم تلعب في هذا البيت، وومضة خاطفة من شاشة تليفزيون في البيت تعرض مشهدًا من «النافذة الخلفية» لهيتشكوك، ليُعلن الفيلم مُبكرًا عن مجازاته ولغته الدرامية، وتحية سينمائية من جو رايت، الذي يخلق عبر فيلمه الجديد تناصًا سينمائيًا مع فيلم هيتشكوك الذي رُشح به لجائزة الأوسكار لأحسن مخرج، ففي «النافذة الخلفية» يجلس البطل الذي يعمل مُصورًا قعيدًا، قام بدوره جيمس ستيوارت، يمضي أيامه في المنزل وهو يشاهد جيرانه من خلال النوافذ، وبينما هو يراقب أحدهم، يظن أنه رأى جريمة قتل، وفي فيلم جو رايت، 2011، تؤدي النافذة ذات المهمة، في كسر عزلة البطلة، حتى تشاهد عبر النافذة ذات ليلة جريمة قتل، فتجد نفسها في مواجهة مع العالم الخارجي الذي تجنبته طويلاً.

الحبكة «التلصصية» التي تنتهي بجريمة، ليست جديدة في حد ذاتها، فقد سبق واستثمرت غموضها أفلام شهيرة مثل «فتاة القطار» و«ديستربيا»، وأشهر نموذج كلاسيكي لها «النافذة الخلفية» لألفريد هيتشكوك..

يصعب محاولة فهم بطلة «امرأة في النافذة» بعيدًا عن تراث السينما، فالبطلة التي تجد في عزلتها داخل أركان بيتها سبيلاً للنجاة، كان ملاذها الوحيد هو فعل «المشاهدة» سواء مشاهدة حركة الجيران، وأصداء الشارع الذي تقطن فيه، أو مشاهدة أفلام السينما التي يظهر أنها تحفظها عن ظهر قلب، حتى إن جارها المراهق إيثان، عندما زارها، بعد أن وافقت بصعوبة أن تستقبله، كان أبرز تعليقاته على نمط حياتها قوله: لديك أفلام كثيرة! وذلك بعدما شاهد شرائط الفيديو المتناثرة حيث مكان جلوسها المفضل على الأريكة أمام الشاشة، إذ كانت تستعين بالأفلام، بالإضافة للأدوية والكحول، كخلفية أساسية للسقوط في النوم، وعادة ما كان يصحب هذا السقوط ترديدها لحوارات من أفلامها التي كانت دائمة المشاهدة لها، منها فيلم Dark passage «الممر المظلم» الذي كانت تكرر واحدة من عباراته الشهيرة «احبس أنفاسك، اشبك أصابعك»، فعالم آنا لا يمكن فهمه بعيدًا عن علاقتها بالسينما، التي كانت تؤدي دور الشريك والأنيس والعالم البديل، علاوة على توظيف تلك العلاقة في خدمة عنصر الإثارة والالتباس في الفيلم بحيث تكاد الحقيقة وراء روايتها عن جريمة القتل التي شاهدتها تشتبك بخيالات السينما الكلاسيكية التي تُدمنها البطلة.

يصعب محاولة فهم البطلة بعيدًا عن تراث السينما، فملاذها الوحيد هو «المشاهدة» سواء حركة الجيران، وأصداء الشارع الذي تقطن فيه، أو مشاهدة أفلام السينما التي يظهر أنها تحفظها عن ظهر قلب..

الفضول يتحدى الاكتئاب

تبدأ أحداث الفيلم، ومدته 100دقيقة، بيوم جديد تستيقظ فيه البطلة لتتحدث هاتفيًا مع طفلتها لتطمئن عليها، وسرعان ما يأتي طبيبها النفسي ليعترف بفشله في قدرته على إقناعها بالخروج من البيت الذي لم تغادره منذ عشرة أشهر، إلا أنه يُبدي ارتياحه من ملاحظته بعض التطوّر في حالتها الاكتئابية، التي يرجع فيها الفضل لنشاط مراقبة الجيران والحي، تعتبر آنا فوكس أن طبيبها يسخر ويتهكم على سلوكها، فيما يُرجع تفسيره علميًا إلى أن «الفضول دليل على مقاومة الاكتئاب والانتحار»، فالمُكتئب عادة لا يشعر بفضول تجاه

شيء، ولا يجد مُتعة في بناء وفهم علاقات بينه وبين المكان، والبشر، كما أصبحت آنا تفعل، فقد أصبحت تُراقب عن كثب، حتى حال كلب أحد الجيران، من هنا جاء انطباع الطبيب واعتبره مؤشرًا إيجابيًا.

إلا أن فضولها لمراقبة عائلة راسل تحديدًا، قادها من دائرة الفضول للكشف عن خيط غامض في حياتها، متسبب في نكبتها النفسية، فنبدأ في اكتشاف أنها ليست مُنفصلة كما تدعي منذ بداية الفيلم، وأنها فقدت طفلتها وزوجها في حادث سيارة، وكانت هي الناجية الوحيدة من هذا الموت القاسي تحت العجلات، ولكنها تُصاب منذ ذلك الوقت بالرُهاب، والإنكار، والهروب، التي يجعلها تتحدث لابنتها، المُتوفية، صباح كل يوم للاطمئنان على فطورها.

وعلى الرغم من زخم الورطة الشخصية للبطلة، والقدرات التمثيلية الهائلة للبطلة إيمي آدمز، فإن الكتابة لم تُخلص بالشكل الكافي للفيلم وحبكته الدرامية القائمة على الإثارة، فالمُعطيات الكارثية لأزمة البطلة، سطحت، بدلاً من استثمار أعماقها وطبقاتها الدرامية، مكتفيًة بتسليط الضوء على أعراض تلك الأزمة والهروب منها، كالتجسس على الجيران، فيما لمّح مشهد حادث السيارة إلى وجود خلاف أصيل بين البطلة وزوجها أدى لشجار أفضى لعدم تحكم آنا في عجلة قيادة السيارة فوقع الحادث المأسوي، وتجنب فتح مسار درامي ولو عبر «الفلاش باك» يتناول طبيعة علاقتها المتوترة بزوجها، فبدّت شخصية آنا بلا ماضٍ حقيقي يمكن الاستدلال لصورتها التي آلت عليهًا كسيدة تتطلع للحياة عبر «نافذة».

لعل أزمة تسطيح الكتابة، كان لها أثر بالتبعية في التقليل من تميز عدة عناصر في الفيلم؛ بداية من السينماتوغرافيا التي أسهمت في تكثيف الحالة الشعورية الكئيبة التي تعيشها البطلة، وزوايا التصوير الداخلية للبيت التي كانت تسعى لإظهار عمقه واتساعه في مقابل شعور البطلة بالضآلة والانكماش داخل هذه المساحة الفجة، وكذلك الإضاءة التي تماثلت مع عالمها النفسي المظلم، والمكياج، والاكسسوارات، حتى اللقطات التي التقط فيها جو رايت جماليات الهشاشة التي ضاعفها أداء البطلة، وتكوينات الفراغ، وخلقه تكوينات تجريبية أتاحت للبطلة بطولة «مونودرامية» كما في مشاهد استدعائها لكابوس حادث السيارة المريع، في تحاور بين حاضرها المشوش وماضيها المؤلم. لكن يبدو أن كل الجماليات والتقنيات التي قدمها رايت في فيلمه، لم تكن كافية لخدمة عنصري الفيلم الرئيسيين وهما الإثارة والجريمة، ولا لبناء تطور للحدث الأبرز وهو جريمة القتل وشهادة آنا المُلتبسة حولها، ولا تتبع أطراف الجريمة، أو فهم التكوين الأسري الغامض لعائلة جيرانها، وتحديدًا تعقيد شخصية الابن المراهق إيثان الذي يظهر في نهاية الفيلم وجهه الإجرامي، ومعه تراكمات عقدته الأسرية التي رسخت لديه ميول انتقامية حادة، فبدت جميع المحاور مختزلة

ومجتزأة بشكل أخل ببناء الشخصيات وتطورها، فبدت دراما الفيلم وكأنها تلهث وراء الإثارة لكن بغير أدواتها، وكان من الممكن أن يستفيد صُناع العمل بشكل أكبر من النص الروائي المُقتبس منه الفيلم لإثراء أوجه القصور في المعالجة السينمائية.

بين الرواية والفيلم

في نسخة رواية «امرأة في النافذة» جعل الروائي الأمريكي آ.ج. فين سرد روايته يدور على لسان البطلة؛ آنا فوكس، ومنح صوتها درجة عالية من الشفافية وهي تصف مشاعرها على مدار السرد «أنا محبوسة في الداخل.. محبوسة خارج الأشياء كلها»، يمنح الكاتب بطلته على الورق مساحة للتعبير عن مخاوفها، ونظرتها إلى العالم السريع من خارج نافذتها، الذي تهابه «أشعر بأنني ميتة، أنا نفسي ميتة، لكني لم أرحل بعد، أنظر إلى الحياة تتحرك وتفور من حولي، وأنا عاجزة عن التدخل فيها». وفي موضع آخر «هناك أشخاص كثيرون من المصابين لا يستطيعون مغادرة بيوتهم، بل يختبئون من العالم المزدحم الفوضوي، يخاف بعضنا جموع الناس المتحركة، حركة السيارات في الشوارع، أما أنا فأخاف السماء المتسعة، والأفق الذي لا نهاية له، أخاف أن أجد نفسي مكشوفة».

لعل هذه البنيّة الشعورية كانت أحد أبرز أسباب تعلق القراء برواية «امرأة في النافذة»، الحاصلة على أفضل المبيعات حسب نيويورك تايمز، وترجمت إلى العديد من اللغات منها الترجمة العربية التي صدرت عن دار «التنوير» بتوقيع المترجم السوري الحارث النبهان، في حين أن تلك البنيّة المستندة إلى تجسيد تدفقات مشاعر البطلة حيَال المرض النفسي، كانت أحد العناصر الغائبة في الفيلم الذي لم يستثمر تلك الطاقة النفسية الجارفة لصالح الكتابة والمعالجة السينمائية، كما آثرت المعالجة السينمائية عدم التطرق إلى تفاصيل في الرواية حول تمضية البطلة لوقت طويل أونلاين ما بين لعب الشطرنج عن بُعد، وتفاعلها على موقع «أجورا» المتخصص في تقديم الدعم للمتورطين في مشكلات عاطفية ونفسية. كانت آنا فوكس تدخل بشخصية افتراضية مستثمرة دراستها لعلم النفس في دعم مشاركين في الموقع، وجعلت الرواية هذا

لعل أزمة تسطيح الكتابة، كان لها أثر بالتبعية في التقليل من تميز عدة عناصر في الفيلم بداية من السينماتوغرافيا التي أسهمت في تكثيف الحالة الشعورية الكئيبة التي تعيشها البطلة..

الموقع خيطًا لاقتراب إيثان من آنا بشخصيتيهما الافتراضيتين، وصولاً لتنفيذ الجريمة على أرض الواقع، فهو يلجأ للتنكر الرقمي للتواصل معها، ويستخدم التفاصيل التي يعرفها عن حياتها لخداعها، كما يتمكن من معرفة كلمة مرور هاتفها وتغييرها كي لا تتمكن من الاتصال بالشرطة في الليلة التي يحاول فيها قتلها، فيما استخدم الفيلم حبكة مختلفة لاختراق إيثان لبيانات وبيت البطلة، ولكنها كانت أقل تماسكًا وأضعف من حبكة الرواية.

لم يستطع الفيلم إقناع المشاهد بدافعية القتل لدى المراهق «إيثان»، كما فعلت الرواية، وجاءت المعالجة السينمائية لتقفز على مبررات المراهق الإجرامية، لتجعل مشهد المواجهة بينه وبين البطلة مُفتعلاً دراميًا.

لم يستطع الفيلم إقناع المشاهد بدافع القتل لدى المراهق إيثان، كما فعلت الرواية، وجاءت المعالجة السينمائية لتقفز على مبررات المراهق الإجرامية، لتجعل مشهد المواجهة الحادة بينه وبين البطلة في نهاية الفيلم مُفتعلاً دراميًا وغير مدعم بخلفيات كافية، وكان التركيز الأكبر على «تقنية» تنفيذ مشهد العراك المُحتدم «الأكشن» في باحة البيت الكبير، الذي انتهى نهاية مأساوية للمراهق ووصل بالبطلة إلى المستشفى متأثرة بجراحها، ليُمهد المُخرج أن هذه المواجهة كانت طريقها لبدء حياة جديدة في تعافيها، بعد أن اضطرت إلى الهروب من ملاحقة إيثان الذي كان يريد قتلها فتضطر أن تصعد لسطح بيتها المكشوف مُحتمية من جنونه، بعد أن أصبحت جدران البيت التي تمنحها الأمان مصدر خطر، فتدافع عن نفسها وحياتها وهي فوق سطح البيت المرتفع تحت مطر كثيف، ومقتربة من السماء «التي كانت تهابها».

وعلى الرغم من مركزية دور البطلة آنا فوكس، وتواتر ظهور الأبطال على مدار الفيلم، فإننا لا نجد بين تلك الشخصيات من استطاع أن يترك جاذبية درامية يمكن تذكرها بعد مشاهدة الفيلم، بل وقد نتساءل عن سبب استعانة المخرج بأسماء لامعة وتحديدًا جاري أولدمان، وجوليان مور، فيما لم يمنحهما مساحة تمثيلية، أو تطورات شخصية تُعزز حبكة الدراما، وبدا الأمر وكأن وجودهما لأغراض تجارية وترويجية بحتة، إذ كان ظهورهما في الحقيقة باهتًا ومحدودًا، في اختبار جديد يُثبت النتيجة نفسها، وهي أن حشد عوامل الإبهار جميعًا لا يمكن أن تضمن لنا فيلمًا مُحكمًا، طالما ضعفت الحبكة في قصة مُكررة، وغالبًا ما جدد هذا الفيلم استدعاء جمهور هذا اللون الفني «الإثارة والجريمة» أفلامًا حديثة مُقتبسة من روايات لا زالت أصداؤها سارية، وجسدت بطولاتها الرئيسية سيدات، لعل أبرزها «Gone girl» «الفتاة المفقودة» و The girl on the train «فتاة القطار»، وهي مقارنة في غير صالح «امرأة في النافذة».

«ربيع جديد»..

مجتمعات مقهورة وشعوب ثائرة

علي علاء

يتتبع كتاب «ربيع جديد» الصادر حديثًا عن صفصافة للنشر والتوزيع، الموجة الثانية للانتفاضات العربية التي تفجرت في الشمال الأفريقي (السودان/ الجزائر)، والغرب الآسيوي (العراق، ولبنان، وإيران) من خلال سرد تاريخي للبلدان، ثم ينتقل بنا إلى منهج تحليلي قائم على قراءة للحراكات وفقًا لظروف نشأتها الاجتماعية، وحالتها السياسية، ومن خلال المنهجين نستطيع بناء وجهة نظر تجاه دول ما بعد الكولونيالية، ومشاريعها المختلفة التي غذت لدى قطاعات كبيرة من شعوبها أشكالاً متنوعة من السيطرة الدولتية على الاقتصاد بأشكالها الريعية، والمصرفية ما أدى إلى اندماج متزايد في التكتلات الرأسمالية العالمية دون مساهمة حقيقية، مكتفية بدور الخاضع لشروط الرأسمالية بخاصة الخليجية التي رأت في الانتفاضات المختلفة منذ عام 2011 تهديدًا لشبكاتها السياسية، والاقتصادية مع قلة الاهتمام بالقطاعات الصناعية ليس هذا فحسب بل أسهمت الدول في تطوير بنيتها الأبوية التي غيبت بموجبها أي دور للشعوب في استكمال بناء مجموعاتها السياسية.

لا يجب النظر إلى الحراك السوداني باعتباره انتفاضة ضد البشير.. بل هو عملية إنقاذ لما تبقى من الدولة السودانية، من خلال مشاركة سياسية عملت الدولة طيلة عقود على طمسها

نخب وانقلاب

تحلل عزة مصطفى، وسارة عباس الحراك السوداني ضمن تاريخ السودان منذ لحظة استقلاله عام 1956 مرورًا بلحظاته التاريخية التي تصارعت فيها النخب السياسية، والجيش كأغلب بلدان المنطقة العربية ما يجعل الحراك السوداني ذا إرث تاريخي في القلب منه النضالات العمالية، والمهنية لذلك ليس غريبًا أن يقود (تجمع المهن السودانيين) المشهد السياسي في مختلف مراحل الحراك السوداني.

لا يجب النظر إلى الحراك السوداني باعتباره لحظة انتفاضة ضد نظام عمر البشير، بل هو عملية إنقاذ لما تبقى من الدولة السودانية من خلال مشاركة سياسية عملت الدولة السودانية طيلة عقود على طمسها، وإحلال العنف كفاعل سياسي، وإن كنا نتكلم عن تجمع (المهنيين السودانيين) باعتباره الجهة السياسية التي جلست على مائدة المفاوضات مع مؤسسات الدولة فيجب الإشارة إلى الدور الذي لعبته القوى غير السياسية من حركة طلابية، و احتجاجات نسائية أتت جمعيها من مناطق التهميش السياسي، وهنا تمت استعادة السياسة كمجال تتجاذبه أطراف مسيسة وغير مسيسة.

وعلي الرغم من جلوس تجمع المهنيين مع مؤسسات النظام الأمنية، والعسكرية فإن الباحثتين تستشعران قلقًا متزايدًا من النفوذ السياسي لتلك المؤسسات، وبخاصة بعد توقيع وثيقة عام 2019، والتي غابت عنها آليات الانتقال الديمقراطي، وتفكيك أدوار الجيش، والاعتراف بالحشد السريع (الجنجويد) كمؤسسة من مؤسسات الدولة رغم تكوينها الريعي، وعلاقاتها بالخارج، وهو إنجاز يضاف إلى مؤسسات الدولة، وليس إلى القوى المدنية.

ومع ما قدمته الباحثتان من قراءة جيدة حول الحراك السوداني فإنه يجب النظر في عدة نقاط:

-أزاح الحراك السوداني نظام البشير من الحكم، ذلك النظام المعروف بنزعته الإسلامية، لكن الفصل استبعد تمامًا النزعة الإسلامية من أي مبحث بداخله، لكن كيف سينظر إلى الحركات الإسلامية في السوان، وهل لها مستقبل في ترتيبات السودان الجديد؟ وما الأشكال التي سوف تنتهجها الحركة الإسلامية سواء في المستقبل القريب أو البعيد؟

-اختزال الحراك السوداني في القوى السياسية، المنضوية تحت قيادة (تجمع المهنيين) دون التطرق إلى قضايا العدالة الاجتماعية في خطاب القوى السياسية؟ وما التصور الاقتصادي المهيمن على كل النخب السودانية؟

ويشير الفصل إلى نقطة مهمة تغيب عن التفاعلات السياسية العربية بالمؤسسات الأمنية، وهي: مخاطبة الطبقات الدنيا في المؤسسات العسكرية والأمنية، هذا على صعيد التفاعل السياسي، بينما وجه نقدًا ممتازًا حول نخبوية الحركة النسائية التي تنقسم بين رؤي نخبوية ترى في التمثيل السياسي انتصارًا للمرأة، فيما تميل النساء الفقيرات لخطاب التمكين الاجتماعي والاقتصادي أي نسوية اجتماعية أكثر منها سياسية.

سياسة/مهمشون

قدم الباحثان حمزة حموشان، وسلمي العمري واحدة من أهم القراءات السياسية أو الاستنتاجات الاجتماعية؛ إذ ارتكز فصل الجزائر على الربط التاريخي بين التجربة الاستعمارية الفرنسية، ومجابهتها للحراكات الريفية في القرن التاسع عشر. تلك التجربة التي ستتكرر في حراك الجزائر 2019، إذ استكملت النخب المدينية منذ لحظة الاستقلال عام 1962 الإرث الاستعماري تجاه المناطق الريفية والمهمشة والاكتفاء بالدور الريعي.

هذه القراءة تدحض تصورين: الأول متعلق بدولة ما بعد الاستقلال؛ إذ رأى الباحثان أن الدور النضالي ضد الاستعمار الأوروبي عمل على إجلاء المُستعمرين مع الإبقاء على منظومات عملهم لكن في ثوب دولة وطنية، وهنا يصبح الماضي النضالي بالنسبة لدولة ما بعد الاستقلال أداة تستطيع من خلالها تقييد منظومات العمل النضالي السابقة، والعمل على احتوائها لصالح رؤى اجتماعية ترى في السكان المحليين وعاءً للتجارب الرأسمالية ومشاريع الإصلاح الاجتماعي.

مثلت فترة الخمسينيات تصاعدًا في الخطاب الحضري للمقاومة الجزائرية (جبهة التحرير الوطني) ما أسهم في بلورة توجه مديني/ برجوازي في مقابل المقاومة الريفية التي قُمعت سابقًا خلال القرن التاسع عشر، ومع إعلان الاستقلال عام 1962 تم استيعاب منظمة التحرير باعتبارها منظومة حكم هنا تلقفت الدولة الناشئة الأسلوب الاستعماري في منظومة الدولتية. أما التصور الثاني الذي يدحضه الفصل فهو التصور المؤامراتي

حول نشأة الإسلام السياسي؛ إذ يرى تصاعد الإسلام السياسي كخطاب سياسي، ثم كقوى إمبريالية أمرًا عاديًّا في ظل تغيير داخل أبنية النظام الجزائري، واعتماده على منظومة اقتصادية نيولبيرالية، ما جعل الإسلام السياسي يتنامى على صعيد الفئات الأفقر بفضل خطابه الوعظي والخدمي تعويضًا عن تردي خدمات الدولة.

أسهمت انتفاضة أكتوبر 1988 في استمرارية توجه الدولة الجزائرية النيوليبرالي، من الناحية السياسية، وذلك بفتح المجال العام لمختلف التيارات، ومنها التيار الإسلامي بالطبع الذي تصاعد إلى أروقة السلطة ما أنتج (العشرية السوداء). وقد تولى بوتفليقة الحكم بعد عشرية سوداء فاستكمل ما بدأته الدولة الجزائرية من سياسات اقتصادية نيولبيرالية منذ منتصف الثمانينيات، لكنه أتى في فترة تاريخية عالمية تمحورت حول خطاب الإدارة الأمريكية، واستفادت الأخيرة من التجربة الجزائرية مع جعل الدولة الجزائرية تتعمق أكثر في السردية الأمريكية فيما يخص الوضع الخارجي، أما في الداخل فقد ارتسمت معالم سياسة تلقي باللوم على الشعب وتتهمه بالتأخر، والتخلف، وليست الدولة، واستطاع بوتفليقة إدارة صراع النخب الأمنية لصالحه بالحفاظ على العائد الريعي ما جعله وجهة آمنة لنظام هش منالداخل.

أسهمت انتفاضة أكتوبر ١٩٨٨ في استمرارية توجه الدولة الجزائرية النيوليبرالي، لكن من الناحية السياسية بفتح المجال العام لمختلف التيارات، ومنها بالطبع التيار الإسلامي..

ونستطيع القول إن العلاقة بين الدولة الجزائرية، ومواطنيها مرت بعدة مراحل تاريخية منذ الاستقلال إلى العسكرة إلى السياسات الاقتصادية النيولبيرالية إلى صراعها مع الإسلاميين، وضمن هذه المراحل أصبحت الدولة تعمل لصالح نخب مدينية في تهميش واضح للريف والصحراء، تجسدت بوادره عامي 2011، و2015 في حركة احتجاجية على سياسات الدولة الاقتصادية، والاجتماعية ما جعل الحراكات الجزائرية بحاجة لخطاب مختلف. وهنا تجسدت الأمازيغية (اعترف بها كلغة عام 2011) كخطاب احتجاجي وهوياتي جامع لكل الجماهير، بخاصة ضد مشروعها الرامي لاستخراج الغاز الصخري ما يعني إضعاف وإزالة مجتمعات صحراوية. وقد راكم الحراك الجزائري عام 2019 خبرات ثقافية، واحتجاجية ليشمل الحركة الطلابية والنسائية حتى جماهير الكرة أسهمت من خلال المدرجات بإطلاق شعاراتها في موجات الاحتجاج، ما يجعل الدور الثقافي في الحراك الجزائري متنوعًا بين حركة الشارع، والفضاء الافتراضي، في مواجهة سيطرة الدولة الإعلامية مع توسع جماهيري قادم من المناطق المهمشة، لكن مع هذا لم يبلور الحراك منظومة سياسية تقود الحراك، وهذا ما يسيمه الفصل (ثوار بلا تنظيم).

تشرذم/طائفية

يشترك المتابعون لأنظمة الطائفية العربية كنموذجي العراق، ولبنان في أن تلك الطائفية وليدة أنظمة ذات إرث انقلابي، ومعاد لتنويعاتها الإثنية، والدينية لكن الباحث زيدون الكناني من خلال الفصل العراقي يقدم ملمحًا تاريخيًّا يعود بالطائفية إلى النموذج الاستعماري البريطاني الذي قرأ النخب العراقية وفقًا لثنائية (الأصدقاء والأعداء)؛ حيث النخب السنية تمثل الأصدقاء بينما الشيعية هم الأعداء؛ بخاصة وأن النزعة الشيعية بلورت نفسها كخطاب احتجاجي ومشكلة كردية. وهنا تشكلت الدولة العراقية كمُشكل طائفي منذ الأساس بالإضافة إلى الرؤية المقلوبة لتطور الطائفية فإن الصورة الإجمالية للدكتاتوريات العربية ترى نفسها أنظمة تقدمية علمانية، وأن الاحتلال الأمريكي سلم العراق للشيعة، ومن ورائها إيران.

راكم الحراك الجزائري ٢٠١٩ خبرات ثقافية، واحتجاجية ليشمل الحركة الطلابية والنسائية وحتى جماهير الكرة أسهمت من خلال المدرجات بإطلاق شعاراتها ما يجعل الدور الثقافي متنوعًا..

تحيلنا هذه السردية إلى ما ذكره فالح عبد الجبار حول التحول الديني للسياسات البعثية التي رأت في الشيعية توجهًا لبناء هوية عراقية موحدة، واستخدام رموز إسلامية شيعية تخدم ذلك. وكان هذا الاستقراء ضروريًا لفهم التطورات الداخلية لمنظومة البعث الذي لم يتمسك بالحلول العلمانية طيلة الوقت، بل أراد استيعاب الرموز

الشيعية ضمن ترتيبات الدولة العراقية. كما يدحض الفصل السردية المتعلقة بدوائر الاحتلال الأمريكي التي اختلفت بشأن المؤسسات العراقية في ترتيبات فترة ما بعد صدام بين المبعوثين بول بريمر وجاي جارنر؛ فالأول أراد تطهير العراق من البعث، بينما الثاني استنكر تدمير البنية التحتية. أما عن الوجود الشيعي، فالكاتب يرصد ملمحين مهمين: الأول بخصوص تحالفاته الأمريكية التي اتفقت على تفكيك بنية البعث، أما الملمح الثاني: التنوع بداخل الكتلة الشيعية بين تيار صدري، ومحاولة إيران بناء تحالفات بداخل التيار الصدري، أبرزها إنشاء عصائب الحق بقيادة قيس الخزعلي.

يأتي حراك العراق 2019 استكمالاً لموجات التظاهرات التي بدأت منذ عام 2011 ضد سياسات المحاصصة، والبطالة والتهميش، لكن المميز هذه المرة أنها أتت من قلب المناطق الشيعية، بينما ظل الجانب السني مهمشًا لتصاعد النزعة الأمنية ضدهم بسبب تنظيم داعش. ونستطيع التأكيد على أن التحركات السياسية في الشارع العراقي كبقية النماذج تعتمد على الشارع، ومع أنها تمثل بدايات لبناء مشروع سياسي فإن لحظة كورونا أسهمت في إعادة بناء قوة الدول في مواجهة شعوبها من خلال إجراءات الاستثناء والحظر.

هويات وبنوك

يعتمد الباحثان جاد صعب وجوي أيوب على قراءة اقتصادية/سياسية الهدف منها تفكيك الأساطير المؤسسة للهوية اللبنانية من خلال البحث عن جذور الطائفية المتراكمة منذ عقود داخل النخب السياسية والشارع، مع التركيز على النخب السياسية اللبنانية التقليدية، وكيفية تفاعلاتها من جانب، والتطورات السياسية التاريخية التي اعتمد عليها الحراك اللبناني 2019 من جانب آخر، لنرى أنفسنا أمام متخيل لبناني أكثر منه هوية لبنانية موحدة.

في البدء لا بد من التذكير بأن الهويات الوطنية تأسست على أفكار متخيلة، لكنها في الوقت نفسه تمتلك القدرة على بناء الهوية من خلال مظاهرها القومية كالمتاحف والمناهج الدراسية والانتصارات العسكرية، لكننا في الواقع اللبناني نجد أننا أمام متخيل لا هوية لبنانية وطنية، إذ أسهمت الظروف الاستعمارية بشقيها العثماني والفرنسي في استحداث نموذجين؛ الأول: العائلة المصرفية، والثاني: الجنرال التوافقي، وبينهما الميثاق الوطني كرعاية مباشرة للطائفية اللبنانية. ويجب علينا التركيز على النظر إلى اتفاقية الطائف 1989 التي أنهت الحرب الأهلية باعتبارها العامل الوحيد الذي بلور حزب الله كفاعل سياسي ضمن المكون السياسي، والحقيقة أننا نجد مبالغة حول تقدير الدور الدولي في السياق اللبناني (لا نغفل أهميته بالمناسبة) لكن هذه النظرة تغفل الظروف الداخلية التي جعلت من النفوذ الشيعي يتبلور سياسيًا في نموذج (حزب الله). وكذلك التركيز على حدود العنف، والحقيقة أن النموذج اللبناني منذ القرن التاسع عشر ارتكز على الحروب الأهلية كفاعل لضمان تفوق الجماعات السياسية كالمارونية (1840: 1896)، ثم السنية (حوادث 1958)، والشيعية خلال الحرب (1975: 1990). (2) وقد جاء الحراك اللبناني كمحاولة سعى من خلالها المجتمع اللبناني إلى إيجاد حيز لنفسه في وجه التدخلات الخارجية العربية منها والأجنبية، لكن في الوقت ذاته أتت موجة الربيع العربي بمعادلين جديدين داخل الشأن اللبناني؛ الأول: إضعاف قوة سوريا الأسد التي طالما لعبت دورًا في تمزيق

عرى المجتمع اللبناني، ومع تدخل حزب الله في الثورة السورية تزايد ضعف الاقتصاد اللبناني ما انعكس على قطاعات البنية التحتية والخدمات المقدمة، بخاصة أزمة النفايات، والتي نتج عنها ميلاد حركة (طلعت ريحتكن) عام 2016. والثاني: استيعاب جموع جديدة غير مسيسة للساحة السياسية اللبنانية بعيدًا تمامًا عن النخب التقليدية وارتباطاتها الخارجية خاصة الفئات الشبابية تلك التي ستقود الحراك اللبناني عام 2019.

تفجر الحراك اللبناني وسط ظروف اقتصادية بالغة السوء من اقتطاع لمعاشات الجنود المتقاعدين، ونظام مصرفي يدير الاقتصاد من خلال الشركات الخاصة، وعدم وجود تقاطع واضح بين القطاع العام أو الخاص، واستمرار المحسوبية. هذه العوامل الاقتصادية مع الميراث السياسي جعلت الدولة اللبنانية تدور حول الأفراد، وليس العكس أنتج حراكًا لبنانيًا تجاوز النزعة الطائفية، والمثير للدهشة أيضًا أنه تصاعد من المناطق الخاضعة لحزب الله ما يشير إلى محاولة بناء خطاب سياسي يبتعد تمامًا عن النخب السياسية التقليدية.

التحركات السياسية في الشارع العراقي كبقية النماذج تعتمد على الشارع، ومع أنها تمثل بدايات لبناء مشروع سياسي فقد أسهمت الكورونا في إعادة بناء قوة الدول في مواجهة شعوبها..

إمبريالية ومقاومة

تموضع الباحثة فريدا عفاري النزعة العسكرية الإيرانية ضمن سياقاتها الطبيعية التي بدأت منذ عهد الشاه، واستكملها الخميني بخطابه الإسلامي، وأن الشعارات من قبيل (الموت لأميركا)، و(المجد للمستضعفين) ليست سوى غطاء إمبريالي كحالة مميزة للرأسمالية الإيرانية التي تشكلت على يد شاه إيران. وتتميز إيران عن بقية الدول المشار إليها بنزعتها العسكرتارية التي تتنوع بين خطاب مقاومة للخارج، وبناء مؤسسات عسكرية داخلية على شاكلة الحرس الثوري الإيراني. وهنا تظهر الإمبريالية العالمية كخطاب حاضر في المكون السياسي الإيراني.

لا يرتكن الفصل إلى الدولة الإيرانية بل يرصد تحولاتها الخارجية والداخلية، بخاصة علاقاتها مع المناطق ذات الأقليات العربية والكردية، وكيف أن الحراك الإيراني عام 2019 تولد من المناطق المهمشة التي تأثرت بالهيكلية الصناعية التي تقودها الحكومة الإيرانية. ونرى في الحالة الإيرانية عكس الصورة المنقولة إلينا؛ باعتبارها مجتمعًا تغيب عنه السياسة والحركات الاجتماعية، وأن الكل وراء الجمهورية الإسلامية، وخطابها الإمبريالي، لكن هذه القراءة تحاجج السردية التقليدية، وتقدم لنا صورة لمجتمع حيوي على عكس الصورة الجزائرية؛ فالنموذج النسوي الإيراني على سبيل المثال تميز بحالة من الاستقطاب الإسلامي/ الماركسي نتيجة الفكر المناهض لدولة الشاه، وخطابها التحديثي، وبقيام الثورة الإسلامية تبنت خطابًا ذكوريًا معاديًا لإصلاحات الشاه، على عكس السرديات التي نرى من خلالها الثورة الإسلامية باعتبارها نبتًا شيطانيًا. ويركز الباحث على نقطة مهمة متعلقة بالحركات الاشتراكية وخطابها ذي الرؤية الستالينية التي رأت في الخميني نموذجًا رائدًا ضد الإمبريالية الغربية، وهو ما غاب عن الحركات الإسلامية التي استلهمت رؤى الماضي؛ خاصة خطاب الخلافة، لبناء مشروعها السياسي، على عكس الخميني الذي انطلق من خطاب المقاومة لحشد مختلف القوى الإيرانية.

الرسالة التي يقدمها لنا كتاب (ربيع جديد) أن الحركات الاحتجاجية ليست وليدة نزعة مؤامراتية كما تروج الدول ونخبها الريعية وبرجوازيها القدماء، بل وليدة ظروف تاريخية تشكلت منذ دولة ما بعد الاستقلال. فإبعاد الناس عن المجال السياسي قد يفلح على المدى القصير، لكنه سيظل حالة استثنائية، ويستكمل الكتاب رسالته بأن يضعنا أمام خيار مقاومة الدولة الحديثة من خلال بناء خطابات سياسية. فمهما غابت السياسة عن الواقع المديني فالحراكات التي تتبعها الكتاب نشطت دائمًا من خلال الأطراف المهمشة التي رأت فيها الدول مجرد فوائض ريعية.

المراجع

1/ فالح عبد الجبار: العمامة والأفندي سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني، ترجمة: أمجد حسين، منشورات الجمل، ط1، 2010، ص 372.

2/ يتناول فواز طرابلسي في كتاب (الطبقات الاجتماعية والسلطة السياسية في لبنان) العوامل الداخلية التي أسهمت في صعود القوى الشيعية الجديدة وليست التقليدية التي استندت عليها الحقبة الشهابية في الخمسينيات والستينيات مثل آل العبد لله، إذ تجسدت تطلعات جديدة للطبقات الاجتماعية والإنتلجنسيا في شخص موسى الصدر الذي خلفه فيما بعد السيد حسن نصر الله.

انظر: فواز طرابلسي: الطبقات الاجتماعية والسلطة السياسية في لبنان، دار الساقي، ط1، 2016، ص 50،51.

المشاركون في العدد ٢٣

■ أحمد حسن	كاتب ومترجم
■ أحمد عبد الجبار	شاعر وكاتب
■ أحمد محسن	كاتب ومترجم
■ أسماء زيدان	صحفية
■ أسماء يس	شاعرة ومترجمة
■ أكرم إسماعيل	كاتب وسياسي
■ أميمة صبحي	كاتبة ومترجمة
■ بيسان عدوان	كاتبة وناشرة
■ جرجس شكري	شاعر وناقد مسرحي
■ خالد يوسف	كاتب ومترجم
■ رياض حمادي	كاتب وناقد
■ شيماء علي	مترجمة متخصصة في الشأن الإيراني
■ عبد الهادي محمد عبد الهادي	كاتب وباحث
■ عمرو جمال	مترجم
■ عصام زكريا	كاتب وناقد
■ علي علاء	كاتب
■ فتحي عبد السميع	شاعر وباحث
■ منى أبو النصر	كاتبة وصحفية
■ محمد جميل	كاتب فلسطيني
■ محب جميل	كاتب ومؤرخ فني
■ ميشيل حنا	كاتب ومصور
■ محمد حسني	مدرس الأدب العبري بجامعة عين شمس
■ محمد عبد النبي	روائي ومترجم
■ محمد عبد الفتاح	صحفي ومترجم
■ محمد كمال	صحفي
■ منى السيد	كاتبة
■ منى يسري	صحفية
■ مينا ناجي	كاتب وروائي
■ ماجد وهيب	قاص وكاتب
■ هشام جعفر	صحفي وباحث
■ الأب وليم سيدهم	رئيس مجلس إدارة جمعية النهضة العلمية والثقافية «جزويت القاهرة»
■ يحيى فكري	كاتب وناشر